قصص

كارِل تْشابِك

حكايات بين جعبة وأخرى

ترجمها عن التشيكية: برهان قلق

المتوسط

@ketab_n
Follow Me
9.5.2017

كارل تْشابِك

حكايات بين جعبة وأخرى

ترجمها عن التشيكية: برهان قلق

المتوسط

Twitter: @ketab_n

حقوق النسخ والترجمة © ٢٠١٥ منشورات المتوسط - إيطاليا.

جميع الحقوق محفوظة. لا يُسمح بنسخ أو استعمال أو إعادة إصدار أي جزء من هذا الكتاب سواء ورقياً أو إلكترونياً أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي من الناشر. ويجوز استخدامه لأغراض تعليمية أو لإصدار كتب موجهَّة إلى ضعيفي البصر أو فاقديه شريطة إعلام الدار. تستثنى أيضاً الاقتباسات القصيرة المستخدمة في عرض الكتاب.

Povídky z jedné a z druhé kapsy *by* "Karel Capek"
Arabic translation copyright © 2015 by **Almutawassit Books**.

المؤلف: كارل تْشابِك / المترجم : برهان قلق (عن التشيكية)
عنوان الكتاب: حكايات بين جعبة وأخرى
الطبعة الأولى: ٢٠١٥.
تصميم الغلاف والإخراج الفني: الناصري

ISBN: 978-91-87373-73-2

منشورات المتوسط

ميلانو / إيطاليا / العنوان البريدي:
Alzaia Naviglio Pavese. 120/ 20142 Milano / Italia
العراق / بغداد / الحيدر خانة / محلة حسن باشا / ص.ب 55204.
www.almutawassit.org / info@almutawassit.org

Twitter: @ketab_n

تمّت الترجمة عن الطبعة التي أصدَرتها دارُ النشر المُسماة (الكاتب التشيكوسلوفاكي) باللغة التشيكية في سنة ١٩٨٥م.

Twitter: @ketab_n

مقدمة
كارِل تْشابِك وحكاياته البوليسيّة

في بلاد التشيك، يعرفُ الجميع من هو كارِل تْشابِك؛ التلاميذ يدرسونه في المدارس، فضلاً عن أنّ الكثير من الناس، من مُختلف الأعمار، مازالوا يقبلون إلى يومنا هذا على قراءة كتبهِ بسُرور ويرتادون المسارح التي تُقدّم أعماله المسرحية في الوقت نفسه الذي خفّ فيه اهتمامُ غالبيتهم بالكتّاب الآخرين من بِدايات القرن العشرين. يُعتبرُ تشابك في عداد الكتاب التشيك الذين تُرجِمَت إبداعاتهم ولا تزال إلى اللغات الأجنبية، والذين حازوا تقديراً في الخارج أيضاً، خاصةً في الدول الناطقة باللغة الإنكليزية. وتؤدي دوراً مهماً في ذلك، ليسَت النكهة الفُكاهية لكتاباتهِ فقط، بل فلسفتها الإنسانية أيضاً، وكذلك الثقة بالجانب الطيّب في الناس وهَواجس التحذير من المَخاطر التي يحملها العالم المُعاصر في طيّاته.

ولِد كارل تشابك في سنة ١٨٩٠ في شمالِ بلاد التشيك لأب طبيب، وترعرعَ مع أخيه جوزيف الذي غدا، في فترةٍ لاحقة، رَساماً، وشاركَ أخاه في بعضِ أعماله الأولى. طوّر كارل في بداياته الأولى نشاطهُ الفعّال كصحفي، وتزامنَت ذروة أعمالهِ الأدبية مع فترة الجمهورية التشيكوسلوفاكية الأولى (١٩١٨– ١٩٣٨)، وقد جمعتهُ مع مؤسسها وأول رئيسٍ لها (ت. ج. ماساريك) عَلاقة صداقة شخصية، وإيمان صادقٌ بالديمقراطية. وقد عبّر تشابك عن القيم الأخلاقية والديمقراطية المُشتركة بينهما في كتابهِ أحاديثُ مع (ت. ج. م.)، الذي تجدُ الشبيبة التشيكية فيه إلى اليوم مَرجعاً جيّداً عن الجمهورية التشيكوسلوفاكية في فترةِ ما بين الحربين العالميتين.

Twitter: @ketab_n

تُعتبرُ الحكايات التي توثّق للعلاقاتِ الإنسانية المُعقدة، ولنسبيةِ الحقيقة- أي كما تبدو الشخصية الواحدة والحدثُ الواحد لعيون مختلفة- من بين مواضيع تشابك الكبرى. ومن مَواقع النسبية، توصّل تشابك إلى الاحترام العميق لمَشاعر الإنسان البسيط، والتي تظهرُ بشكلٍ خاص في روايته (الواردية الأولى) التي تَحكي تَضامُن الناس خِلال كارثة منجم. وفي عداد أعماله ذات الصبغة الخيالية، يرسمُ تشابك مَخاطر التطور التقني غير المؤنسن. ففي روايته (كراكاتيت)، كأنّما هو يتنبّأُ باختراع القنبلة الذرية واستعمالها. وفي عمله المسرحي (R.U.R)، يتناولُ تشابك التصور عن الإنسان الصناعي المستقبلي- الإنسان الآلي، ويطلقُ عليه اسم روبوت، والذي انتقل فيما بعدُ من التشيكية إلى مُعظم لغات العالم. إنسانيته العميقة انعكسَت في إبداعه القصصي، وفي كتاباتهِ عن الرحلات المشوقة في الدول الأوروبية، ومقالاتهُ التي تتناولُ مواضيع الحياة العاديّة وقيمها التي لا تَحظى في كثيرٍ من الأحيان بالانتباه الكافي.

رواية تشابك الخيالية (حرب السمندر) التي تناولت تَزايد عدوانية القوى الأجنبية المعادية، كانت بمثابة رد فعلهِ على صُعود الفاشية. كما قدّم صورة كاريكاتورية عن النزعة الحربية للفاشية، وذلك في مَسرحيته التراجيدية (المرض الأبيض)، ذاك المرض القاتل والمستعصي الذي يُذكّر بالجُذام، يُصابُ به الدكتاتور الفاشي أيضاً، لكن ما يُمكن أن يحفظَ حياته هو دواءٌ اكتشفه الطبيب النبيل والمحب للسلام جالين. ومن أجل أن يتعافى، فإن الدكتاتور على استعدادٍ للتراجع عن الحرب، لكن جموعاً من المَهووسين التوّاقين للحرب تسحقُ الطبيب بأقدامها وهو يحملُ الدواء في طريقه إليه.

التهديد الهتلري المُتصاعد يدفع تشابك أخيراً للانتقال إلى المُقاومة النشطة. ففي آخر أعماله المسرحية، (الأم)، نجدُ المرأة التي قتلَ المُعتدون الأجانب أبناءها الأربعة، تضعُ بنفسها البندقية في يدِ أصغرهم وترسلهُ للقتال ضدّ الشر، لكنّ الشرّ انتصرَ حينها لبعضِ الوقت في الواقعِ

Twitter: @ketab_n

الأوروبي؛ مُعاهدة ميونيخ سيئة الذكر الموقّعة في أيلول في سنة ١٩٣٨ حَرمت تشيكوسلوفاكيا من إمكانية التصدّي لهتلر. تشابك نفسه توفي في فترةِ أعياد الفصح، أسابيع قليلة قبل الاحتلال النازي لبَقية الجمهورية المُدمّرة والمغدورة.

(حكايات من جُعبة وأخرى) الصادرة في سنة ١٩٢٩، تشملُ خطّين من الحوادث البوليسية، وهيَ من ضمن إبداعات تشابك القصصية، وتحتلُ موقعاً طليعياً في أدبه. إنّها ليسَت حكايات بوليسية بالمَعنى الحرفي للكلمة؛ الأهمُ من كشفِ الجريمة، النظرة إلى داخلِ روحِ مُرتكبي الجرائم العاديين، ومن جهةٍ أخرى هُناك الرجال الطيبون من حرّاس القانون. يُقدّم المؤلف لنا تلك الحكايات القصيرة بأسلوبهِ السلس الأصيل، المُعطّر بالتسامح حيال الضعفِ الإنساني، وبالفكاهة الخفيفة.

قُدّمَت بعضُ هذه الحكايات كأفلام، وفي الفترات الأخيرة كأعمال تلفزيونية، وكلّها تَسترعي الانتباه، تُسلّي، وفي كثيرٍ من الأحيان تَدعو للتفكير.

البروفسور الدكتور لوبوش كروباتشك
جامعة تشارلز، براغ

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

مَجموعةُ طَوابِع

"إذن، إنّها لحقيقة مُقدّسة"، قال السيد المُسن كاراس، وأضاف: "لو نبش الإنسان ماضيه، لوجدَ فيه ما يَكفي لحياةٍ مُختلفة تمَاماً. مرّةً.. إمّا خَطأ، أو تبعاً لميوله.. يكون قد اختارَ نمط حياةٍ مُعيّن، وعاشه حتّى النهاية. لكن أسوأ ما في الأمر، أنّ أنماط الحياة الأخرى، الحياة الممكنة، لا تنتفي تماماً، ويحدث أحياناً أن تشعرَ بأنّ فيها ألماً، كما في الساق المقطوعة.

عندما كنتُ صَبياً في العاشرة من العمر، بدأتُ في تكوين مَجموعة طوابع، لكنّ والدي لم ينظُر لهذا الأمر بعينِ الرضى، لاعتقادهِ أنّه سيؤثرُ على دِراستي سَلباً. وكان لديّ صديق اسمه لويزيك تشيبيلكو، انغمسنا معاً في ذلك الهيام المَحموم بالطوابع. لويزيك هذا، كان ابنَاً لعازفٍ على الأرغن اليدوي، في الشوارع، كان صَبياً أشعث الشَعر، يعلو النمش وجهه، ويَبدو كعصفور مَنفوش الريش. لقد أحببتهُ كما يتقنُ الأطفال فقط حبّ أصدقائهم. لعلمكمُ، أنا رجل مُسن، كانت لي زوجة وأطفال. لكن الحق أقول، لا يوجد شعور إنساني جماله يماثلُ جمال الصداقة. ويمكن للإنسان امتلاك هذا الشعور طالما هو فَتي. لكن بعدها، وبكَيفية ما، تجفُّ مَشاعره وينحو للأنانية. ببسيطِ الكلام، مثل هذه الصداقة تنبعثُ من الحماس والإعجاب، من الانغماس في الحياة، من فَيض المشاعر والإفراط فيها إلى حدٍّ يجعلُك تُهديها لأحدٍ ما. والِدي كان مُحلفاً قانونياً، ورئيساً لتجمّع الوجهاء. كان مُبجلاً جداً وصارماً جداً. أمّا أنا، فقد تعلّقتُ من كلّ قلبي بلويزيك ابن الأب السكّير عازِف الأرغن المُتسكّع، وابن عاملة الغسيل المُنهكة. لقد احترمتُ لويزو وأحببته بعمقٍ لأنه كان أشطر منّي. كان مُستقلاً

Twitter: @ketab_n

ومُندفعاً كجرذ، وعلى أنفهِ شامات. كان يقذفُ الحجارة بيُسراه.. لم أعد أدري كم من الأمورِ قد أحببتها فيه، لكنّهُ كان أكبر حبٍّ في حياتي.

كان لويزيك إذن مَحل ثقتي. عندما بدأتُ تكوين مَجموعة طوابع، قال لي أحدهم: إن الرجال الحقيقيّين فقط يُقدّرون قيمة المجموعات. وهذا صحيح، فأنا أعتقدُ بأنّ هذه العمليّة إنّما هي مَوهبة، أو تَركة من تلك الأيّام، عِندما كان كلّ رجل يقومُ بتكوين مَجموعة ما من رؤوس أعدائه، أو من الأسلحة المَسروقة، أو من جلودِ الدببة أو قرونِ الغزلان؛ وعموماً، من كلّ شيء كان قد استطاع اغتنامه. لكن مجموعة الطوابع هذه ليسَت قضية امتلاكٍ فقط، بل هيَ مُغامرة أبدية أيضاً.

يتعرّف الإنسان، على نحو ما وبانفعال، على أرجاءِ بلاد بعيدة، فلنقُل بوتان، بوليفيا، أو رأس الرجاء الصالح. ببساطةٍ يمكن القول أنّ شيئاً ما يجمعهُ مع تلك البلدان كأنما هو عَلاقة شخصية وصادقة. ثم أنه في هواية جمع الطوابع هذه، تكمنُ نوازع سياحية، ونوازع مَخر عباب البحر؛ وعُموماً، تلك المغامرات العالمية للرجال. إنه أمر يشبه الحملات الصليبية.

لم يكُن والدي مَسروراً من هوايتي هذه كما أسلفت، فالآباءُ لا يحبون عادةً أن يفعل أبناؤهم شيئاً آخر غير ما فعلوهُ هُم. وحتى أنا، كنتُ تجاه ولدي من هذا الطراز. مَشاعر الأبوة تلك، تكونُ مُختلطة عموماً، ففيها حبٌّ كبير، لكن فيها أيضاً شيء من القلق، عدم الثقة، عدم الصداقة، أو كيف أعبّر؟ كلّما ازداد حب الإنسان لأطفاله، كَبُرالشعور الثاني فيه. ولهذا توجب عليّ إخفاء المجموعة في الكوخ، كي لا يعثرَ والدي عليها. كان في الكوخ صندوق قديم، وهو ما يُعرَف بصندوق الطحين، وفيه كُنّا نحشر أنفسنا كفأرين، وكنّا نستعرض الطوابع، انظر.. هذا هو طابعُ هولندا، وذاك طابعُ مصر، وانظر.. انظر هذا طابع السويد. كان اضطرارُنا للاختباءِ مع هذه الكنوزِ مَسألة فائقة الجمال والاستمتاع. أمّا كيف كنتُ أحصلُ على تلك الطوابع، فهي مُغامرة من نوعٍ آخر. كنتُ أذهب إلى من أعرف ومن لا أعرفُ من العائلات، أتوسّلُ كي يَسمحوا لي بنزعِ الطوابع عن رَسائلهم القديمة.

Twitter: @ketab_n

كان عندهم، هُنا أو هُناك، في الأدراج القديمة والخزائن، الكثير من الأوراق العتيقة، وكانت سَاعاتي الأكثر سَعادة هي تلك التي أستعرضُ خلالها تلك الأوراق والأكوام المغُبّرة، عندما كنت أجلس على الأرضِ، أبحثُ عن طابع ما لم أقتنيهِ بعد- أنا الحمار، لم أكن أجمعُ الطوابع الشقيقة، وعندما كان يحدث أني أجدُ طوابع لبلدٍ عَريق، أو ما لا أدري كيف أسمّيه، أي مثل الولايات الألمانية الصّغيرة أو المدنِ الحرّة، كان الفرح يَغمرني، مُختلطاً بشعورٍ من الألم، فكلّ سَعادة فائقة توجع، كيف أقول؟ توجعُ لكن بمذاقٍ حلو. كان لويزيك يَنتظرني في الخارج، وعندما أخرجُ في نهاية المطاف، كنت أهمسُ له وأنا أمام الباب: لويزو!.. انظر، لقد وجدتُ بينها طابع هانوفر، ألم تحصل أنتَ عليه بعد؟ بلى لقد حصلتُ عليه! ثم ننطلقُ بغَنيمتنا إلى البيت.. إلى كوخنا.

كانت في منطقتنا مَصانع نسيج تعملُ بكلّ أنواع الزيوت، وتنتجُ الألياف والقماش القطني، والشيت والأصواف رَديئة النوع. هذه النفايات تُنتَجُ عندنا خصيصاً للأجناس الملونة في كلّ الكرة الأرضية. لقد سُمِحَ لي بالبحثِ عن الطوابع في سِلال الورق التي مثّلت أغنى مكانٍ اصطاد فيه الطوابع. هُناكَ وجدتُ طابع سيام، وجنوب إفريقيا، الصين، ليبيريا، أفغانستان، بورناي، البرازيل، نيوزيلاندا، الهند، الكونغو، ولا أعرف ماذا أيضاً. ألا توحي لكُم هذه الأسماء بالأسرار والاشتياق؟ يا إلهي.. أيّ سَعادة.. سَعادة طاغيةٍ كانت تَغمرني، حِينما أجدُ طابعاً من المَحميات البريطانية أو كوريا! نيبال! غينيا الجديدة! سيراليون! مدغشقر! اسمَعوا! هذا الخفقان لا يستطيعُ فهمه إلّا صياد أو باحث عن الكنوز أو عالم آثار يشرفُ على الحفريات؛ أن تبحث عن شيء ثم تعثر عليه، يعني ذلك التوتر الكبير ثم الراحة التامة التي يمكن أن تمنحها الحياة للإنسان. يجبُ على كلّ إنسان البحث عن شيء ما؛ إن لم تكن الطوابع، فلتكُن الحقيقة، أو السرخس الذهبي، أو على الأقل السهام الصخرية، أو فليبحث في صناديق القمامة.

صداقتي مع لويزيك وجمع الطوابع مثّلتا أجملَ سنوات عمري، بعدها

Twitter: @ketab_n

أصبتُ بالحمّى القرمزيّة، ولم يعودوا يَسمحون للويزيكو باللقاء بي. كان يقفُ مَثلاً عند مدخل بيتنا ويُصفّر كي أسمعَه. ومرّة لم ينتبهوا لي، أو شيء من هذا القبيل؛ باختصارٍ، هَربتُ من سَريري واتجهتُ إلى الكوخ مُباشرة لأستعرضَ طَوابعي. قِواي كانت ضعيفة لدرجة أني بصعوبةٍ تمكّنتُ من فتح الصندوق، و يا للمفاجأة: كان الصندوق خَاوياً وكرتونة الطوابع قد اختفَت.

لا أستطيعُ وصف ألمي وشدّة همّي لكُم. أعتقدُ أني وقفتُ متيبساً، حتى البكاء لم أقدر عليه، ناهيك عن انكماشِ حَلقي وتجمّدي. أول ما قد روّعني حقيقة أن طوابعي، مَسرّتي الكبرى لم تعُد موجودة. أمّا الأكثر ترويعاً، أنّ لويزيك، صَديقي الوحيد، بالتأكيد قد سرقَها وأنا مَريض. هذا الأمر مثّل لي خيبة ويأساً واختناقاً وأسفاً. اسمعوني! إنّهُ لأمرٌ رهيب أن يعاني طفل ذلك. لا أدري كيف خرجتُ من الكوخ. انتابتني حرارة عالية، وفي اللحظات الأصفى فكرتُ في الأمر بيأس. لم أخبر والدي ولا عمّتي، ففي ذلك الحين لم يعُد لي أمّ. أدركتُ أنهم لا يفهمونني بتاتاً، ولهذا شعرتُ بالغربة تجاههم. ومنذُ ذلك الوقت، لم أعُد أملكُ أيّ عَلاقة طُفولية حَميمة. خيانة لويزيكو كانت ضَربة قاضية لي، ومثّل الأمر لي أوّل خيبة أنالها من إنسان وأكبرها. شحاذ! هذا ما قلتهُ لنفسي، لويزيك إنّما هو شحّاذ ولهذا يسرق، وما أصابَني لم يكن إلا بسببِ مُصادقتي شحاذاً. لقد أضفى هذا الأمرُ عليّ قسوة، فأصبحتُ أميّز بين الناس- لقد أضعتُ حالة البراءة الاجتماعية، لكنني في ذلك الوقت لم أكُن قد أدركتُ بعد، كيف هَزّني هذا الأمر بقوة، وما الذي قد تدهور فيّ.

عندما شُفيت من الحمّى، شفيتُ أيضاً من آلام فقداني مَجموعة الطوابع. لكن ألمي استمر في القلب عندما علمتُ أنّ لويزيك أصبحَ لديه أصدقاء جُدد. ومرّة، بعد انقضاءِ فترة طويلة، اتّجه نحوي بتردد. قُلت له بجفاء، وكرجُل بالغ: انقلع من هنا، أنا لا أتكلم معك. احمرّ وجه لويزيك، وقال بعد لحظة: وهذا حسن أيضاً. ومنذُ ذلك الوقت، أصبح يمقتني بشدّة وعلى الطريقة البروليتارية.

Twitter: @ketab_n

وعليه، فقد تركَت تلك الأحداث أثرها على كل حياتي اللاحقة، وعلى خياراتي الحياتية، كما قد يقول السيد باولوس في مثلِ هذه الحالة. بل أكادُ أقول: إنّ عالمي قد انتُهِك، أضعتُ الثقة بالناس، تعلّمتُ كيف أمقتُ وكيف أستخِفُ بالآخرين. لم يعُد لي صَديق في أيٍّ من الأوقات، مُطلقاً. وعندما بلغتُ سِنّ الرشد، بدأتُ التأسيس على حَقيقة أني وحيد، ولا أحتاجُ إلى أحد، ولا أهدي لأيٍّ كانَ شيئاً. بعدها، واجهتُ حقيقة أنّ أحداً لا يُحبني. لقد برّرت ذلك بأنّي إنما أفتقدُ المحبة، وأحتقرُ كلّ عاطفة. وهكذا خُلق منّي شخصٌ فخور ينزعُ للارتقاء، مُهتم بنفسه، مُوسوس؛ وباختصارٍ، رجل على صواب. كنتُ سَيئاً وقاسياً في تعاملي مع مَرؤوسيّ، تزوجت بدون حب، ربّيتُ أطفالي في ظلّ الأوامر والخوف، وبفضلِ مُثابرتي ونَزاهتي، حققتُ مَكاسب غير قليلة. هكذا كانت حياتي، حياتي كلّها، لم أعِر انتباهاً لأيّ شيءٍ عدا السؤال الدائم عن واجباتي. وعندما تحلُّ ساعتي، سيُكتب عنّي في الصحف، كيف كنتُ شَغّيلاً قديراً وشَخصية نموذجية. لكن، آه لو عَرف الناس ما الذي يكمُن في هذه الوحدة، وعدم الثقة وشدة المراس.

ماتَت زوجتي قبل ثلاثة أعوام، ولفّني حزنٌ عميق، لكني لم أعترف بذلك، لا لنفسي ولا للآخرين. وبسبب هذه المحنة، شرعتُ بنبشِ كلّ ما عندي من أشياء تذكارية عائلية خلّفها والدي؛ صور ورسائل ودفاتري المدرسية القديمة. ولقد وصلتُ حدّ الاختناق عندما أدركتُ كم كان والدي حريصاً؛ كيف رتّبها وكيف حفِظها، كان ذلك تعبيراً عن حبه لي. هذه الأشياءُ كانت في الكوخ المُمتلئ بالصناديق والخزائن، وفي أسفلِ أحد أدراجها كانت هُناك علبة مَختومة بختم والدي. عندما فتحتها، وجدتُ فيها مجموعة الطوابع التي كوّنتها قبل خمسين عاماً.

لن أخفي عنكمُ شيئاً، انهمرَت دموعي بغزارة، وحملتُ هذه العلبة إلى الغرفة كما يُحمَل كنز مفقود. إذن، هكذا جَرى الأمر آنذاك! أدركتُ أخيراً أني عندما مرضتُ وجدَ أحدهم مَجموعتي تلك، بينما قام والدي بحَجزها كيلا أهملَ دراستي بسببها! ما كان لهُ أن يفعل ذلك، لكن حتّى

Twitter: @ketab_n

في تصرّفه هذا كانت تكمُن رعايته الصارمة ومَحبته لي، وأنا، لم أستقر على رأي، لكني بدأتُ أشعر بالشفقة عليه وعلى نفسي.

تذكرتُ بعدها أن لويزيك لم يَسرق مجموعة طوابعي تلك! يا إلهي.. كيف ظلمته! ومرّة أخرى ارتسمَ أمامي ذلك السوقيّ المنمّش والمنفوش؛ الله وحده يعلم أيّ مصير قد آلَ إليه، وهل لا يزالُ حياً حتى الآن. شعرتُ بالمعاناة والخجل وأنا أستعرضُ كلّ ما جرى. من أجل شَك ظالم وحيد، فقدتُ صديقي الوحيد، وبالتالي طفولتي. لهذا السبب بدأتُ حينها أنظر بازدراء تجاه الشريحة الفقيرة، لهذا كنت أتصرّفُ بغرور وبلا لباقةٍ مع كل واحد، ولهذا لم أستطع طوال حياتي النظر لطوابع البريد دون أن تُرافقني مشاعر عدم الرغبة والرفض، ولهذا أيضاً لم أكتب يوماً لعَروستي وزوجتي، وتذرّعتُ بأني أسمى من أن أُظهرَ مشاعري. لقد عانَت زوجتي من ذلك. لهذا كنتُ بهذه القسوة والوحدة. ولهذا، لهذا فقط، صنعتُ تلك المكانة، وأتممتُ واجباتي على خير وجه.

استعرضتُ من جديد حياتي كلها، فبدَت لي دفعة واحدة، مُقفرة وبلا معنى، وخطرَ لي أنه ما كان باستطاعتي عيشُ حَياة مُختلفة تماماً. لو لم يحدث ما حدث، لملكتُ روح الحماسة والمغامرة والفروسية، ولكان لي خيال وثقة. يا إلهي! لقد كان باستطاعتي أن أكونَ أي شخصٍ آخر؛ رحّالة، مُمثلاً، أو جندياً! كان في مقدوري حب الناس، والشرب معهم، وفهمهم، ولا أدري ماذا أيضاً! لقد حدثَ وكأنّ جليداً ذابَ في داخلي. استعرضتُ المجموعة طابعاً فطابعاً، كانت كلّها موجودة، لومباردا وكوبا وسيام وهانوفر ونيكاراغوا والفليبين وكل الدول التي رغبتُ بزيارتها في ذلك الوقت، والتي لن أراها الآن. في كلّ طابعٍ منها كان ثمة شيء مما قد يحدثُ أو لا يحدث. جلستُ إلى طوابعي طوال الليل وقيّمتُ حياتي. أدركتُ أنها كانت غريبة، مُصطنعة وغير حميمة، وأن حياتي الحقيقية لم تتحول إلى واقع أبداً.

Twitter: @ketab_n

لوّح السيد كاراس بيده "عندما أفكّرُ بالذي كنت أستطيعُ أن أكونه، وكيف ظلمتُ صَديقي لويزيك هذا".

كشّر الخوري فوفيش وهو يُصغي لهذه الكلمات، وأصابه الحزن. أغلب الظن أنّه تذكّر شيئاً ما مِن حياته الخاصة. قال بانفعال: "يا سيد كاراس، دعكَ الآن من التفكير بهذه الأمور، فما الفائدة في ذلك، ما عاد بالإمكان إصلاحها، ولا البدء من جديد .

تنهّد السيد كاراس وقد تَوردّ وجهه قليلاً: "لا يمكن، فأنت تعلم أني على الأقل.. على الأقل، بدأتُ إكمال هذه المجموعة".

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

طَبعاتُ أقدام

في تلك الليلة، كان السيد ريبكا مَاضياً في طريقه إلى البيت وهو يتمتّعُ بمزاجٍ طيّب، لأنّهُ أولاً وقبل أيّ شيء آخر، فازَ في لعبة الشطرنج؛ أماتَ الشاه بحصانه، في نقلة جميلة. ولهذا، راحَ وهو سائر في طريقه يُطري نفسه. ثانياً، لأنّ ثلجاً طازجاً تَساقط، وراح ينسحقُ تحت قدميه بطَراوةٍ في ظلّ هدوءٍ تامٍ وجميل. "يا الله.. إنّه لشيء رائع"، حدّث السيد ريبكا نفسه. تَغطّت المدينة بالثلج، الأمر الذي أضفى عليها- إضافة لصغرها- مسحة أزمنة قديمة حَميمة، وهذا ما يجعلُ الإنسان يسترجعُ في ذاكرته ما عَرفه عن مُنادي الليل، والعربات التي تَجرّها الأحصنة، ومنظر ثلج الريف، والعهود المُغرِقة في القدم.

"كشوب.. كشوب"، صوتُ انسحاقِ الثلج تحتَ قدميه هذا، دفعَهُ للبحثِ عن مَسلك لم تطأه أقدامُ المشاة بعد، لا لسببٍ سِوى السرور الذي كان يَبعثه فيه ذلك الصوت. كان عددُ طبعات المارّة يتناقصُ كلّما مضى قُدُماً، فهو إنّما يعيشُ في جادّة حدائقية صغيرة وهادئة. "هَه! هُنا عند البوابة، تلاشَت طَبعات حذاء رجالي وكعب نسائي، على الأغلب أنّها لزوجين.. هل هُما في مرحلة الشباب ياتُرى؟" هكذا حدّث السيد ريبكا نفسه بطراوةٍ، كأنّما أراد مباركتهم. "هُنا عبرَت الطريقَ قطّةٌ، وخلّفت على الثلج طبعات مخالبها الشبيهة بأزهار جميلة. ليلة طيّبة أيّتها القطّة. أرجلك الصغيرة سينتابُها البرد. والآن.. أرى صفاً واحداً لأثر أقدام رجالية عميقة. إنها سِلسلة من الخطوات المستقيمة والواضحة خلّفها عابرٌ وحيد. من هو يا ترى الجار الذي مَرّ من هنا؟" سأل السيد ريبكا نفسه بلهجة اهتمامٍ ودّية. "هُنا يمرّ قليل من الناس، وما من شيء يُنبىء بأنّ دراجة أو عربة ما

Twitter: @ketab_n

قد مَرّت من هذا الاتجاه، فنحنُ نعيشُ في أطراف الدنيا. حينما أصل إلى البيت، سيَبدو الشارع وقد تدثّر حتى أنفه برداء أبيض، وسيتخيّل نفسه لعبة أطفال وحسب. للأسف أنّ الجدّة التي توزّعُ الصحف في الصباح ستدوسهُ بقدميها في كلّ الاتجاهات، كما يفعلُ الأرنب تماماً".

توقّف السيد ريبكا فجأة، وبالتحديد عندما أرادَ قطع الشارع المتشح بالبياض، باتجاه بوابة بيته. لقد لاحظ أنّ طبعات الأقدام التي كانت قبله، انعطفت هي أيضاً من الرصيف، مُتّجهة عبر الشارع نحو تلك البوابة. "من الذي جاء لعندي ياتُرى؟" قال ذلك حائراً، وتابع بنظراته تلك الطبعات الواضحة وعددها خمس؛ آخر واحدة منها كانت في مُنتصف الطريق تماماً، وهي لِقدمٍ يُسرى، وما من أثر لخطوات بعدها؛ كلّ ما هناك ثلج لم يشوّهه ولم يلمسه أحد.

"ما أنا إلّا مجنون"، هكذا حدّث السيد ريبكا نفسه: "تُرى أكان هذا الشخص قد عاد إلى الرصيف!" لكنّهُ عندما تلفت حوله، لاحظ أنّ الرصيف قد افترشه الثلج بنعومة وامتلاء، ولا أثر لأي خطوة عليه. "ياللعنة! ما المسألة إذن؟" تساءل السيد ريبكا باستغراب: "على الأغلب أنّ بقية الطبعات ستكون على الرصيف الآخر!" ولهذا، دار حول صَفّ طبعات الأقدام الذي لم يَكتمل، وعبثاً، لم يرَ أثراً ولو لخطوة واحدة على الرصيف الآخر؛ حيث استمر الشارع كلّه مُضيئاً بثلجه المخملي والنظيف لدرجةٍ أذهلته. "لم يمر أحد هُنا منذ أن تساقطَ الثلج.. شيء غريب!" همهم السيد ريبكا: "على الأغلب أنّ هذا الشخص قد تراجع نحو الرصيف، واطئاً على الطبعات نفسها التي خلّفتها خطواته. لكن! في هذه الحالة، كان عليه التراجع بالطريقة ذاتها أيضاً حتى زاوية الشارع، لأنّه لم يكُن قبل مروري سوى صفّ طبعات **وحيد** له الاتجاه نفسه إلى هُنا.. لماذا توجّبَ على هذا الرجل فعلُ ذلك؟" احتار السيد ريبكا: "ثمّ كيف تمكّنَ وهو يتراجعُ إلى الخلف من أن يطأ على طبعاته نفسها بدقة؟"

فتح الباب وهو يهزّ برأسه، ودخل إلى بيته. دقّق إن كان يوجد في

Twitter: @ketab_n

الداخل أثر لثلج ما، مع أنه أدرك أنّ هذا الأمر غير معقول، فمن أين له أن يأتي!؟ "رُبمّا تهيأ الأمرُ لي على هذا الشّكل، ليس إلّا"، دمدمَ السيد ريبكا بقلقٍ وأطلّ من النافذة. رأى في الشارع تحت ضوء المصابيح خمسَ طبعات حادّة وعميقة تنتهي وسط الشارع، ولا شيء بعدها. "وجدتُها!" قدّر السيد ريبكا الأمر، بينما راح يفرك عينيه بيده. "قرأتُ مرّة حكاية عن أثر قدمٍ في الثلج، لكنها هُنا صف واحد، وفجأة لا شيء.. أين اختفى هذا الشاب!؟"

بدأ ينزعُ ثيابه وهو يهز برأسه، وفجأة، تخلّى عن الأمر. اتّجه نحو الهاتف، وتكلّم مع مُفوّض الشرطة بصوتٍ يَملؤه الضيق: "آلو.. السيد المفوض بارتوشك؟ رَجاءً.. لديّ هُنا مَسألة غريبة ***جداً***.. عَسى أن ترسِل أحداً ما، وسيكونُ من الأفضلِ حضورك شخصياً. هذا جيد.. سأنتظرك على الزاوية. ***لستُ أدري*** بمَ يتعلق الأمر. لا، أنا أعتقدُ أنه لا خطر على الإطلاق. لكن، كل ما أخشاه أن يخطو أحد ما على هذه الطبعات. لستُ أدري من يكون صاحب هذه الخطوات! حَسناً، سأنتظرك!"

ارتدى السيد ريبكا ملابسه، وتوجّه إلى خارج البيت. تجنّب تلك الطبعات بحذرٍ شديد، وركّز انتباهه كيلا يخطو على الرصيف. انتظرَ المفوض بارتوشك على زاوية الشارع، وكان متوتراً ويرتجف من البرد. سادَ الهدوء، وراحت الأرض الآهلة بالثلج تضيء الفضاء بارتخاءٍ.

"هدوءٌ جَميل يسود هنا"، دمدمَ المفوض بارتوشك مُنقبضاً: "أمّا عندي في العمل، فقد جلبوا إليّ عدداً من المُتشاجرين من بينهم سكّير- قال ذلك مُشمئزاً- والآن: ما عندك؟"

قال السيّد ريبكا بصوت مرتجف: "أيها السيّد المفوّض، تابع هذه الطبعات، إنها بضع خطوات من هُنا".

أضاء السيّد المفوض المصباح الكهربائي، وقدّر الأمر: "إنه طويل وهزيل؛ مئة وثمانون تَقريباً. وحسب الطبعات وطول الخطوة، فإن حذاءه

Twitter: @ketab_n

من النوع الجيّد. أعتقد أنّه قد خيط يدوياً. لم يكن مَخموراً، وكان يسير بعزمٍ. لا أعرف ما الذي لا يعجبك في هذه الطبعات؟"

"هذه"، قال السيّد ريبكا باختصارٍ مُشيراً إلى صفّ طبعات الأقدام غير المُكتمل وسط الشارع.

"ها.. هه"، هَمهم المفوض بارتوشك. ودون أن يقومَ بدورةٍ طويلةٍ، اتجه نحو الخطوة الأخيرة، قرفصَ وأشعل المصباح: "هذا لاشيء"، قال بارتياحٍ: "إنّها مَسألة عادية. خطوة ثابتة، وأُغلّب الظن أنّ الثقل قد ارتكزَ على الكعب. لو أنّ هذا الشخص قام بخطوة أخرى أو قفزةٍ أخرى لجاء الثّقل على مُقدمة قدمه، أتفهمني؟ ولأمكن مُلاحظة ذلك".

سأل السيّد ريبكا بتوترٍ: "يعني المقصود هُنا.."

قال المفوض بهدوءٍ: "هذا يَعني باختصارٍ أنّه لم يستمر في السير أكثر!"

" إذن, إلى أين اتجه؟" هتف ريبكا وهو يرتجف من البرد.

هزّ المفوض كتفيه: "هذا ما لا أدريه، هل لديكَ شُبهاتٍ ما حوله؟"

"أيّ شبهات؟" اندهش السيّد ريبكا: "كل ما أريد معرفته هو أين قد اتجه.. انظر! هُنا قام بآخر خطوة.. لكن.. بحق الإله.. قُل لي أين وضعَ قدميه بعدها؟ واضحٌ أنه لا أثر لأيّ خطوة أخرى هُنا!"

قال المفوض بجفاءٍ: "أدركُ ذلك، وما الذي يعنيك من وجهته؟ هل هو شخص من أهل بيتك؟ هل فقدتَ أحداً؟ إذن! يا للعنة، ما الذي يهمك من وجهته؟"

قال السيّد ريبكا مُتلعثماً: "طبعاً هذا أمر يتوجّبُ إيضاحه، ألا تعتقدُ أنه قد تراجع إلى الخلف واطئاً على خطواته نفسها؟"

"هذا هُراء"، دمدم المفوض: "عندما يتراجعُ الإنسان إلى الخلف يقوم بخطوات أقصر، ويسير وقد انفرجت ساقاه أكثر، ليضمن توازناً أكبر. ماعدا

Twitter: @ketab_n

ذلك، فإنه لا يرفع قدميه، مما يضطره أن يشقّ بكعبه ثلماً كاملاً في الثلج. هذه الخطوات حَدثت مرّة واحدة أيها السيّد، وترى بنفسك كيف أنّها حادّة".

لكن السيّد ريبكا أصرّ بعنادٍ: "طالما أنه لم يتراجع للخلف، ***أين اختفى إذن؟***"

"هذه مسألة تخصه"، همهم السيّد المفوض: "اسمعني! طالما أنه لم يرتكب مكروهاً، لا حقّ لنا في التدخل بشُؤونه. يجب توفر وقائع تدينه، وعندها نبدأ طَبعاً، بالتحقيق الأوّلي.."

"لكن، هل يمكن أن يختفيَ إنسان من وسطِ الشارع هكذا وببساطة؟" توعّد السيّد ريبكا.

نصحه المفوض بهدوء: "عليكَ الانتظار أيها السيّد، إذا اختفى شخص ما، فإن عائلته، أو أيّاً كان، سيبلغوننا بذلك بعد أيامٍ من اختفائه. بعدها نقوم بالبحث عنه.. أيكفي؟ إن لم يفتقده أحد، فليس علينا ما نفعله. هذا غير ممكن".

غضب جامح اجتاح السيّد ريبكا: "لكن عفوكم! أنا أقول ***أنّ على*** الشرطة الاهتمام قليلاً إذا ما اختفى وسط الشارع عابرُ طريق عادي هكذا، وبلا سبب!"

"لكن لم يحدُث له شيء"، هدّأه المفوّض بارتوشك: "ولا توجد هنا أيّ علامات على حدوث شجارٍ ما. لو أنّ أحداً قد هاجمه أو خطفه، لتوجّب علينا المباشرة بالتدخل. إني آسف أيها السيّد، في هذه الحالة هُنا ليس ثمّة ما يدعوني للتدخل".

"لكن، أيها السيّد المفوض"، وهنا صَفَقَ السيّد ريبكا بكلتا يديه: "إذن، اشرح لي الأمر على الأقل.. إنه لغز مُحيّر.."

"نعم"، وافقَهُ المفوّض بارتوشك وهو شارد الذهن: "ليسَ لديك

Twitter: @ketab_n

فكرة أيها السيّد عن عدد الألغاز في هذا العالم.. كل بيت، كل عائلة، لغزٌ. عندما أتيتُ إلى هنا، سَمعت نشيج امرأة فتية في ذلك المنزل.. هُناك. الألغاز، أيها السيّد، ليسَت من شأننا. أجرُنا يُدفع لنا من أجل المُحافظة على النظام العام. أتعتقدُ أننا نلاحقُ لصاً ما بدافع الفضول؟ نحنُ عندما نتعقّبه، أيها السيّد، إنما نفعلُ ذلك لنسجنه. النظام العام يجب أن يُصان".

"إذن، أنت تعرف"، قذف السيد ريبكا بكلماته: "ورغم ذلك، تعترفُ أنّ الأمر ليس عادياً.. ليس عادياً أن أحداً وسط الشارع.. فلنقُل طارَ في الهواء إلى الأعلى، أم لا؟"

أفاد المفوض: "الأمرُ يتعلّق بالتعليمات المنصوص عليها، إنه نظام الشرطة: إذا كان هُناك خطر سقوطٍ من علوٍّ مُرتفع، يتوجّبُ على المعنيّ بالأمر أن يَكون مَربوطاً، وفي مثل هَذه الحالة، يأتي التنبيهُ بالدرجة الأولى، يَلي ذلك الغرامة.. لو طار إنسان- هكذا بإرادته الحرّة- إلى الأعلى، يتوجّبُ على الشرطي تَنبيههُ أنّ عليه رَبط حزام الأمان. لكن، في الحالة الماثلة أمامنا، لم يتواجَد أيّ شرطي على ما أعتقد"، قال بلهجة تبرير: "ولكان قد خلّف أثراً.. على كلّ حال، رُبّما أنّ هذا السيّد قد ابتعدَ بطريقة مختلفة. أم لا؟"

ثم سرعان ما تساءل السيّد ريبكا: "ولكن، بأيّ طريقة؟"

هزّ المفوّض بارتوشك برأسه: "يصعبُ القول الفصل، ربما رُفع إلى السماء، أو رُبّما أنّ الموضوع برمّته يشبه مَوضوع سلّم يعقوب"، قال ذلك بلهجة مُبهمة: "يُمكن اعتبار الرفع إلى السماء اختطافاً لو كان ذلكَ قد تمّ بالقوة، لكنني أعتقدُ أنّ الأمر يحدثُ بموافقة الشخص المَعني. من المُمكن أنّ هذا الإنسان يجيدُ الطيران. ألم يتهيّأ لك يوماً أنّك تطير؟ فما أن يدق الإنسان قدمه على الأرض حتى تراهُ يندفعُ إلى الأعلى.. البعض يطيرُ كالبالون، لكنني عندما يتراءى لي في منامي أنني أطير، يتوجّب عليّ ردّ قدمي عن الأرض. وأعتقد أنّ الملابس الثقيلة وسيف المبارزة هُما السبب

Twitter: @ketab_n

وراء ذلك. رُبّما انتابت هذا الإنسان غفوة، وبدأ في منامه الطيران، وهذا أمر ليس مَمنوعاً أيها السيّد. لكن، إن جرى ذلك في شارع مُزدحم، فعلى الشرطي تحذيره. أمّا..، مهلك.. رُبّما يكون الإيحاء هو المُسبّب، فهؤلاء الروحانيون يؤمنون بالإيحاء، والروحانية ليست مَمنوعة. أخبرني سيّد يدعى باوديش أنه قد رأى ذلك بأمّ عينه؛ رأى كيف أنّ شَخصاً قد عَلِقَ في الهواء أثناء القيام بتحضير الأرواح. من يَدري يا ترى كُنه هذا الأمر".

قال السيّد ريبكا مُعاتباً: "لكن، أيها السيّد المفوّض، أخشى أنّك تُصدّق ذلك! هذا خرق للقوانين الطبيعية ليس إلّا..."

هزّ السيّد بارتوشك كتفيه بانزعاج: "إني أعرفُ ذلك أيها السيّد.. الناس يتخطون كلّ ما أمكنَ من القوانين والتعليمات. لو كنتَ رجل شرطة، لأحطتَ بالأمر أكثر..."، لوّح المفتش بيده: "على كل حال، ليلة سعيدة. الجوّ مُقبل على التجمد".

اقترح عليه السيد ريبكا: "ألا تشربُ معي فنجاناً من الشاي، أو كأساً من خمر البرقوق؟"

"ولم لا"، دندنَ المفوض بانقباض: "أنت تعلمُ أنّ الإنسان لا يستطيعُ بهذه البرّة الذهاب حتى إلى الحانة، لذا فإن رجال الشرطة قليلاً ما يشربون".

"إنها لمعجزة"، استمرّ في الكلام وقد جلس مُتراخياً وراح ينظر، وهوشارد الذهن، إلى حذائه وقد أخذ الثلج المُتراكم عليه بالذوبان: "تسع وتسعون شخصاً يمَرون من جانب هذه الطبعات ولا يُلحظون شيئاً، وأنت نفسك لا تلاحظ أنّ تسعةً وتسعين مَسألة رُبّما تمثل لغزاً لعيناً. نحن لا نعرفُ عن معظم الأمور إلّا القليل؛ بعضها فقط لا يمُثّل لغزاً. النظام العام ليس لغزاً، العدالةُ ليست لغزاً، الشرطة أيضاً ليست لغزاً. لكن، كلّ إنسان يسيرُ في الشارع يمُثّل لغزاً، ولا يجوز لنا أن نعترضه. لكن، أيها السيّد، ما أن يسرق شيئاً حتى يتوقّف عن كونه لغزاً، لأننا نسجنه وكفى.. نستطيعُ النظر إليه عبر نافذة غُرفة السجن، ونعرف على الأقل ماذا يفعل وفي أيّ

Twitter: @ketab_n

وقت نشاء، هل تعرف ذلك؟ لعلمك، هؤلاء الصحفيون يكتبون أحياناً: لغز العثور على جثة. ما هو اللغز في هذه الجثة؟ نحن عندما نستلمها نقوم بوزنها، نصورها ونشرّحها، وبِذا نعرفُ كلّ خيطٍ فيها، نعرف الطعام الذي تناوله صاحبها آخر مرّة، نعرف سبب موته، متى وأين. وبالإضافة إلى ذلك، نعرف أنّ أحداً ما قتله من أجل النقود. وهذا هو كلّ شيء بوضوح ويقين. بإمكانك أن تقدم لي شاياً غامقاً جداً أيها السيّد. كلّ الجرائم واضحة أيها السيّد، إنك تعرفُ على الأقل دَوافعها وكل ما لهُ صلة بذلك. لكن اللغز هو ما تفكر قطتك به، ما تحلم به خادمتك، ولماذا تنظر زوجتك من النافذة شارِدة الذهن. كلّ شيء هو لغز أيها السيّد، عدا الأفعال التي تستحقُ العقاب. وتلك ليست إلّا جُزءاً من الواقعِ نالَ اهتماماً منّا. انظُر أيها السيّد.. لو تقصّدت.. سأتعرّف إلى أمور كثيرة تخصّك.. لكنني، كما ترى، أنظرُ إلى مُقدمة حذائي لأني لست مَعنياً بك إدارياً، إذ ليس لديّ أيّ شبهات بصددك"، أضاف ذلك وهو يرتشفُ الشاي الحار.

عاود الكلام بعد قليل: "إنّه تصوّر غَريب،أن يهتم رجال الشرطة، وبشكل خاص السرّي منهم، بالألغاز. نحن نديرُ ظهورنا للألغاز، مانهتم به هو المسائل المشينة. الجرائم تهمنا أيها السيّد، ليس لأنّ فيها لغزاً، بل لأنها مَمنوعة. نحن لا نُلاحق الأوغاد لاعتبارات ذهنية، بل لنُلقي القبضَ عليهم باسم القانون. اسمعني.. الكنّاسون لا يركضون بمكانسهم في الشارع ليَقرءوا آثار الناس في الغبار، لكن ليكنسوا وينظّفوا كلّ ما هو خنزيريّ خلّفته الحياة. النظام العام ليس بأي حالٍ من الأحوال لغزاً؛ أن تحافظَ على النظام هو عمل خنزيري شاق أيها السيّد، ومن يريدُ القيام بالتنظيف يتوجّبُ عليه غرز أصابعه في الأشواك.. ويا سيّدي لابُدّ أن يقومَ شخصٌ ما بهذا العمل"، قال ذلك بضيقٍ: "إن قام شخص بذبحِ عجلٍ بدافع الفضولِ فهذه قسوة؛ يجبُ أن ينجز الأمر لاعتبارات مهنية. عندما يكون أمام الإنسان واجب عليه تأديته، فإنّه يعرف، على الأقل، أنّ له الحقّ في ذلك. انظر، يجبُ ألّا يُشكّ بالعدالة، تماماً كما لا نشكّ بجدولِ الضرب. لستُ أدري

Twitter: @ketab_n

ما إذا كنت تستطيع البرهنة على أنّ كلّ سَرقة سيئة، لكنني أستطيع البرهنة لك على أنّ كل سَرقة ممنوعة، لأني في كلّ الأحوال سأعتقلك. إذا نثرت في الشارع لآلىء، فإنّ الحارس سينبهك أنّك إنّما توسّخ الشارع. لكن، إن بدأت القيام بمعجزات أو ألغاز، فإننا لا نستطيعُ منعك من ذلك، ما عدا أن نَصِفَ الأمر بالفوضى العامة، أو أن التجمع غير قانوني؛ يجبُ أن يكونَ هُناك سوءُ تصرفٍ ما حتى يمكننا التدخل".

اعترضَ ريبكا هازاً جسده بتململ: "لكن، أيها السيّد، ألا يكفيكم هذا؟ الأمر هُنا يتعلق بـ... بمسألة غريبة.. بلغزٍ.. وأنت.."

هزّ السيد بارتوشك كتفيه: "أمّا أنا، فسأتركُ الأمر عائماً أيها السيّد. لو رغبتَ، سأعطي الأوامر لإزالة هذه الطبعات حتى لا تُعكّر صفوَ هدوئك الليلي. لا يمكنني فعل المزيد.. ألا تسمعُ شيئاً؟ أيّ خطوات؟ إنّ إحدى دورياتنا قادمة.. الساعة قاربت الثانية صباحاً. طابَت ليلتكَ أيها السيّد".

رافق السيد ريبكا المفوّض عبر البوابة. لقد بقي مُنتصفُ الشارع على حاله، لم يمسه أحدٌ بعدُ، وكذلك صفّ الخطوات المُبهَمة.. وعلى الرصيف المقابل، اقتربَ حارس.

ناداهُ المفوّض: "يا ميمرا! هل من جديد؟"

أدّى الحارس ميمرا التحية، وأعلن قائلاً: "بصورة عامة لاشيء، أيها السيّد المفوّض، هناك.. في المنزل المُرقّم سبعة عشر، ماءَت قطّة، فقرعتُ جرسَهُم ليدخلوها إلى البيت. الرقم تسعة لم يكن بابهم مُغلقاً. أمّا عند الزاوية، فقد حَفروا في الشارع، ولم يضعوا إشارة حَمراء تدلّ على مَكان الحفر. وفي مكان بائع الخضار، مارشيكا، وجدتُ لوحة الخضار مُتخلخِلة من أحد جوانبها. يجبُ عليهم إزالتها صَباحاً، لِئلا تقع على رأس أحد".

"أهذا كلّ شيء؟"

"هذا كلّ شيء"، أفاد الحارس ميمرا: "يتوجّبُ عليهم رشّ الملح على

Twitter: @ketab_n

الرصيف في الصباح، لئلا يكسرَ أحدهم قدميه. في السادسة صباحاً، يجبُ أن تُقرعَ أجراس الجميع".

قال المفوّض بارتوشك: "جيّد, طابَت ليلتك!"

ألقى السيد ريبكا نظرةً أخرى على طبعات الأقدام التي تتّجهُ إلى المجهول. ولكن، بدَت الآن هُناك، حيث آخر طبعة، طبعتان جديدتان لحذاءِ الخدمة الذي يلبسه الحارس ميمرا. ومن هُنا استمرّت تلك الخطوات العريضة في صفٍّ مُنتظم وواضح.

"حمداً لله"، تَنفّس السيّد ريبكا الصعداء، وذهبَ لينام.

Twitter: @ketab_n

تشينتاماني وطيور

تنحنحَ السيد الدكتور فيتاسك، وقال: «أتعلم يا سيد تاوسيج، إنني أفهمُ قليلاً في السجّاد الفارسي. وأؤكدُ لك أنّ الأمور لم تعُد اليوم مثلما كانت عليه من قبل، فقد توقف التجار في الشرق عن القيام بتلوين الصوفِ اعتماداً على حشرات المغافير والنيلة والزعفران، بالإضافة إلى بول الجمال أو كوز البلوط وغيرها من الملوّنات العضوية ذات الجودة العالية. حتى الصوف نفسه، لم يعد كما كان من قبل. وإن أردتُ الحديث عن النماذج الحاليّة، فلن أتمالكَ نفسي عن البكاء. فقد تراجعَتْ صناعة السجاد الفارسي كثيراً. على الرغم من ذلك، فإن القطعَ القديمة منها، والمصنوعة قبل عام ألف وثمانمائة وسبعين، تظلّ تحتفظ بقيمتها. وإذا ما أردتَ شراءَ سجادة من هذا النوع، فلن تنجح إلّا إذا رغبَتْ عائلة ما، هَرمة، بيعَ قطعة قديمة ورِثَتها عن أحدِ أجدادها، وذلك (لأسباب عائلية)، كما يُقال في العائلات الراقية عن الديون. اسمعني.. في وقتٍ من الأوقات، رأيتُ في قلعة روجيمبرك سجادة القلاع السبع، الأصليّة، وهي عادةً ما تكونُ سجادة صَلاة صغيرة. كان الأتراك ينتجونها في القرن السابع عشر عندما استقروا في منطقة ترانسلفانيا، وفي تلك القلعة يدوسُ السوّاح بأحذيتهم المَحْديّة(*) عليها، دون أن يدريَ أيّ منهم مدى قيمتِها- على أيّ حال، لا يُمكن للإنسان إلّا أن يبكيَ أمام هذه الحقيقة. إنّ إحدى أندر السجادات في العالم مَوجودة عندنا في براغ، ولا أحد يدري بها!

سأحاولُ توضيحَ الأمر أكثر. أعرفُ كلّ تجّار السجّاد الموجودين عندنا،

---

*) (أي القسم المكسو بمادة معدنية من مقدمة أسفل الحذاء ومؤخرته، كما كان سائداً زمن كتابة الحكايات) الكلمة مشتقّة من حدوة الحصان م.

Twitter: @ketab_n

وأمرّ عليهم أحياناً لأرى ما عندهم في المستودعات. وتعلمُ أن الوكلاء في الأناضول وإيران، يَحصلون أحياناً على قِطعة قديمة، مَسروقة من الجامع، أو من أي مَكان آخر، ويلفّونها مع البضائع التي تُباع بالمتر، وهي من الدرجة الثانية، ثم يبيعون اللفة كاملة بالوزن؛ بغض النظر عمّا تحتويه. وأنا أسألُ نفسي ماذا لو احتوَت اللفّة على سجادة 'لا ديك' أو أخرى من نوع 'برغموتي'! لِهذا السبب أخطفُ نفسي من حينٍ إلى آخر، لزيارة هذا أو ذاك من بَائعي السجاد. أجلسُ على كومةٍ مِنها وأدخّنُ ببطءٍ واستمتاع. أراقبُ كيف يبيعون للسذّج أنواع السجاد البخاري والساروقي والتبريزي. أتدخل في هذا الموضعِ أو ذاك سَائلاً: ما نوعُ هذه التي في الأسفل، نعم، تلك صفراء اللون؟ وسرعان ما يتضح يا صاحبي أنها سجادة همدان!

كنت أمرّ أحياناً على سيدة تدعى سيفيرينوفا- لديها حانوت صغير في بهوِ بناءٍ يقع في ساحة المدينة القديمة- وكنتُ أجد عندها سجادة كرماني مثلاً أو كيليمي. إنّها سيدة مرحة مُدوّرة الجسم، كثيرة الكلام، وعندها كَلبة من فصيل البودل، سَمينة إلى حدّ يجعلُ الإنسان يشعر بالضيق. الكلاب السمينة هذه، عادة ما تكون مُشاكسة، عِواؤها مربوء ومتهيّج، وأنا لا أحبها. استمعوا لي رجاءً، هل رأى أحدٌ منكم كلباً من البودل يافعاً؟ أنا لم أرَ أبداً، بل أعتقد أن كلّ كلاب البودل كبيرةٌ في السن، مثلها مثل المفتشين والمُنفّحين ومُقدّري الضرائب. وعلى الأغلب أن هذا المظهر مُرتبط بهذا النوع من الكلاب. ولأنني حرصت على علاقة طيبة مع السيدة سيفيرينوفا، كنت أجلسُ دائماً على زاوية سجادة مطوية على الربع، تلهثُ فوقها الكلبة أمينة وتشخُر، أربّتُ على ظَهرها لأنها كانت تسعدُ بذلك.

قلتُ للسيدة سيفيرينوفا مرّةً: إنّها لتجارة سَيئة، فهذه السجادة التي أجلسُ فوقها أراها عندك منذُ ثلاثِ سَنوات. أجابتني: بل أكثر، إنها تقبعُ في هذا الركن منذُ أكثر من عشر سنوات، لكنّها ليسَت سجادتي.

قلت: ها.. هه، إذن هي سجادة أمينة!

Twitter: @ketab_n

ضحكت السيدة سيفيرينوفا وهي تتساءل: ما الذي تقوله لي؟ هذه السجادة تعودُ لسيدة تدّعي أنه لا مكانَ لها في بيتها. لذا، وضَعتها هُنا، وهو أمر يُضايقني جداً.. ولكن! على الأقل تنامُ أمينة عليها. أليس كذلك يا أمينة!؟

عندما قلّبتُ طرف هذه السجادة، بدأت أمينة تَهرّ بعصبية. قلتُ للسيدة: يبدو أنها سجادة قديمة، أبإمكاني مُعاينتها؟

ولم لا، أجابت السيدة سيفيرينوفا وأخذت أمينة بين يديها: تعالي يا أمينة، السيد إنّما يريدُ النظر إليها ليس إلّا. بعدها عادت أمينة لافتراش السجادة: إش.. ش.. ش.. لا تهرّي يا أمينة، أيتها البلهاء.

كلّ ما فعلته أني فتحتُ السجادة ليس إلّا، ومع ذلك تصاعدَت دقّات قلبي حتى كاد أن ينفجر. لقد كانَت بيضاء من النوع الأناضولي، من القرن السابع عشر، وبدَت وقد حلّ الاهتراء الشديد في أماكن منها. لكن لعلمكم، كانت من نوع يدعى تشينتاماني؛ أي ذات رسمٍ يقال له ذلك، وعليها رسوم طيور أيضاً. هذا النوع يُعدّ من النماذج الرائعة التي لا نظير لها. إنها نادرة فعلاً، لقد كان حجمُها خمسة بستة أمتار. بياضها ناصع مع زرقة فيروزية وحُمرة كرزية. وقفتُ ووجهي للشبّاك، حتى لا تتمكن السيدة سيفيرينوفا من رؤيته. قلتُ: إنها خرقة قديمة يا سيدة، وهي ستتجعّد تماماً، أخبري صاحبتها من فضلك، أنّي أريدُ أن أشتريها، طالما أنّه لا مكان لها في بيتها.

سيكون الأمر صعباً، قالت السيدة سيفيرينوفا: فهذه السجادة المعروضة هُنا ليست للبيع. أمّا تلك السيدة صاحبتها، فإنها تتواجدُ باستمرار في ميران ونيس، حتى أني لا أعرفُ متى ستكونُ في بيتها، لكنني سأحاول.

قلتُ بأكثر مايكون من اللامبالاة: هذا لطفٌ منك.. وذهبتُ في طريقي. ولعلمكم، القضية بالنسبة إلى الذين يجمعونَ السجاد هي شعورُ الإنسان أنه إنما يحصل على قطعة نادرة بأبخسِ الأثمان. وأنا أعرف رجلاً مهماً

Twitter: @ketab_n

وغنياً يجمع الكتب. إنه لا يتردد في دفع بضعة آلاف من أجل كتابٍ قديم ليس مُهماً، لكنهُ عندما ينجحُ في شراء الطبعة الأولى من شِعر جوزيف كراسوسلاف خميلينسكي لِقاء كرونين فقط من أحد بَاعة الأنتيكا، فإنه يقفز فرحاً. إنها رياضة تشبهُ صيد ظباء الشّمواة، وأنا أقنعتُ نفسي هُنا، بأنه يجبُ أن أحصلَ على تلك السجادة بسعرٍ زهيد، ثم أهديها للمتحف، لأن مثلها لا يليقُ به مكانٌ آخر. لكن، بشرط أن توضعَ عليها ورقة، يُكتب فيها: هدية الدكتور فيتاسك.. عفوكم.. إنّ لكلّ إنسان طموحه الخاص، أليس كذلك؟ أعترفُ لكم بأنّ حمّى شرائها قد سكنَتْ رأسي.

تطلّب الأمر مني جُهداً لأكبح رغبتي في الذهاب في اليوم التالي مُباشرة لرؤية تلك القطعة، ذات الرسم التشينتاماني مع طيور. لم أستطع التفكير بأي شيء آخر. كنتُ أخاطب نفسي كلّ يوم: يجبُ عليك الصبر يوماً آخر. فعلتُ ذلك مع نفسي عن سابقِ عمد، فأحياناً يَحلو للإنسان أن يُعذّب نفسه. لكن، خطر لي بعد أربعة عشر يوماً، أنّ شخصاً ما قد يتعرّفُ على سجادة الطيور تلك، ولهذا هرعتُ إلى السيدة سيفيرينوفا.. ها.. ماذا جرى؟ قذفتُ هذا السؤال بقوة.

سألتني هذه السيدة باستغراب: ما الذي يجب أن يجري؟ فاستردت يقظتي، قلت لها: بينما كنت أسيرُ في هذا الشارع، تذكرتُ صدفة هذه السجادة البيضاء، ألا تريدُ السيدة بيعها؟

هزت السيدة سيفيرينوفا رأسها وقالت: لا، على الإطلاق، السيدة موجودة الآن في بياريتزي ولا أحد يدري متى ستعود- وهُنا وجّهتُ نظري نحو السجادة مُتفحّصاً ما إذا كانت لاتزالُ في مكانها.

كانت أمينة تستلقي عليها طبعاً، وقد غدَت أكثر سمنة وشراسة من أيّ وقت مضى، وانتظرَت مني أن أربّت على ظهرها.

اضطررتُ في يوم من الأيام إلى زيارة لندن لهذا الغرض، وعندما وصلتُ

Twitter: @ketab_n

هناك توجّهتُ إلى حيث يوجد السيد كي- للعلم، إنّه السير دوغلاس كيث الذي يُعدّ أكبر خبير بالسجاد الشرقي- خاطبتهُ قائلاً: رجاءً أيّها السيد، ما الثمن الذي تُقدّره لسجادة بيضاء من نوع أناضول ذات رَسم تشينتاماني وطيور، قياسُها أكثر من خمسة بستة أمتار؟

لا شيء! ونظرَ السيد دوغلاس إليّ عبر نظّارته بانزعاجٍ يحملُ في طيّاته التوبيخ أيضاً.

قُلت متأثراً: كيف لا شيء؟ ولماذ لا يكونُ لها أيّ قيمة؟

صرخَ السيد دوغلاس بوجهي: لأنّهُ لا توجدُ سجادة بهذا القياس على الإطلاق، وأضاف: ليكُن مَعلوماً لديك بأن أكبر سجادة عرفتها على الإطلاق من ذات الرسم التشينتاماني مع طيور بالكاد يبلغ قياسها ثلاثة بخمس ياردات.

طفحَ وجهي بالفرح، وقلت له: لنفترِض، أيها السيد، أن قطعةً بهذا القياس مَوجودة. فبكم تقدّر ثمنها؟

ألم أقل لك أنه لا شيء؟ صرخ كيث هذا في وجهي، لو وجدت مثل هذه القطعة، أيها السيد، فستكون نادرة، وعليه كيف- ستُحدّد سعر سجادة نادرة؟ إن كانت قطعة ما، نادرة، فسيكون سعرها ألف جنيه مُبحبحة، وقد يكون عشرة آلاف أيضاً، ما يُدريني؟ عدا ذلك، فإن هذه السجادة غير مَوجودة على الإطلاق. أسعد الله أوقاتك أيها السيد.

لكُم أن تتخيّلوا الحالة التي عدتُ بها، ياعذراء! يجبُ أن أحصلَ على قطعة التشينتاماني هذه! ستكونُ شيئاً يليق بالمتحف! لكن أرجوكم الآن أن تَتصوروا الأمر. فأنا من جهة، ما كان يجب أن أسمح لنفسي بالإلحاح الشديد، هذا ليس من تقاليد هواة جمع السجاد، ومن جهة أخرى لم تكن للسيدة سيفيرينوفا مَصلحة خاصة في أن تُباع هذه الخرقة العتيقة التي تتمرغ أمينتُها عليها. أمّا صاحبة السجادة إيّاها، تلك المرأة سيئة

Twitter: @ketab_n

الذكر، فكانت تنتقلُ من ميران إلى أوستند ومن بادن إلى فيخي- لديها تشخيصٌ طبي مفادُه أنّها مُصابة بأمراضٍ لا حصر لها-باختصار، لم تكُن تستقر في مصحّ بعينه. وهكذا، كنت أذهبُ كل أربعة عشر يوماً إلى السيدة سيفيرينوفا لأتحققَ ما إذا كانت تلك السجادة بكل طيورها، ما تزالُ في الزاوية هُناك. كنتُ أداعبُ أمينة المقيتة إلى أن تُصرصِر بنشوة، وكي لا أثير شبهة، كنت في كلّ مرّة، أشتري سجادة ما، رَغم أن أكواماً من السجاد الشيرازي والشيرواني، الموصلي والكابريستاني، وغيرها من البضائع المترية، مَوجودة عندي في البيت- كان من بينها سجادة كلاسيكية صغيرة، لا تجدها إلّا نادراً- وكذلك سجادة خوراسان زرقاء عتيقة. لكن ما بذلتُه من جهد خلال تلك السنتين، لا يستطيعُ تقديره إلّا هاوي جمع السجاد. لا أغالي على الإطلاق إن قلت بأن معاناة الحب لا تُعدّ شيئاً أمام مُعاناة هواة جمع السجاد. ومع ذلك، فمن الغريب أنها لم تأخُذ حياة أيّ منهم. بل على العكس، إنهم يعمّرون وحياتهم طويلة، ولهذا فإنها على الأغلب هواية صحيّة.

فاجأتني السيّدة سيفيرينيوفا في إحدى الأيام بالقول بأنّ صَاحبة السجادة السيدة زانيليوفا تواجدَت هُنا، فأخبرتُها أنّ لديّ من يرغبُ بشراء هذه البيضاء المُتجعّدة والمطروحة على الأرض. لكن السيدة زانيليوفا أجابتني بأنها قطعة للعائلة، ولا تحتاج بيعها، وماعليّ، كما قالت، إلّا إبقاءها في مكانِها.

على كلّ حال، ذهبتُ إلى تلك السيدة زانيليوفا بنفسي. فكرّت وأنا في الطريق إليها أن الله وحده يعلم أيّ سيدة كَوْنٍ سأقابل، لكنها بدَت عَجوزاً شمطاء، ذات أنف ليلكي اللون، وباروكة، وعرّة وجه غريبة. أمّا فمها، فكان يرتحلُ باستمرار نحو الجهة اليسرى حتى يكاد يصل أذنها.

قلتُ لها: يا صاحبة النُبل (وكان عليّ أن أتابعَ باستمرارٍ كيف يتراقص هذا الفم على وجهها) بودّي شراء سجادتكم البيضاء تلك، ومع أنها

Twitter: @ketab_n

أضحَت قِطعة مُهترئة، فهي لعلمكم، تناسبُ مَدخل بيتي. وبينما كنت أنتظر إجابتها، شعرتُ أن فمي بدأ يهتز هو أيضاً ويتجه يساراً! هل هي عَدوى أم نتيجة التوتر؟ لا أدري، لكنّي والحق أقول لكم، ما كان باستطاعتي كبحُ ذلك!

صَرخَت بي هذه المرأة العجيبة بصوتٍ حاد: كيف تسمحُ لنفسك بهذا؟ أُخرج حالاً.. حالاً، حالاً. إنّها قطعتي العائلية الموروثة من (Grob Papa) (جروب بابا) إذا لم تخرُج حالاً سأستدعي البوليس! أنا لا أبيعُ سجاداً، أنا فون زانيللي.. يا ماري! فليخرُج هذا الشخص من هُنا!

لا أخفي عليكم، لقد هبطتُ على تلك الدرجات كما يفعلُ الطفل. كنت مهيئاً للبكاء؛ ندماً وغضباً. لكن، ما الذي كان عليّ فعله؟ كنت طوال العام أذهبُ إلى السيدة سيفيرينوفا، وخلال تلك الفترة تعلّمت أمينة السمينة، والتي أضحَت بلا شعر تقريباً، الشخير.

بعد عام، عادت السيدة زانيلليوفا من جديد. وفي هذه المرة، تراجعتُ وقمتُ بعمل، أقرُّ أنّ عليّ كهاوٍ لجمع السجاد، الخجلَ منه إلى أن أموت. لقد أرسلتُ صَديقي المحامي بيمبال- وهو رجل رقيق، ذو شاربٍ أكسبه ثقة غير مَحدودة لدى النساء- حتى يعرضَ على تلك السيدة المُحترمة أيّ قدرٍ مَعقول من المال. انتظرتُ خلال لقائه بها، في الاسفل، مُضطرباً كعريس ينتظرُ إجابة. بعد ساعاتٍ ثلاث، خرجَ صديقي بيمبال من بيتها مُترنّحاً يمسحُ عرقه، وانهال عليّ بالشتائم: أنت، أيها الوغد، سأخنقك. كيف أحْضُر إلى هذا المكان واضطرُّ، بسببك، إلى الاستماع ثلاث ساعات لشرحٍ عن تاريخ عائلة زانيلليو، وصرخَ في وجهي منتقماً: لعلمك، لن تحصل على تلك السجادة. سبعة عشر فرداً من عائلة زانيلليو سيتقلّبون داخل قبورهم في مقبرة أولشانسكي، لو آلت تلك السجادة إلى المتحف! يا عذراء! لقد فعلتَها معي. بهذه الكلمات تركني في مكاني، ومضى.

كما تعرفون، عندما يضعُ رجلٌ ما فكرةً نصب عينيه، فإنّها لن تنفك

Twitter: @ketab_n

عنهُ هَكذا بسهولة. وإذا كان هاوياً، فإنه يذهبُ بَعيداً لحدّ القتل. إنّ هواية الجمعِ فعل بطوليّ. قررتُ في ذلك الوقت، وببساطة، سرقة تلك السجادة ذات الرسم التشينتاماني مع طيور. تفحّصت، قبل كل شيء، مُحيطَ المكان، حانوت السيّدة سيفيرينوفا يقع في باحة الدار، ومدخل الباحة يقفلُ في التاسعة مساءً، وأنا لم أشأ فتحهُ بمفتاح اللصوص الهيكلي لعدمِ إلمامي بالأمر، لكني قدّرت أن بإمكاني قبل أن يُغلق، الوصول عبره إلى القبو، حيث أستطيعُ الاختباء هناك، ثمّ أخرج في الوقت المناسب إلى الباحة، حيث يوجد كوخ صغير يمكن منهُ، لو اعتلاهُ الإنسان، القفزُ إلى باحةِ المنزل المجاور، حيث توجدُ حانة يمكن الخروج منها في كلّ الأوقات. وهكذا كان الأمر بسيطاً، لكن عُقدته تمثّلَت بكيفية فتح نافذة الدكان. ولهذا الغرض اشتريت مقص زجاج دياماني، وتمرّنت، على نوافذ بيتي، كيف استعمله، وعلى كيفية قصّ لوح زجاجي.

اسمعوا! لا تعتقدوا أنّ السرقة مَسألة سهلة، إنّها أصعبُ من عملية البروستاتا، أو إزالة الكلية. فأولاً من الصعب ألّا يرى أحد السارق، وثانياً يرتبط بعملية السرقة انتظار ومتاعب أخرى، وثالثاً لا يدري الإنسان ما الذي سيواجهه، ولذا فإنّ النجاح ليسَ مكفولاً. أقول لكم بأنها مهمة صعبة، ومهنة مُكافأتها قليلة. لو أني وجدتُ سارقاً في منزلي لأمسكته من يده، وقلت له بهدوء: يا رجل.. إنك ترغبُ بالمضايقة، اسمع...ألا يمكنك السرقة بطريقة أخرى، أسهل عليك؟

أنا بالطبع لا أعرف كيف يسرقُ الآخرون، لكن تجاربي ليست موفقة كثيراً. تسللت في ذلك المساء الحرج إلى تلك الدار، واختبأت على الدرجات المؤدية إلى القبو. بهذا الأسلوب يمكن لتقرير بوليسي وصف ما حدث. في الحقيقة، بدا الأمر كالآتي: قضيتُ نصف ساعة أتسكعُ أمام البوابة، تحت المطر، وكنت محطّ أنظار الرائح والغادي. وفي النهاية، قررتُ يائساً- كما يحدثُ عندما يقرّر الإنسان خلع ضرسه- العبورَ إلى المدخل، لكنني صادفت هُناك خادمة، كانَت في طريقها إلى الحانة المُجاورة لشراء

Twitter: @ketab_n

الجعة، ولكي أهدّئ من روعها، همستُ لها: يا بُرعم.. يا قطقوطة، أو شيء من هذا القبيل، لكنها توجّست لدرجة أنّ قدميها أخذت تسابقُ الريح. اختبأتُ لفترةٍ على تلك الدرجات المؤدية للقبو، لكنّ سكان الدار، هؤلاء الخنازير، كانوا قد تركوا هناك سَطل رماد وخرداوات أخرى لا قيمة لها، سقط مُعظمها مُحدثاً ضوضاء شديدة أثناء ما أسمّيه تسلّلي. بعدها، عادت تلك الخادمة حاملة الجعة، وأبلغت حارس الدار بعصبية، أن شخصاً غريباً دخل البناء. لكن هذا الرجل الرائع لم ينسَق للغضب، بل قرّر أن الأمر يتعلقُ غالباً بسكّير ضلّ وهو في طريقه إلى الحانة المجاورة. وبعد ربع ساعة من التثاؤب والتنحنح، أغلق بوابة الدار، وسادَ الهدوء. لكن خادمة تسكنُ في الأعلى ظلّت تسعلُ من حين إلى آخر بقوة، لتتغلّب على وحدتها- إنهُ لأمر غريب- كيف تسعل الخادمات بكلّ تلك القوة، على الأغلب أنّه الشوق. بدأتُ أشعر بالبرد، وممّا زاد في الطين بلّة انتشارُ رائحة الحموضة والعفن. تحسست ما حولي، فكانَ كل ما لمسته لزِجاً إلى حدّ ما. يا إلهي! بالتأكيد أن بصمات الدكتور فيتاسك، أخصائينا الرائع بأمراض الجهاز البولي، قد بقيَت على تلك الدرجات! كانت الساعة قد بلغَت لتوها العاشرة، حينما اعتقدتُ أن مُنتصف الليل، الموعدُ الذي قررتُه للبدء في السرقة، قد حلّ. لكن، ما أن بلغت الساعة الحادية عشرة، حتى باشرتُ بالعملية، فأنا لم أعد أستطيعُ التحمّل. لن تصدّقوا أيّ ضجيج يحدثُه الإنسان عندما ينسلّ في الظلام. ومع ذلك، فقد كانت الدار غارقة في النوم. وصلتُ لتلك النافذة، وبدأتُ بقطعِ الزجاج صارّاً أسناني بقوة. عواءٌ مَخنوق بدأ يُسمعُ من الداخل.. يا إلهي.. أمينة هُناك!

همستُ.. أمينة! يا ملعونة، اسكتي.. إني آتٍ لأحكّ لك ظهرك. آه لو علمتم مقدار صعوبة وضع رأس القاطع الماسي في الثلم المعدّ سلفاً. وهكذا، قمتُ بتحريك القاطع على لوح الزجاج يمنة ويسرة، إلى أن ضغطتُ على اللوح الذي انكسر أخيراً مُحدِثاً صَلصَلةً قويّة. قلت لنفسي: الآن سيتدافعُ الناس إلى هذا المكان. بحثتُ عن مكان أختبئ

Twitter: @ketab_n

فيه، لكن شيئاً من هذا القبيل لم يحدُث. بعدها، ضغطتُ بهدوء نادر لوحاً ثانياً، فانكسر وفتحت النافذة. للحظات عوّت أمينة، الموجودة في الداخل، بنصفِ فم، عواءً تقليدياً، مُتظاهرة بأنّها إنّما تقومُ بواجبها. هُنا دخلتُ عبر النافذة، وهرعتُ نحو تلك الكلبة المقيتة مُباشرة. همستُ لها بحرارة: أين ظهرك؟ انظري يا ذهبية، أنا صديقك- أنت أيتها الملعونة، يعجبكِ الأمر.. ها- أخذَت أمينة تتلوى بسرورٍ عارم، إن أمكن طبعاً لكيسٍ جوال أن يتلوى. قلتُ لها بصَداقة: أما الآن، فانزاحي أيتها اللعوب! أردتُ أن أسحبَ من تحتها تلك السجادة ذات الرسم التشينتاماني مع الطيور، وذات القيمة العالية. الآن! على الأغلب أنّ أمينة قالت هذا موضوع يمس ملكيتي وبدأت تهدر، لم يكن ذلك عواء، بل زمجرة. يا عَذراء.. قلتُ محاولاً التفاهم معها: أمينة!.. اصمُتي يا بهيمة! فسأفرشُ تحتكِ شيئاً أفضل، نعم. أخرجتُ من الحائط سجادة كرمانية لامعة لكنها شنيعة، كانت السيدة سيفيرينوفا تعتبرُها أعظم قطعة في مَتجرها. همستُ: أمينة، انظُري، على هذه السجادة سترقدين! نظرت إليّ باهتمام، لكن ما إن لامسَت يدي سجّادتها حتى بدأت بزمجرة جديدة. قدّرتُ أنها ستُسمَع بالتأكيد في ضاحية كوبيليسي. هُنا، اضطررتُ إلى أن أوصل هذه المسخوطة من جديد إلى النشوة التامة، خاصة بالتدليك المنشّط، ثم حملتها بين ذراعي. لكن ما أن لمستُ تلك السجادة الفريدة حتى تحشرجتْ حشرجة ربوية، وبدأت تشتم، قلتُ وقد خارت قواي: يا إلهي.. انتظري أيتها البهيمة.. يجب أن أذبحك!

لا أخفي عليكم أني، وفي الحقيقة، أنا نفسي، لا أفهمُ الأمر. نظرتُ إلى هذه الكلبة اللئيمة الكريهة السمينة الخبيثة بأكثر ما يمكن من الكراهية الوحشية التي غلت في داخلي، لكنني لم أستطِع قتلَ هذه الساقطة. كان معي موسى جيّد، وعلى بنطالي تعلّق مشحذ جلدي له. كان بإمكاني خنقها وذبحها، لكنّني لا أحملُ قلباً قاسياً. جلستُ على تلك السجادة الملوكية إلى جانبها، وحككت لها خلف أذنها. همستُ لنفسي: أنتَ.. أيّها

Twitter: @ketab_n

الجبان.. يكفي منكَ حركة أو حركتين، وسينقضي الأمر.. أجريتَ عمليات جراحية لعددٍ كبير من الناس، رأيتَهم يموتون في الأهوال والآلام، فلماذا لا يمكنك قتلُ كلبة؟ صككتُ أسناني لأستجمع قواي، لكني لم أستطِع. عندها شرعتُ في البكاء- أعتقدُ أني فعلتُ ذلك خجلاً- ثم أن أمينة كانت تئنّ وتلعق وجهي.

كشّرتُ بوجهها.. أنتِ أيتها البائسة الخنزيرية اللعوب.. ربتُّ على ظهرها المتصلّع، ثم نزلت عبر النافذة إلى باحة الدار، يُرافقني إحساس بالانكسار والهزيمة. بعدها، أردتُ القفز على الكوخِ الخشبي لأصل عن طريق السطح إلى الباحة الثانية والحانة ثم إلى الخارج، لكني لم أكن أملك أيّ قدر من القوة، فهذا السطحُ كان أعلى مما قدّرتُ سابقاً؛ باختصار، لم أصله. وهكذا، نزلتُ باتجاه القبو ووقفتُ على الدرجات المؤدية إليه حتى الصباح، كنت نصفَ ميت من التعب. أنا الأبله، كان بإمكاني النوم على تلك السجادات، لكن ذلك لم يخطر لي. في الصباح، سمعتُ صوت البوابة عندما قام الحارس بفتحها. انتظرتُ قليلاً، ثم اندفعتُ إلى الخارج مباشرة. كان الحارس واقفاً عند البوابة، وحينما شاهدَ شخصاً غريباً يخرج فوجئ بحيث نسي التفوه بأيّ كلمة.

ذهبتُ بعد مضيّ بضعة أيامٍ لزيارة السيدة سيفيرينوفا. لقد ركّبت على النوافذ قضباناً حديديةً. طبيعي أن تلك الكلبة الدنيئة التافهة كانت تتمرغُ على سجادة التشينتاماني المُقدّسة. وما أن لمحتني حتى أخذت تهزّ بسرور سجقتها الدهنيّة، والتي تسمّى عند الكلاب الأخرى ذَنَباً! هتفَت السيدة سيفيرينوفا: إنها أمينتنا الذهبية، كنزنا، كلبتنا العزيزة. أتعلمُ أيّها السيد أن لصّاً دخلَ قبل مدّة عندنا، عن طريق النافذة، وأن أمينة قامَت بطرده؟ والله لا أبدّلها بأي شيء في العالَم- أعلنَت السيدة ذلك بافتخار- لكن أنت!.. إنّها تحبك أيّها السيد.. إنها تميّز الإنسان المحترم.. ماذا يا أمينة؟

هذا هو كل شيء. تلك السجادة الرائعة ذات الطيور لا تزالُ تقبع

Twitter: @ketab_n

هُناك. أعتقدُ أنها واحدة من أندرِ القطع في العالم، لكن تلك الكلبة التعيسة الجرباء ذات الرائحة الكريهة، أمينة، ما زالت حتى هذا اليوم تستلقي عليها. أعتقدُ أنها ستختنقُ يوماً من كثرةِ شحمها. عِندها سأحاول من جديد. لكن، قبل ذلك، عليّ أن أتعلّم كيف تُنشرُ القضبان الحديدية».

شاعِر

إنّها واقعة بوليسية عادية؛ دهسَت سيارةٌ امرأةً مُسنّة، ثمّ اندفعَت بسُرعة فائقة. كان ذلك في الرابعة صباحاً في شارع «جيتنا». أُسنِدَت مهمة التحقق من السيارة إلى مُفتّش الشرطة الشاب، دكتور الحقوق مايزليك، وأمثال هذا الشاب يأخذون الموضوع بجدية تامة.

قال الدكتور مايزليك للشرطي رقم ١٤١: «هِـ.. م، إذن، أنتَ رأيتَ عن بُعد ثلاثمائة خطوة سيارةً مُسرِعة وجثةَ إنسان مُلقاة على الأرض، ما الذي بادرتَ إلى فعله؟»

أفاد الشرطي: «أوّل ما فعلت أني ركضت نحو المَدهوسة، لأُقدّم لها المساعدة الأوليّة».

«كان عليك التحقّق من السيارة أولاً»، دمدم الدكتور مايزليك: «وبعدها أن تهتم بالجدة، لكن رُبّما..»، أضاف وهو يحك شعره بالقلم: «كنتُ سأفعل الشيء نفسه، إذاً أنت لم تَلحظ لا رقم السيارة ولا أيّ شيء يَتعلّق بها؟»

قال الشرطي رقم ١٤١ مُتردّداً: «أعتقدُ أنّها كانت غامقة اللون، أو ربما زرقاء أو حمراء. لم تكُن الرؤية حسنةً بسبب دخان العادم».

«آخ يا إلهي»، تذمّر الدكتور مايزليك: «وكيف بإمكاني إذن أن أتحقق من السيارة؟ هل أركضُ وراء السائقين، وأسألهم: أرجوكم غاية الرجاء، ألم تدهسوا جدّة مُسنة؟ قل لي يا رجل، بحق السماء كيف سأتعاطى مع الموضوع؟»

هزّ الشرطي كتفيه بحيرة مَشوبة بالطاعة، وقال: «عَفواً، لقد تَقدّم لي أحد الشهود، لكنّه أيضاً لا يعرف شيئاً، العفو، إنّهُ ينتظرني في الغرفة المجاورة».

Twitter: @ketab_n

«أحضرهُ إذن»، قال الدكتور مايزليك بقرفٍ، وعَبثاً تمحّص المَحضَر الفقير عَلّه يستشف منهُ شيئاً.

«تفضل. الاسمُ والسكن»، قالها على نحوٍ رَتيب، حتى أنّه لم ينظُر إلى الشاهد.

«كراليك (*) جان، طالبٌ في فرعِ هَندسة الآلات»، ألقى الشاهد كلماتهِ بثبات.

«إذن، أنت أيها السيد كنتَ موجوداً عندما دهسَت سيارة مجهولة السيدة بوجينا ماخاتشكوفا في الساعة الرابعة من صباح اليوم».

«نعم، ويتوجّبُ عليّ القول بأن السائق مُذنِب.. عفوك أيّها السيد المفوض.. كان الشارع فارغاً تماماً، ولو أنّ السائق خفف من السرعة عند التقاطع..»

«وكم كنتَ تبعُد عنها؟» قاطعَهُ مايزليك.

«على بعدِ عشر خطوات. كنت أرافقُ صديقي لدى خروجي من.. من الحانة، وعندما أصحبنا في شارع جيتنا..»

قاطعَهُ الدكتور مايزليك من جديد: «مَن هو صديقك؟ فأنا لم أرَ هذا الشخص هُنا».

قال الشاهد باعتزاز: «ياروسلاف نيراد، شاعر»، وأكّد: «ولكنه لن يقولَ لكُم شيئاً».

«ولِمَ لا؟» هدرَ الدكتور مايزليك متعلقاً بالأمل.

«لأنه.. هو.. لأنّه شاعر. لقد راح يَبكي كطفلٍ صغير عندما وقعَت الفاجعة، وهربَ إلى بيته. عندما كنا في شارع «جيتنا»، اندفعَت من الخلفِ سيارة بسرعة جنونية..»

---

*) كراليك تعني أرنب. م

Twitter: @ketab_n

«وهل تذكرُ رقمها؟»

«لا، العفو، لم ألحَظ ذلك. شَدّت السرعة الجنونية انتباهي، وقلت لنفسي بأنّه..»

قاطعه الدكتور مايزليك: «وما هو نوعُ تلك السيارة؟»

«ذات محرك رباعي نفّاث»، قال الشاهد بإلمام: «ولكن، أنا لا أفهم في أرقام السيارات طبعاً».

«طيّب، وما لونها؟ من كان يجلس فيها؟ أمفتوحة كانت أم مُغلقة؟»

قال الشاهد مُرتبِكاً: «لستُ أدري، أعتقدُ أنّها سيارة سوداء، لكن لم ألحَظ ذلك عن قُرب. وعندما وقعَت الفاجعة، قلتُ لصديقي نيراد: انظُر كيف يدهسُ الأوغاد إنساناً ولا يُكلّفون أنفسهم حتى بالتوقف!»

«هـ.. م»، علّق الدكتور مايزليك غير راضٍ: «هذا في الحقيقة ردّ فعل أخلاقي صَحيح وفي محله، ولكن، كنتُ سأُسرّ أكثرَ لو أنك انتبهتَ إلى رقم السيارة، شيء مذهل أيها السيد كيف يفوتُ الناس الانتباه. أنتَ طبعاً تعرفُ أنّ السائق مُذنب وحكمك بأنّ هؤلاء الناس ليسوا سِوى أوغاد صائبٌ، لكن أن تنتبهَ إلى الرقم.. معاذ الله! كلّ إنسان يمكنه إصدار الأحكام، لكن أن ينتبه جيداً وجوهرياً إلى المسائل!.. شُكراً لك يا سيّد كراليك، لن آخذَ من وقتكَ أكثر».

بعد ساعة، قرع الشرطي رقم ١٤١ بيتَ الشاعر ياروسلاف نيراد.. أجل، الشاعر موجود في البيت، ولكنه نائم. قرّب الشاعر عَينه الصغيرة المندهشة من ثقب الباب وراح يُقلّبها عبرهُ محاولاً تذكّر إذا ما كان قد ارتكبَ فعلاً ما، لكن عَبثاً. وفي النهاية، أدرك لماذا يتعيّن عليه الذهاب إلى قسم الشرطة.

«وهل لابُدّ من ذلك؟» تساءل بشكٍ: «فأنا، حقيقةً، لم أعُد أتذكرُ شيئاً، لقد كنتُ خلال الليل إلى حدٍّ قليل..»

Twitter: @ketab_n

«ثملاً»، تدخّل الشرطي بتفهّم: «لقد مَرّ بي الكثير من الشعراء أيها السيّد. ارتَدِ ملابسك، هل أنتظِرُك؟»

دار الحديث بعدها بين الشاعر والشرطي بصدد الأماكن الليلية وعن الحياة عُموماً، وعن ظَواهر السماء وغيرها الكثير من الموضوعات. كانت السياسة فقط غريبةً عنهما. وهكذا، وفي خضم تلك الأحاديث الودية والمتنوّرة، وصل الشاعرُ إلى مركزِ الشرطة.

بادرَهُ الدكتور مايزليك: «أنتَ السيد نيراد ياروسلاف، الشاعر. أيّها السيد الشاهد، هل كنتَ حاضراً عندما دهسَت سيارة مجهولة بوجينا ماخاتشكوفا؟»

«نعم»، تنهّد الشاعر.

«أفي وسعك أن تَقول لي كيف بدَت تلك السيارة؟ هل كانت مُغلقةً أم مَفتوحة؟ ما لونها؟ من كان يجلس فيها؟ وأي رقم تحمل؟»

فكّر الشاعر جاهداً: «لا أعرف، أنا لم أنتبِه لذلك».

«إذن، رجاء..»، اندفعَ الدكتور مايزليك هازئاً: «ما الذي انتبهتَ له عُموماً؟»

أجابَ الشاعر من غَير تأكيد: «ذاك المزاج والجو العام. أتدري.. ذلك الشارع المهجور.. الطويل.. بعد البزوغ.. وكيف بَقيت تلك المرأة مستلقيةً على الارض..»، وفجأةً باحَ بالقول: «أنا كتبتُ شَيئاً عن الموضوع حالَ وصولي إلى البيت!»

فتّش جيوبه كلّها، وأخرج منها مَجموعةً من المظاريف والفواتير وما شابه من الكراكيب: «لا، هذه ليست الورقة التي أبحثُ عنها»، وراح يدمدم: «هذه أيضاً.. لا.. مَهلاً.. رُبمّا هذه»، قدّر الأمر وهو شاردُ الذهن، وراح يتأملُّ حافة أحد المغلفات.

Twitter: @ketab_n

«أرِني إيّاه!» قال الدكتور مايزليك مُتجمّلاً بالصبر.

«لا، هذا لا شيء»، مانعَ الشاعر: «لكن، لو شئت، سأقرؤه عليك». وبينما راح يُقلّب عينيه على نحو متواصل ناظراً في اتجاهٍ بعد الآخر، أنشدَ شعره ماطاً مَقاطعه الطويلة:

«يا جوقة البيوت الدّاكنة، واحد اثنان، وقوف قف،

بزغَ الضوء على مَعزوفة الماندلين

لِمَ يا فتاتي لم تَحمّرّ وجنتاكِ

سنذهبُ بسيارة HP ١٢٠ إلى آخرِ العالم

أو إلى سنغافورة

أوقفوا، أوقفوا.. السيارة تطيرُ مُسرِعةً

وحبنا الكبير يَرسو في الغبار

يا فتاة الزهر المَقصوف

يا رقبة الأوزة، يا الثديان، الطبلة والصنج

لِمَ كُلّ بُكائي هذا؟

"هذا ما كتبته"، أعلنَ ياروسلاف نيراد.

قالَ الدكتور مايزليك: "ولكن، عفواً، ما الذي يعنيه هذا؟"

"فاجعة تلك السيارة طبعاً"، أجاب الشاعر مُستغرِباً: "وهل ما أنشدتُه يَستعصي على الفهم؟"

"أعتقد أن لا"، أجابَ الدكتور مايزليك بنبرة انتقادية: "لا أستطيعُ الفهم، ففي يوم ١٥ من آب وفي السّاعة الرابعة صباحاً، دهسَت سيارة في شارع

Twitter: @ketab_n

جيتنا, رقمها كذا وكذا, شحّاذةً ثملةً اسمها بوجينا ماخاتشكوفا، ونُقِلَت الجريحةُ إلى المستشفى وهي تصارع الموت. وشِعركَ كما لاحظتُ لا يذكر شيئاً عن هذه الوقائع أيّها السيد، إذن!"

"هذه حقيقة خام أيّها السيد"، أفادَ الشاعر حاكّاً أنفه: "لكن الشعر حقيقة داخلية؛ تصورات سريالية حرة تولّدها الحقائق في لاوعي الشاعر. أتدري؟ إنّها تلك المنظومة السمعية البصرية، ويجب على القارئ أن يَستسلم لكلّ هذا"، وأضاف ياروسلاف نيراد ناصِحاً: "وبعدَ ذلك يمكنه فهمها".

انفجرَ الدكتور مايزليك بالكلام: "أرجوك، أو مهلك، أعطني قطعتك الشعرية هذه. شُكراً، ها هي أمامنا.. هِـ.. م..

ياجوقة البيوت الداكنة، واحد اثنان، وقوف قِف.. اشرح لي هذا من فضلِك.."

قال الشاعر بهدوء: "إنّه شارعُ جيتنا طبعاً، هذا الصفان من البيوت، أتدري؟"

تساءلَ الدكتور مايزليك مُتشكّكاً: "ولماذا لا يكون شارع نارودني مثلاً؟"

"لأنّ هذا الشارع ليس مُستقيماً كما هو حال شارع جيتنا"، صدحت إجابته الواثقة.

"إذن، لنمضِ أكثر: بزغَ الضوء على مَعزوفة الماندلين، هه.. ما علينا ولكِن ماذا عن:

لِمَ يا فتاتي لم تحمرّ وجنتاك.. أرجوكَ، من أين استحضرتَ الفتاة هُنا؟

"الشفق"، قال الشاعر باقتضاب.

"ها.. هه.. المعذرة: سنذهبُ بسيارة HP ١٢٠ إلى آخر العالم.. لماذا؟"

Twitter: @ketab_n

"لأنّ تلكَ السيارة مرّت"، أوضحَ الشاعر.

"وكانت سيارة HP ١٢٠؟"

"لا أدري، هذا يَعني أنّها كانت مُسرعة كأنّما أرادَت الطيران إلى آخر العالم".

"هه.. هكذا. أو الى سنغافورة- بحق الآلهة، أرجوك، لماذا إلى سنغافورة بالتحديد؟"

هزّ الشاعر كتفيه: "هذا ما لستُ أدريه، رُبّما لأنّ هُناك الماليزيون".

"وما علاقةُ هذه السيارة بالماليزيين.. ها؟"

اعتصرَ جسمُ الشاعر ضيقاً: "رُبّما أنّ هذه السيارة كانت بُنية اللون، ألا تعتقدُ معي ذلك؟" قال ذلك وقد شردَ ذهنه: "شَيءٌ بنيّ.. كان هُناك بالتأكيد، وإلّا لما وردَت كلمة سنغافورة في شِعري!"

قال الدكتور مايزليك: "أترى إذن، أكانت تلك السيارة حمراء، زرقاء، سوداء، ما اللون الذي يجبُ علي اختياره؟"

"اختَر اللون البني"، أشار عليه الشاعر: "إنّه لون لطيف".

"حبّنا الكبير يَرسو في الغبار يا فتاة الزهر المقصوف"، تابع الدكتور مايزليك القراءة: "هذا الزهر المقصوف، هل هو تلك الشحاذة الثملة؟"

"طبعاً أنا لن أكتب شَحّاذة ثملة"، قال الشاعر مَجروحاً: "لقد كانت امرأة عادية، أتفهمني؟"

"ها.. هه، وماذا عن رُقبة الأوزة، والطبلة والصنج، أهي مَقاطع حرّة؟"

"أرِني"، قال الشاعر وقد ارتبَك، ثم أمالَ رأسه نحو الورقة: "رقبة الأوزة، الطبلة والصنج- ماذا تمُثّل؟!"

Twitter: @ketab_n

"هذا هو ما أسألُ عنه بالضبط"، دمدمَ الدكتور مايزليك بلهجةٍ فيها إساءة.

"مهلك"، فكّر الشاعر: "إنّ شيئاً ما هُنا ذكَّرَني.. اسمعني، ألا يبدو لك الرقم اثنان أحياناً كرقبةِ الأوزة؟ انظُر!" وخَطّ بالقلم رقم ٢.

"ها.. هه"، قال الدكتور مايزليك بتيقظٍ: "وماذا عن الثديين؟"

"إنّهما طَبعاً رقم ثلاثة، تكوّران اثنان أم لا؟" قال الشاعر باستغراب.

"بقي الطبلة والصنج"، هَمهم موظف الشرطة بتوتر.

"الطبلة والصنج،" فكّر الشاعر نيراد: "الطبلة والصنج.. يُمكن أنّهما الرقم خمسة أم لا؟ انظُر أيها السيد.."، قال ذلك وكتب رقم ٥: "هذا الانتفاخُ يشبهُ الطبلة وفوقه الصنج.."

"مهلك"، قال الدكتور مايزليك، وكتب على ورقةٍ ٢٣٥: "هل أنتَ مُتأكد أنّ رقم تلك السيارة هو ٢٣٥؟"

"أنا لم أنتبِه إلى رقم السيارة على الإطلاق"، أعلن ياروسلاف نيراد بتَصميم: "ولكن شيئاً مِن هذا القبيل لابُدّ أن يكون صَحيحاً.. وإلّا، من أين استوحيتُ تلك الكلمات؟" نظر إلى شعره بامعانٍ واستمرّ بالكلام: "لكن لو تدري.. هذا أفضلُ ما كتبت في قطعتي الشعرية هذه".

بعد يومين، زار الدكتور مايزليك الشاعر الذي لم يكُن نائماً هذه المرة، ولكن كانت عنده فتاةٌ ما، وعَبثاً بحثَ عن كُرسي فارغ ليُجلس عليه موظف الشرطة.

"أنا مستجعل"، قال الدكتور مايزليك: "كل ما هُناك، جئتُ لأخبركَ أنّ رقم السيارة كان بالفعل ٢٣٥".

"أيّ سيارة؟" اندهش الشاعر.

Twitter: @ketab_n

"رقبة الأوزة، الثديان، الطبلة والصنج"، أفرغَ الدكتور مايزليك الكلمات بنفَسٍ واحدٍ: "وسنغافورة أيضاً".

"ها.. هه، الآن أُدرك ما تقصده"، عقّب الشاعر: "أرأيت.. إنها الحقيقة الداخلية، أترغب بقراءة شيء آخر من شعري؟ الآن، أصبحَ بإمكانك فهمه".

"في مُناسبة أخرى"، سارع موظف الشرطة إلى القول: "نتركُ الأمر إلى حين وقوع حادثٍ آخر".

.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

حادثةٌ جَرَت لطِفلة

قال السيد كراتوخفيل: "بما أنّ الحديث قد طال المفوّضَ بارتوشك، فهذا يُذكّرني بحادثة جَرت لطفلة، ولم يُسمع بها أيضاً.

ففي أحد الأيام، هرعت سيّدة فتيّة، هي زوجة المدعو لاندا، وهو أحد الموظفين في حظيرة حكومية، إلى مركز البوليس، حيث يعمل المفوض بارتوشك. كانت تجهش في البكاء، وتعجزُ عن السيطرة على لهاثها. ومع أنّ لها أنفاً شامخاً، وقد تلطّخت ببقع دموعها المُنسالة نتيجة بُكائها المستمر، فإنّ بارتوشك الذي شارفَ على توديع مرحلة الشباب، وفوق ذلك رجل البوليس، أسِف لحالها وحاولَ تهدِئتها، قدر استطاعته. قالَ لها: "بحقِّ العذراء أيتها السيدة الفتية، دعكِ من هذا البكاء. إنّهُ لن يقطع رأسك، لا تهتمي، سيكون كل شيء على ما يرام. وإن خشيتِ أن يثيرُ بوجهك ضجّة، أو مَتاعب كبيرة، فإن هوفمان هذا سيذهبُ معك ويلقّنه درساً لن يَنساه. لكن! تَجنبي أيتها السيدة إعطاء زوجك مُبرّراً للغيرة، ها.. انتهينا". وللعلم، فإنّ غالبية المآسي العائلية تُحلّ في مركز البوليس على هذا النحو.

لكن رأسَ هذه السيدة ظلّ يرتجف، واستمرّت في البكاء لدرجة أنه كان من المروّع النظر إليها.

وهكذا، بعد أن صبّ السيد بارتوشك اللعنات، حاولَ وقد شعرَ بالإحباط، أن يَتعاطى معها بشكلٍ مُختلف: "لقد هربَ منك، أليس كذلك؟ اسمعيني.. إن هذا الوغد البائس سيعود بالتأكيد، أيستحقُّ هذا اللعين منك كل هذا الهرج؟"

Twitter: @ketab_n

"يا.. يا سيد..."، صاحت السيدة الفتية: "الموضوع هو أنّ.. أنهم سرقوا منّي طفلتي في الشارع".

قال المفوّض غير مُصدّق: "دعك من هذا، ما الذي بإمكانهم فعله مع طفل؟ رُبّما ذهب ليقضي حاجته في مكانٍ قريب".

"لا، لم تذهب"، قالت السيدة بتنهدٍ يثير الشفقة: "وردةُ حبوبتي لتوّها بلغَت شهرها الثالث!"

"ها.. هه"، قال بارتوشك، وهو الذي لا يملك أيّ فكرة عن العمر الذي يبدأ الطفل فيه بالسير: "كيف استطاعوا، رجاءً، خطفها منك؟"

بعد أن أقسمَ بكلّ أنواع الإيمان أنّه لابُدّ أن يجد هذه الطفلة، بدأ ينجح ببطء، في تَهدئتها. أمّا الحكاية، فقد جرت على النحو الآتي: عندما كان السيد لاندا يتنقّل بين الحظائر الحكومية، أرادَت زوجته السيدة لاندوفا خياطة صدرية جَميلة لطفلتها وردة، وبينما كانت تنتقي الحرير لتلك الصدرية، في مَتجر لوازم الخياطة، تركت وردة في العربة خارج المتجر. وعندما خَرجت، اكتشفَت أن وردة والعربة أصبحتا في خبرِ كان. هذا كلّ ما استطاع بارتوشك مَعرفته من تلك الأم المُنتحِبة طوال نصف ساعة.

أخيراً، قال المفوض: "يا سيدة لاندوفا، هدّئي من روعك. لن يكون الأمر بهذا السوء. افهمي رجاءً. من هو الذي سيسرقُ طفلة؟ على الأغلب أن الأمر يتعلّقُ بشقيّ سيتركها هنا أو هناك؛ وقد مرّت بي مثل هذه الحالة. أعتقدُ أنّه لا قيمة لمثل هذه الفرخة الصغيرة، إذ لا يمكنُ، على الأغلب، بيعها. أمّا العربة فلا شكّ أنّ لها قيمة. وأمّا الغطاء- كان في العربة أغطية، أليس كذلك؟- فإن له قيمة أيضاً. مثل هذه الأشياء تستحق السرقة. أعتقد أنّ شخصاً ما قد سرق العربة والأغطية، وأرجّحُ أنّ السارق امرأة، لأنّ الرجل يكونُ محط الأنظار إذا كان يسوقُ عَربة أطفال. وأعتقدُ أنّ تلك المرأة ستريحُ الطفلة في مكانٍ ما". ثم أضاف بارتوشك مهدئاً لها: "عفواً

Twitter: @ketab_n

أيتها السيدة.. يعني.. ما الذي ستفعله بها؟ أعتقد أنّنا سنُحضِرُ لك اليوم فرختك، هذه حالما نجدها".

قالت الأم المنتحبة: "وماذا لو جاعَت وردتي، فقد حان موعدُ إطعامها!"

"سنقدم لها ما تشربه"، وعدها المفوض: "ما عليكِ إلّا أن تذهبي للبيت". ثمّ نادى على شرطي باللباس المدني ليُرافق تلك السيدة المسكينة إلى هُناك.

بعد الظهر، قرعَ المفوض باب تلك السيدة الفتية، وصاح قائلاً: "يا سيدة لاندوفا، لقد وَجدنا العربة، وبَقي علينا إيجادُ الطفلة. وجدناها فارغة في مدخل بيت لا يسكنه أيّ طفل. امرأة ما حضرَت إلى صاحبة البيت مُدّعية أنها تريد إرضاع الطفلة ليس إلّا، وذهبت. إنها لقضية مُتعبة"، قال ذلك وأردف وهو يهز رأسه: "يبدو أن تلك المرأة إنّما أرادَت سرقة هذه الرضيعة، وليس أي شيء آخر. ولذلك، أيتها السيدة العزيزة، أعتقدُ أنها لن تؤذيها، ولن تأكلها! باختصار، بإمكانك الإطمئنان، وهذا كلّ ما في الأمر".

لكن السيدة لاندوفا صرخت بيأس: "أريد أن تعود وردتي رَضيعتي لي".

أجابها المفوض بصوت الإداري المُتمرّس: "من أجل ذلك، يتوجبُ عليك سيدتي أن تُعطينا صورة أو وَصفاً لهذه الرضيعة".

قالت السيدة الفتية، وهي تبكي: "لكن، كما تعلم أيها السيد المفوض، الطفل لا يصحّ تَصويره حتى يبلغَ عامه الأوّل، ويقالُ بأنّ تصوير الطفل مُضرّ به، وإنّ صُوَّر في مثل هذا العمر لن ينمو".

"هـ...م"، همهم المفوض: "إذن، صِفي لنا الآن تلك الفتفوتة بدقة".

هُنا شرعت الأم بوصف صَغيرتها باستفاضة: "لوردة شعر جميل وأنف دقيق وعيون برّاقة، وزنها أربعة آلاف وأربعمائة وتسعون غراماً، لها مُؤخرة جميلة، وثنايا في رجليها الغضّتين".

"أيّ ثنايا؟" سأل المفوض.

Twitter: @ketab_n

أجابت الأم باكية: "ثنايا تليقُ بها القُبلات، وأصابع دقيقة حُلوة المذاق، وعلاوة على ذلك تبتسمُ لأمها". ضجّ السيد بارتوشك: "لكن! بحق العذراء أيتها السيدة، لا يمكننا حسبَ وصفك هذا التعرف عليها. هل لها علامات فارقة؟"

استمرّت السيدة في البكاء، وهي تجيب: "على طاقيتها شريط أحمر، كل صَغيرة لها طبعاً شريط أحمر! أستحلِفُك بكل القدّيسين أن تجدَ لي صغيرتي أيها السيد".

سألها السيد بارتوشك: "وكيف تبدو أسنانها؟"

"ليس لها أي سن بعد، فهي بالكاد بلغَت أشهرها الثلاثة! لو تعلم كيف تبتسم لأمها!" ثم ركعت على ركبتيها ونشجت: "قل لي أيها المفوض أنك ستجدها".

أخذ السيد بارتوشك يُتمتم وقد تضاربت مشاعره: "سنبحثُ عنها. أرجوك أن تَنهضي! انظري، إنه سؤال يطرح نفسه، لماذا سَرقتها؟ هل في وسعك أن تقولي لي ما الذي يمكن استفادته من مثل هذه الرضيعة؟"

حدّقت السيدة لاندوفا في عينيه: "الطفلة هي أجمل ما في الدنيا طبعاً. ألا تملكُ أنت أيّ مشاعر أبوية أيها السيد؟"

لم يشأ السيد بارتوشك الاعتراف بهذا النقص فيه، ورَدّ فوراً: "أنا أعتقد أن شقيّة كهذه، لا يمكن أن تسرقها إلّا أم خَسرت وليدها، وترغبُ بالحصول على آخر. أتعلمين؟ إنّ هذا الأمر يبدو كما لو أنّ أحدهم يأخذ طاقيتك في الحانة، وبدورك تأخذين طاقية شخصٍ آخر وتذهبين. على كلّ حال، لقد رتبت الأمر كالآتي: أمرتُ بالتعرف على كل من مات له صَغير ذو ثلاثة أشهر في براغ ومعرفة مكان حدوث ذلك. وسيذهبُ رجالنا للبحث في كل مكان، أتفهمين؟ أرجوكِ أن تُدركي أننا، حسب وصفِك لها، لن نَستطيع التعرف عليها".

Twitter: @ketab_n

قالت السيدة لاندوفا، وهي تنحب: "أمّا أنا، ***ففي وسعي التعرف عليها***".

هزّ السيد المفوض كتفيه، ومع ذلك قالَ وقد بدت عليه علامات التفكير العميق: "أراهنُ بأنّ المرأة التي سرقَت هذه الشقية إنّما تَسعى إلى ربح مادي، ويا أيتها السيدة العزيزة، قليلاً ما يسرقون بدافع الحب، لكن غالباً ما يفعلون ذلك من أجل المال. يا للعنة.. كُفّي عن البكاء! سنعملُ من أجلك كلّ شيء وكلّ ما نستطيع فعله".

عندما عاد السيد بارتوشك إلى المفوضية، قال لجماعته: "استمعوا جيداً، من منكم له عفريتة ذات أشهر ثلاثة فليحضرها عندي هُنا". وهكذا، أحضرت زوجة دركي أصغر أطفالها، فأمرَ المفوض بحلّ ملابسها، ولما تمّ له ذلك قال: "هه! إنها مبللة. وشيء مثير، إن لها زغباً على الرأس، والثنايا مَوجودة أيضاً- وهذا أنف أم لا؟- وليس لها أسنان. أرجوكِ أيتها السيدة، على أيّ أساسٍ يُمكن التعرّف على هذا الرضيع؟"

ضغطَت السيدة على ثديي رضيعتها، وقالت باعتزاز: "إنها صغيرتي مانيتشكا، ألا ترى أيها السيد المفوض أنها نسخة طبق الأصل عن أبيها؟"

السيد المفوض رَمى الدركيّ هوخمان، ذي الشارب الأشعث، بنظرات ملؤها الشك. أمّا الدركي، فقد لَوى قسمات وجهه مُجعداً منقاره، مُكشّراً بوجه ابنتهِ ومُداعباً لها بأصبعه: "تي.. تي.. تي" و"عو.. عو.. عو". لكن المفوض تمتم: "على كلّ حال، لستُ أدري. يَتراءى لي أنّ هذا الأنفَ مُختلفٌ قليلاً. رُبّما أنه سيكبر. مهلكم قليلاً، سأذهبُ إلى الحديقة العامّة، لأرى كيف يبدو هؤلاء الخُرّس. المشكلة أنّ رجالي بإمكانهم تمييز السرّاق والأنذال، لكن، ما الذي في وسعهم فعله مع حالة الرّضّع في لفائفهم؟ هذه مهمة أعتقدُ أنهم يعجزون أمامها".

عادَ بارتوشك هذا، بعد ساعة، مُنكسر الخاطر. قال: "اسمع يا هوخمان، إنه لأمر فظيع. فكلّ هؤلاء الصغار مُتشابهون! كيف في مقدوري تمييزهم؟ المهمة المطروحة أمامنا هي البحث عن رَشيقة القدّ ذات الأشهر الثلاثة؛

Twitter: @ketab_n

لها زغب وأنف رقيق، وعينان جميلتان، وعلى مؤخرتها ثنايا، وعلامتها المميزة أنها تزنُ أربعة آلاف وأربعمائة وتسعين غراماً، أيكفي؟"

أجابه السيد هوخمان بجديّة: "لو كنت مكانك سيدي المفوض، لما أشرتُ إلى تلك الغرامات. فمثل هذه المسخوطة يزدادُ وزنها وينقصُ حسب كميّة برازها".

جهش المفوض: "بحق العذراء.. كيف يمكنني الإلمام بكل هذا؟ ثمّ إن الرُّضّع لم يرد ذكرهم في مراجعنا! اسمع!" قالها فجأة بلهجة من خفّت مَصاعبه بعض الشيء: "ماذا لو علّقنا الموضوع برقبة آخرين، مثلاً، جمعية حماية الأمهات والأطفال؟"

اعترضَ الدركي قائلاً: "لكن القضيّة مطروحة علينا كقضية سرقة".

"هذا صحيح"، تمتم المفوض: "يا إلهي! لو تعلّق الأمر بساعات مَسروقة أو أيّ شيء آخر واضح، لكنتُ عرفت كيف أتصرّف. لكنني يا رجلُ لا أملك أيّ فكرة بصدد كيفية البحث عن أطفال مسروقين".

انفتح الباب في تلك اللحظة، ودخل دركي مُمسِكاً بالسيدة لاندوفا وهي تبكي: "سيدي المفوض، هذه السيدة أرادت سحبَ رضيعٍ من بين أيدي امرأة كانت في الشارع، وأثارَت الشغب والضوضاء، ولهذا السبب أحضرتها لكم".

"بحق الإله، ما هذا الذي تفعلينه مَعنا يا سيدة لاندوفا"، صاح المفوض بها.

"ولم لا أفعل، إنها طفلتي وردة"، قالت السيدة الفتية ناحبةً.

تَدخّل الدركي: "لا وردة ولا يحزنون. هذه المرأة اسمها روبالوفا، وتسكنُ في شارع بوديتشسكه، والطفل ذو الثلاثة أشهر هو ابنها".

قال بارتوشك الذي استشاط غضباً: "أترين أيتها التعيسة؟! اسمعي!

Twitter: @ketab_n

إن تدخلتِ مرة أخرى في شؤوننا، سنتخلى عن الأمر برمّته، أتفهمين؟ انتظري! تذكرتُ شيئاً: ما الاسم الذي تتنبّه له طفلتك؟"

"نحنُ نناديها يا ورّودة"، قالت الأم الباكية: "وأيضاً دودينكا، دي دي دي، يا خريوطة، يا مريولة، يا ملاك، يا حبوبة بابا، يا دلوعة ماما، يا وسخة، يا بوسة، يا شخاخة، يا عصفورة، يا ذهبة".

سأل المفوض باندهاش: "وتتنبّه إلى كل هذا؟"

أكّدت الأم له، وهي تبكي: "إنها تفهمُ كلّ شيء، وتضحكُ حينما نقولُ لها عو عو عو، بو بو بو، أو تي تي تي".

قال المفوض: "لكن هذا لن يفيدنا إلّا قليلاً. للأسف، يجب أن أخبركِ يا سيدة لاندوفا بأننا قد أخفقنا. رضيعتك ليست في عداد قائمة مَوتى العوائل من الأطفال، فجماعتُنا طافوا في كل مكان".

نظرت السيدة لاندوفا مُندهشة، كما لو أنّ بارقة أملٍ فاجأتها وتريد اقتناصها. تكلّمت وإن بحشرجة: "أيها السيد المفوض، أدفعُ عشرة آلاف لمن يجدُ لي ورّودة. لو أنكَ تعلنُ عن مُكافأة: من يرشدُ إلى خيط يوصل لصغيرتي، يحصلُ على عشرة آلاف!"

لكن السيد بارتوشك قال مُشكّكا: "لو كنت مَكانك لما طلبتُ ذلك أيتها السيدة العزيزة".

انفجرَت السيدة الفتية بوجهه قائلة: "أنت لا تملكُ أي حسّ، إني مُستعدّة لتقديم العالم كلّه من أجل ورّودة".

تمتمَ السيد بارتوشك بلهجةٍ آسفة: "طيّب! كما تشائين. لكن، بجاهِ المسيح كُفي عن التدخل بعد الآن".

بعد أن أغلقوا الباب وراءها، قال:"إنها حادثة صعبة، لكن ما عليكم إلّا الانتظار، فأنا أعرف ما الذي سيجري".

Twitter: @ketab_n

ولقد تمّ ذلك حقيقة. إذ بعد مُضي يوم واحد، جاءَ ثلاثة من رجال البوليس السرّي. وكل واحدٍ منهم يحمل طفلة مُهتاجة ولها من العمر ثلاثة أشهر. ثم تبعهم آخر اسمُه بيشتورا، لكن كلّ ما فعله أنّه أطلّ برأسه من الباب، وقال مبتسماً: "أيها السيد المفوض، ألا يُمكن أن يكون طفلاً؟ إنّهُ مُتوفر لديّ وبثمنٍ زهيد".

صاحَ السيد بارتوشك، وكأنه يشتم: "إنّ كلّ ما نراه اليوم هُنا سببه البدل الذي يُدفع للمختطِف. بعد قليل، ستصبحُ عندنا هُنا دار للأطفال المشرّدين. يا لهُ من حادث لعين!"

حدّثَ نفسهُ بتأزمٍ وهو عائد إلى عرين عُزوبته: "حادثٌ لعين! بودّي لو أعرف كيف سنجدُ هذه المسخوطة الآن".

ولمّا وصل إلى بيته، وجد هناك خادمته العجوز، الآمرة الناهية، الثرثارة، والتي بدلاً من أن تُرحب به، قالت: "تعالَ أيها السيد المفوض، حسبك أن تنظر إلى بارينا!"

وللعلم، فإنّ السيد بارتوشك هذا، كان قد حصل من السيد يوستيتز على كلبةٍ أصيلة من نوعِ البكسر، اسمها بارينا، والتي كانت قد نسيت نفسها يوماً مع كلبٍ من نوع آخر. وما يثيرُ استغرابي أنّ هذه الأنواع المُختلفة من الكلاب تتعرّفُ على بعضها ككلاب، وأنا لا أفهمُ كيف يعرفُ الكلب السوقي بأنّ الكلب الباسيت هو كلب أيضاً. نحن البشر، نختلفُ باللغة أو المعتقد ليس إلّا، ومع ذلك، بإمكاننا أن يأكلَ بَعضنا بعضاً. وعودة إلى بارينا تلك، إنّ لها مع ذلك الكلب الإلزاسي تسعة توائم، وهي تجلسُ الآن معهم، تُحرّك ذنبها وتبتسمُ بسعادة غامرة.

هلهلت الخادمة: "انظر وحسبْ كم أنّ هذه البهيمة فخورة بصغارها، وكيف تلاطفهم كما تفعل كلّ أم".

فكّر السيد بارتوشك بما سمعه، وما لبث أن قال: "هل هذا صحيح يا أمّي؟ هل تفعل الأمهات ذلك؟"

Twitter: @ketab_n

"يا سلام! كيف لا"، أجابت تلك الخادمة: "ما عليك إلّا أن تحاول مُلاطفة طفلِ أُمٍّ ما!"

"إنه لأمر مثير"، دمدمَ السيد بارتوشك: "مهلك، سنُجرّب الأمر".

وهكذا، بعد يومٍ واحد لا غير، تملكت مَشاعر الدهشة الشديدة، كلّ الأمهات في براغ الكبرى. وإذ كُنّ يخرجنَ من بيوتهنّ، وكانت الواحدة منهن تحتضنُ طفلها بذراعيها، أو تَجرّه في العربة، كان يتقدم من كل واحِدة منهن، رجل بوليس بمَلابس مدنية، أو رجل ما من ذَوي القبعات المُستديرة السوداء، لاوياً قسمات وجههِ لإضحاك طفلها اللذيذ، لامِساً ذقن الصغير بأصبعه قائلاً: "شميك.. شميك.. إنّه لطفل جميل يا سيّدتي، كم عمره؟" باختصار، كان يوم فرحٍ واعتزاز لتلك الأمهات.

في الحادية عشرة قبل الظهر، اقتادَ رجل بوليس سرّي، امرأة شاحبة ومُرتجفة، إلى المفوضية. وخاطب بارتوشك كما يليقُ بمأمور: "ها هي بين أيدينا سيديّ المفوض. لقد قابلتُها وهي تجر عَربة أطفال، وعندما قلتُ لها: يه...يه إنّ لك طفلاً رائعاً. كم عمره يا ترى؟ رَمقتني بنظرات حادّة، وغطّت الطفلة بمنديل العربة. قلت لها: تَعالي معي يا سَيدة وبدون أي ضجيج".

قال المفوّض: "اذهَب وأحضر لي السيدة لاندوفا. أمّا أنت يا مخلوقة، فأخبريني بحق الإله، لماذا سرقتِ هذه الطفلة؟"

لم تخف تلك المخلوقة الحقيقة طويلاً، بل غمرها الارتباك فوراً. كانت امرأة حرّة، أي لها طفلة، ثمرة علاقة مع أحدهم خارج الشرعية الزوجية، وفي الأيام الأخيرة، أصيبَت طفلتها بمرضٍ وكانت تصيحُ ألماً لَيلتين كاملتين، وفي الليلة الثالثة ناولتها أمها في السرير ثدييها وغفلَت. وعندما استيقظت في الصباح، كانت الطفلة- كما تقول الأم- مُزرقّة وميتة. قال السيد كراتوخفيل بشيءٍ من التشكك: "لا أفهمُ كيف يمكنُ أن يحدثَ هذا الأمر".

"بل يمكن ذلك،" تدخّل في الحديث الدكتور فيتاسيك: "أولاً كان

Twitter: @ketab_n

النعاسُ يغالب تلك المرأة. وثانياً، على ما أعتقد، أن هذه الطفلة عانَت من نزلة تنفسية، ولذا رفضَت لبضعة أيام ثَدي أمها الذي أصبَح لهذا السببِ ثَقيلاً جداً. وعندما غفت الأم، غطّى الثدي أنف الصغيرة فاختنقَت".

استمرّ السيد كراتوخفيل في الكلام: "رُبّما جرى الأمر حينها على هذا الشكل: عندما عرفت هذه المرأة، في الصباح، أن الطفلة مَيتة، ذهبَت إلى الأبرشية للإعلان عن ذلك، لكنها رأت في طريقها السيدة لاندوفا هذه. عِندها، خطرَ لها، أنّها إذا ما ملكَت طفلاً آخر، فسيستمرُ زوجها بدفعِ النفقات لها، ويقال أيضا أنّ"، وهُنا احمرّ وجهُ السيد كراتوخفيل وتابعَ قائلاً وقد اختلطت مشاعره: "لقد ضغطَ الحليب عليها بشكل فظيع".

هزّ الدكتور فيتاسيك رأسه علامة الموافقة، وقال: "هذا صحيح أيضاً".

لكن السيد كراتوخفيل الذي بدا وكأنهُ يعتذر، قال: "تعرفون أني لا أفهم في هذه المسائل. رُبّما للسبب الذي ذكرته، سرقت هذه المرأة الطفلة مع عربتها التي تركتها بعد ذلك عند مدخل بيت غريب، ثمّ حملت وردة هذه إلى البيت بَدلاً من ابنتها زدينيتشكا. لكن على ما يبدو، أنها امرأة مجنونة أو غريبة الأطوار، لأنها وضعت طِفلتها الميتة مؤقتاً في البرّاد، ووفقاً لما أفادَت به لاحقاً، أرادت في الليل طَمْرها أو إلقاءها في مَكان ما، لكنّها افتقدت العزيمة اللازمة لذلك".

في تلك الأثناء، حضرَت السيدة لاندوفا إياها، بادرها بارتوشيك بالقول: "إليك أيتها الأم الفتية.. هذه نمنومتك".

انهمرَت دموع السيدة لاندوفا وهي تقول: "هذهِ ليسَت وردة"، وأخذت تنحب: "وردة كانت تلبس طاقية أخرى!"

صَرخ المفوض: "همّي نحوها وخذيها!" كانت الطفلة مُلقاة على طاولته، رفعها من ساقيها، وقال: "انظري.. ها هي ثناياها على وركيها". وعندئذٍ ركعت السيدة لاندوفا على الأرض وشرعت بتقبيل يدي نمنومتها

Twitter: @ketab_n

ورجليها، ثم أخذَت تبكي وتصيح: "يا حبيبتي يا ورّودة، يا حمامتي.. دي دي دي، إنتِ يا وسخة، إنت يا خنزورة أمك، إنت يا ذهب".

قال السيد بارتوشك بضيق: "أرجوك أن تنهضي يا سيدة، وإلّا قسماً عَظَماً سأتزوج. أما الآلاف العَشرة إيّاها فأعطِها لتلك المرأة الحرة، أتفهمين؟"

أجابته السيدة لاندوفا بنبرة احتفالية، وقالت: "هيا، أحضن طفلتي.. وباركها!"

"أيتوجّب عليّ ذلك؟" ودمدم: "كيف تُحمل؟ ها، لكن انظري.. ها قد بدأت في البكاء.. إليك.. خُذيها في الحال!"

تلك كانت نهاية الحادثة التي جَرَت لهذه الطفلة".

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الأقحوانةُ الزرقاء

"إذن، أنا سأحدّثكم عن كيفية ظهور كلارا إلى الوجود"، قال الكهل فولينوس: "في ذلك الوقت، كنت أعتني بحديقة ليختن بير الأميرية، وكان أميرها العجوز يا سيّدي خبيراً. لقد أمر بإحضار أشجار بكاملها من عند العجوز فيتخه في إنكلترا، وتصوّر أنّه أحضرَ من بصل هولندا فقط، سبعة عشر ألف رأسٍ، لكن كلّ هذا يُعدّ أمراً ثانوياً.

في يوم من أيّام الآحاد، بينما كنت أسيرُ في شوارع لوبينيتس، صادفت كلارا. أتعلم؟ إنّها معتوهة المنطقة؛ البلهاء التي لا تسمع ولا تنطق؛ أينما توجّهَتْ تراها تنهقُ بانشراح. ألا تعرفُ أيّها السيّد لماذا يكون هؤلاء البُلهاء مُنشرحين باستمرار؟ وفي اللحظة التي تجنّبتها فيها كي لا تعطيني فمها، لمحتُ فجأة باقة من الأزهار في قبضة يدها. كانت تضمّ قليلاً من الشومر، إضافة لأنواع مختلفة من أزهار المروج الطفيلية ونباتاتها. لكنّني يا سيّدي لمحتُ، وأنا أتأمّل تلك الباقة، أنّ من بينها نوعاً، كدتُ لأجله أن أفقدَ وعيي من الفرح. كانت في باقة المعتوهة تلك، زهرة الأقحوان الملبّسية. وكانت زرقاء! ويالها من زُرقة يا سيّدي! إنّها تُشبهُ زهرة القبس. ساقُها مُعرّق قليلاً بالرمادي، بينما تتشحُ نهايته بالأحمر اللامع. أمّا بُنيته، فجميلة كما هو حال الجُرَيس الخُذروفيّ الزهر، وما قد ذكرته ليس كلّ شيء. يا سيّدي، هذا اللون لم يُعرَف عن أزهار الأقحوان الهنديّة حتّى يومنا هذا. قبل سنوات، كنت عند العجوز فيتخه، والسيّد جيمس هذا تفاخر يا سيّدي، على نحوٍ ما، بأنّ لديه أقحوانة قد تفتّحت وأنّها استيراد مُباشر من الصين ومشوبة بالاحمرار قليلاً، لكنّها ويا للأسف، كما قال. تَلِفَتْ في الشتاء. أمّا عندنا هنا، فقد كان بين مخلب هذه المخلوقة الرّثة الناعقة،

Twitter: @ketab_n

أقحوانة زُرقتها ما لا يمكنك إلّا أن تتمناه. حسناً، في حينه، كانت كلارا هذه تخور بفرحٍ وهي تُناولني باقةَ زهورها. أعطيتها كورواناً وأشرتُ إلى الأقحوانة. يا كلارا! أين وجدتِها؟ قوقأت كلارا بفخرٍ وصهلت، ولم أحصل منها على أكثر من ذلك. صرختُ، أشرت لها بيدي، لكن دون فائدة، كلّ ما هناك أنّها طلبت منّي بإلحاحٍ أن أَضُمّها بين ذراعيّ. سارعتُ إلى الأمير العجوز ومعي الاقحوانة الزرقاء الثمينة: سموّكم. هذه الزهرة تنمو هُنا في مكانٍ ما من المنطقة، تفضّلوا لنبحث عنها معاً. بَدأ الأمير فوراً بتجهيز عربة الأحصنة، وقرّر أن نأخذ كلارا معنا، لكنّها توارت عن الأنظار في تلك الأثناء، ولم يُعثر عليها. وقفنا أمام العربة، ورحنا نَشتُم لمدّة ساعة كاملة. سموّه كان في يوم من الأيّام ضمن سلاح الفرسان. لم نكُن قد انتهينا من الشتم عندما ظهرت كلارا وهي تركضُ ولسانها مندلق. ناولتنيْ باقة كاملة من الأقحوان الأزرق المقطوف لتوّه. كافأها الأمير بمئة كورون، لكنّها انخرطت في البكاء، فالمسكينة لم تكن في حياتها قد رأت ورقة المئة كورون تلك. لذا، اضطررتُ في مسعى منّي لتهدئتها، أن أعطيها كورواناً واحداً، فما كان منها إلّا أن أخذَت بالرقص والصراخ. أجلسناها على مقعدِ العربة، وأشرنا إلى باقة الأقحوان، ويا كلارا، هيّا، قودينا إلى المكان!

نعقت كلارا سروراً وهي تجلس على مقعد العربة. لا يمكنكم تخيّل حالة سائق العربة، وقد رأى في جلوسها إلى جانبه انتقاصاً من مكانته، وممّا زاد الطين بلّة أنّ الخيول كانت تجفلُ كلّ دقيقة تقريباً من الأصوات التي كانت تصدرُ عن كلارا، والشبيهة بتكليل الديك وقباع الخنازير. باختصار، كانت رحلة شيطانية! مَضت ساعة ونصف تقريباً والعربة تسير، قلت: سموّكم. قَطعنا حتّى الآن أربعة عشر كيلومتراً.

تمتمَ الأمير: هذا ليس مُهماً، وحتّى لو مئة كيلومتر!

عقّبتُ: حسناً، لكن كلارا عَادت بالباقة الثانية بعد غيابِ ساعة فقط، مما يشير إلى أنّ المكان لا يمكن أن يبعُدَ عن لوبينيتس أكثرَ من ثلاثة كيلومترات!

Twitter: @ketab_n

ياكلارا! صرخ الأميرُ وأشار إلى باقة الأقحوانة الزرقاء: أين تنمو؟ أين وجدتها؟

أطالت كلارا نقيقها، وأشارت إلى الأمام باستمرار. على الأغلب أنّها سعيدة لركوبها العربة، الحقّ أقول، اعتقدتُ أنّ الأمير سيقتلها. فيا إلهي كم كان يُتقنُ الغضب! كانت الرغوة تتدفّقُ من أفواه الخيول، وكلارا تقوقيءُ والأمير بدأ بصبّ اللعنات، وسائق العربة قاربَ البكاء خذلاناً. أمّا أنا، فهيأتُ في ذهني المشاريع: كيف نجدُ الأقحوانة الزرقاء؟ قلت: سموّكم، لا يمكننا الاستمرار على هذا الحال. يتوجّبُ البحث بدون كلارا. نرسمُ على الخريطة دوائر، مدى كلٍّ منها ثلاثة كيلومترات، نقسّمها إلى مقاطع ومن ثمّ نبحث عنها بيتاً بيتاً.

قال الأمير: لكن، يا رجل، من المعروف أنّه لا توجد حديقة على بعد ثلاثة كيلومترات من لوبينيتس!

قلت: هذا جيّد، لكنّكَ ستجدُ شيطاناً عجوزاً ليس إلّا! إن كنت تريدُ البحثَ عن زهرة الجداول أو القنّب، فتلك مسألة أخرى. انظُر سموّكم إلى أسفل ساق الزهرة، هناك تلحظونَ بقايا تراب وليس سَماداً، وهو تراب من النوع الرديء. أُرجّحُ أنّها مُسمّدة ببقايا الإنسان! يتوجّبُ علينا البحث عن مكان تتواجدُ فيه الكثير من الطيور، فأنت تجدُ على أوراق النباتات الكثير من روثها، وأُرجّح أنها تنمو قرب الحواجز المعمولة من ألواح خشبيّة لم تُسلَخ قشرتها، حيث تتراكمُ النفايات المنهالة من تلك القشرة، تحت ساق الورق، وهذا بالتحديد ما بإمكانه أن يَهدينا إلى المكان.

مالذي تقصده؟ سأل الأمير.

أقصد، طال عمرك، أنّه يتوجّب علينا البحثُ عند أطراف كلّ بيت ريفيّ، في دائرة قطرها ثلاثة كيلومترات. ننقسمُ إلى أربع مجموعات: أنت، وأنا، والبستاني، ومساعدي فينسل، وهذا كلّ ما في الأمر.

Twitter: @ketab_n

حسناً. أوّل ما حدث في الصباح التالي أنّ كلارا أحضرَت لي باقة جديدة من الأقحوان الأزرق. بدأتُ بعدها البحث في المنطقة التي خُصّصت لي. في كلّ حانة، شربتُ جعةً ساخنة وأكلت الجبن المعتّق، وسألت الناس عن الأقحوان الأزرق، ولا تسألني يا سيّدي أيّ إسهالٍ أصابني بعد تناولي الجبن ذاك. كان الجوّ حاراً كما هو عليه في نهاية أيلول أحياناً. دخلتُ كلّ بيت ريفيّ، وكان عليّ أن أتحمّل طواعية كلّ الفظاظات، فالناس اعتقدوا أني إمّا مجنون، أو عميل، أو أحد أفراد الدوائر. حقيقة واحدة انجلت في المساء: لا تنمو في منطقتي أيّ أقحوانة زرقاء. أمّا في الثلاث الباقية، فلم يجدوا شيئاً أيضاً . كلارا فقط هيَ من أحضر باقةً جديدةً من الأقحوان الأزرق مَقطوفة انتزاعاً.

تعلمُ أنّ أميراً كهذا رجلٌ ذو شأنٍ، وإن أردتَ الإلمام بتفاصيل أكثر، ستعرف أنّه استدعى بعض رجال الدرك، وضعَ في يد كلّ واحد منهم أقحوانة زرقاء، ووعدهم بما لستُ أدريه إنْ هم اهتدوا إلى المكان الذي تنمو فيه. وأنت يا سيّدي تعلم طبعاً، أنّ الدرك ما هُم إلا أناسٌ مُتعلمون، يقرأون الصحف وما إلى ذلك. ويعرفون أيضاً كلّ حجر في المنطقة، ولهم فيها نفوذ واسع. ولك أن تتخيل يا سيّدي أنّه في ذلك اليوم كان ستة من رجال الدرك وحرّاس المنطقة ومخاتيرها وشبيبة المدارس والمعلمين وحفنة من الغجر يُفتّشون الأرض في دائرة قطرها ثلاث كيلومترات، وقد قطعوا كلّ شيء مزهر صادفوه وحملوه إلى القلعة. يا للخيبة! كان المشهد كما لو أنّهم يبحثون عن جسد المسيح، وبالطبع لم يعثروا حتّى على زهرة واحدة من الأقحوان الأزرق. وضعنا كلارا تحت الحراسة طوال النهار، لكنّها هربت في الليل، وبعد منتصفه أحضرَت لي ما وسِعَتهُ ذراعاها من الأقحوان الأزرق. عملنا على حبسها في النظارة كي لا تتمكّن من اقتلاع أزهار الأقحوانة الزرقاء، لكننا كنّا قد شارفنا على النهاية. أؤكّدُ لك أنّ ما جرى كان يشبه السحر، تصوّر إنها منطقة ككفّ اليد...

اسمعْ رجاءً. للإنسان الحق إن كان في حالة فقر شديد أو صادفته

Twitter: @ketab_n

المتاعب في أن يكون بذيئاً، أعرفُ ذلك. لكن أن يقول لي الأمير وقد استشاط غضباً، أني مجنون مثل كلارا، فهذا أمر لا أتقبّله. لقد اعترضته بالقول أني لا أسمح لعجوزٍ قميء أن يشتمني، وغادرت فوراً باتجاه القطار. ومنذ ذلك الوقت، لم أذهب إلى لوبينيتس. عندما جلستُ في عربة القطار وبدأ بالتحرّك، أجشهتُ في البكاء كطفلٍ صغير، فأنا يا سيّدي لن أرى الأقحوانة الزرقاء بعد اليوم. لقد خلّفتُها ورائي طواعية، وبينما كنت أبكي وأنظر من النافذة، شاهدتُ على مقربة من سكّة الحديد شيئاً أزرق. ويا سيّد تشابك، لقد فاق الأمر قدرتي على الاحتمال، وجعلني أقفز من مقعدي وأمدّ يدي إلى مقبض كوابح القطار! لم أعِ تماماً ماحدث. اهتزّ القطار عندما توقّف، وارتميت أنا على المقعد المقابل، وخلال ذلك انكسر إصبعي هذا. وعندما جاءني المفتش مُهرولاً، قلتُ بتلعثم أني نسيت في لوبينيتس شيئاً. وجبَ عليّ دفع غرامة. ويا سيّدي، قذفت بشتائمي كما يفعل طائر الزرزور، وسرتُ وأنا أعرج، على طريق السكّة الحديدية إلى الوراء باتجاه الأزرق. قلت لنفسي: يا أحمق! ما رأيته ما هو إلا الخنكار الخريفي، أو نبات طفيلي ما. كلّ مافي الأمر أنّك تسير وراء الأوهام. قطعتُ قرابة خمسمئة متر تقريباً، واعتقدتُ أنّ الأزرق ما عاد بعيداً عنّي، أو رُبّما تجاوزته، أو أنّ الأمر تهيّأ لي ليس إلّا. وبينما كنت أنظر إلى بيت مُراقب سكة الحديد، وإذا بالأزرق يُطلّ برأسه عبر سياج البيت. نعم، خصلتان من الأقحوان الأزرق.

كلّ طفل يعرف يا سيّدي ما الذي يزرعه حُرّاس السكك الحديدية في حدائقهم الصغيرة. ما عدا الملفوف والبطّيخ، يكون عادة عبّاد الشمس، بضع وردات، السلق، زهرة الأسلاب، وقليل من زهرة الأضاليا. لكنّ الحارس هُنا لم يزرع أيّاً منها، كلّ ما رأيته في حديقته: البطاطا، الفاصولياء، البَيْلَسان، وهنا في الزاوية تلك الأقحوانتين.

تحدّثتُ إليه عبر السياج، قلت: من أين أتيتَ يا رجل، بهذه الزهرات؟

قال: ذات اللون الأزرق؟ أجل، إنّها بقيت هُنا بعد رحيل المرحوم

Twitter: @ketab_n

تشيرماك، الحارس الذي كان قبلي هُنا. لكن عليك أيّها السيّد الانتباه، فالسير مَحظور على مسارات القطارات، وهُناك لوحة مكتوب عليها يُمنع السير على خطّ السكّة. ماالذي تفعلهُ أنت هُنا؟

قلت له: أرجوك أيّها العم، أخبرني أيّ مسلك يقود إليك؟

مسلك خط السكة الحديدية، أجابني وأردف: ممنوع دخول أيّ كان هُنا، ما الذي تريدهُ من هذا المكان؟ انصرِف أيّها المغفّل، وإيّاك أن تخطو ولو خطوة واحدة على درب سكّة القطار.

ومن أين يُمكنني الانصراف ياصاحبي؟

هذا لا يعنيني، صرخ الحارس: على طريق السكّة! لا، وكفى!

جلستُ على حافة السياج، وقلت: اسمعني أيّها الجد. بِعني هذه الزهرات الزرق.

لا أبيعها، همهم الحارس: وارحَل من هنا، الجلوس ممنوع هنا.

قلت له: ولم لا؟ ليسَ مكتوباً على أيّ لوحة أنّ الجلوس هنا ممنوع. السير ممنوع هنا! صحيح، ولكنّني لا أسير.

غضب الحارس، واكتفى بشتمي عبر الحاجز الخشبي. على الأغلب كان وحيداً. توقّف بعدَ قليلٍ عن السباب، وبدأ يكلّم نفسه. وبعد نصف ساعة، خرج ليستعرض خطّ سكّة الحديد.

ماذا بك؟ لماذا توَقّفتَ عندي؟ ستنصرفُ من هنا أم لا؟

قلت: لا أستطيع، فالسير ممنوع على درب سكة الحديد، وما من طريق آخر هنا لأسلكه.

فكّر الحارس قليلاً، ثمّ قال: أتدري.. بعد أن أصل أنا إلى تلك الزاوية، اختفِ من هُنا عن طريق خطّ السّكة، وأنا ما رأيت شيئاً!

Twitter: @ketab_n

شكرتهُ مُمتناً. وعندما وصل الزاوية، قفزتُ عبر الحاجز الخشبي إلى حديقته، واقتلعتُ بمعوله زهرتيَ الأقحوانة الزرقاء من جَذريهما. لقد سرقتُهما يا سيّدي. أنا رجل محترم، ولم أسرق في حياتي إلّا سبع مرّات، واقتصرت سرقتي على الأزهار ليس إلّا.

بعد مُضي ساعة، كنت أجلس في القطار، وأحمل معي أزهار الأقحوانة الزرقاء في طَريقي إلى بيتي. وعندما سار القطار بمُحاذاة بيت الحارس هذا، شاهدتُه وهو يحمل الإشارة بيده مُكشّراً كشيطان. لوّحتُ له بقبّعتي، لكنّه لم ينتبه لي على ما أعتقد.

وكما ترى يا سيّدي، بسبب اللوحة التي كتب عليها ممنوع المرور، لم يخطر على بال أحدٍ، لا نحن ولا الدرك ولا الغجر، ولا الأطفال، أنّ بالإمكان الذهاب هُناك للبحث عن الأقحوانة الزرقاء. تصوّر يا سيّدي أيّ قيمة تملكُها مُجرّد لوحة كهذه؟ رُبّما نمَت الأقحوانة الزرقاء حول بيوت مُراقبي سكة القطار، وكذلك زهرة الربيع أو شجرة المعرفة، أو السرخس أيضاً، لكنّ أحداً لم يكتشفها في أيّ وقت من الأوقات، لأنّ السير على درب سكّة الحديد مَمنوع بتاتاً ولا أُزيد. كلارا المجنونة فقط وصلَت هُناك، لأنّها كانت مَعتوهة ولا تجيدُ القراءة.

لهذا أعطيتُ الأقحوانة الزرقاء الملبسيّة اسم كلارا. ها قد مضى على رعايتي لها خمسة عشر عاماً، وعلى الأغلب أني أضعفتُها بسبب استخدامي تربة جيدة ورطبة. هذا الحارس الجلف لم يسقِها أبداً. نمَت على ترابٍ قاسٍ كصفيح. باختصار، إنّها تبسق في الربيع وتصاب بالمرض في الصيف وتموت نهاية الخريف. تصوّر أني الوحيد في العالم الذي يملكُ أقحوانة زرقاء، ولا يمكنه البوح بذلك للناس. أعرف زهرة بريطانيا وزهرة أنستازيا، وكلاهما تَميلان قليلاً إلى اللون الليلكي، ولكن هيهات! فكلارا، يا سيّدي، إذا ما تَفتّحت يوماً، سيتكلّمُ العالم كلّه عنها!"

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

بَرقيّة

"الكثير من المسائل توصَفُ بأنها بسيطة"، هذا ما قدّره السيد دوليجال، ثمّ مضى إلى القول: "عادةً ما يكون سلوك الناس طبيعياً وصادقاً إذا ما تعلّق الأمر بمسائل عادية وصغيرة، لكن ما أن يشعروا بأنهم قد وقعوا في حالة استثنائية وطارئة، حتى يظهروا وكأنما نفذ إلى داخلهم إنسان جديد، فيبدؤون التكلم بصوتٍ مُختلف؛ بل ويمكنني القول حتى درامي. ويستعملون كلمات مختلفة، وبراهين مختلفة، بل وتنتابهم مشاعر مغايرة لتلك العادية. تستيقظ بداخلهم، قبل كلّ شيء، صفات الشجاعة والوقار والتضحية وما شابهها من الصفات البطولية والأصيلة، وكأنما قد استنشقوا الأوزون. ولهذا يتوجب عليهم القيام بمبادرات كبيرة، وربّما يكمُن في ذلك نوعٌ من الارتياح الخفي، لكونهم أمسوا في حالة طارئة وكارثية. وبهذا كأنّما هم يَتميّزون ويستمتعون. باختصار، يبدؤون بالتصرف كالأبطال على المسرح. وعندما تَنجلي تلك الحالة الدرامية، يعودُ كل شيء إلى حجمه العادي. لكنهم يشعرون بعدها بشيء من الحَرج كما يحدث في حالة خيبة الأمل والتحرُّر من الأوهام".

لي ابن خالة يدعى كالووس. إنه موظّف من النوع المسلكي والقدير، مواطن ورب عائلة، فيه شيء من الاستكانة وشيء من الحذلقة، كما هو حالنا نحن الذين بلغنا مبلغ الرجولة والنضج. زوجته السيدة كالووسوفا ربة بيت طيبة، دجاجة عائلية نموذجية، زوجة مطيعة، وكما يقال، مَمسحة بَيتية وإلى آخره. ثم ابنتهما، الفتاة الجميلة، والتي اسمهما فيرا، موجودة في فرنسا لدراسة الفرنسية وتقديم الامتحانات، وذلك كضمانة في حالةِ عدم زواجها. وآخر العنقود، الابن الهراوة، طالب السنة الثانوية الأخيرة،

Twitter: @ketab_n

الثرثار توندا، لاعب الهجوم في فريق كرة القدم، ولكن، الضعيف في الدراسة وحسب. باختصار، إنها عائلة جيدة، نموذجية، وعادية من الطبقة الوسطى الأحسن حالاً، كما يُقال.

مرّة، كانوا يجلسون إلى مائدة الغداء، فقرع شخص ما الجرس. الزوجة التي ظهرت عند الباب تمسحُ يديها بمريول المطبخ، قالت وقد احمرّ وجهها من الانفعال: "يا للعذراء.. وصلتنا برقية ما". أعتقد أنكم تعرفون كيف تفزعُ المرأة عندما تصلُ برقية. على الأغلب أن هذا الفزع عند النساء يرتبطُ بوظائفهن الداخلية؛ إنّهُنّ يتوقّعن ضربةَ قدَر باستمرار.

في مُحاولة من السيد كالووس للحفاظِ على هدوءٍ وقور، هَمهم متوجهاً لزوجته أن: "مهلاً.. مهلاً، من الذي أرسل البرقية يا تُرى؟" لكن يديه ارتجفتا عندما فتحها، بينما جميع الواقفين عند الباب، بمن فيهم الخادمة، وقد حبسوا أنفاسهم، وجّهوا نظرهم نحو ربّ العائلة.

قال كالووس بصوت غير مُعتاد: "إنها من فيرا! ليأخذني الشيطان إن فهمتُ منها حتى ولو كلمة واحدة". لكنّ السيدة كالووسوفا هَدّدت: "أرني إيّاها".

أجابها كالووس بحزمٍ أن: "انتظري، يَبدو أنها مُحوّرة إذ جاء فيها:

Gadete un ucjarc peuige bellevue grenoble vera.

"وماذا يعني ذلك؟" تنهّدت السيدة كالووسوفا.

ردّ عليها كالووس بخُبث: "هاك إياها إن كنتِ تعتقدين أنك ستفهمينها أفضل! هيّا، دعينا نرى، هل فهمتِ منها شيئا؟"

اغرورقت عينا السيدة كالووسوفا بالدموع، بسبب هذه البرقية المُفجِعة، وهمست: "لابُدّ أن شيئاً ما قد حدثَ لفيرا، وإلّا لما أبرقَت لنا".

صرخ كالووس: "وأنا أرى ذلك أيضاً"، ثم ارتدى معطفه. ربما لأنه ليس

Twitter: @ketab_n

من المناسب البقاء بلا مِعطف في مثل هذا الوضع الحرج. بعدها، قال بنبرة مأساوية: "إن البرقية من غرينوبل، رُبّما أن فيرا هَربت مع شخصٍ ما"، ثم توجه نحو الخادمة: "اذهبي إلى المطبخ يا أندولا".

قالت السيدة كالووسوفا، وقد خارت قواها: "مع من هربت؟"

زأر السيد كالووس: "وما أدراني بذلك، بالتأكيدِ هربَت مع مَن لا ينفعُ لا للخل ولا للخردل، أو مع فنان، هذه هي الاستقلالية النسائية، كنت أتوقعُ شيئاً من هذا القبيل، لقد سمحتُ لها بالسفر إلى هُناك، إلى باريس اللعينة، من دون رَغبة. لكن أنتِ، أنتِ التي توسّطت لها بإلحاح".

أجابتهُ زوجته باهتياج شديد: "أنا!؟ أنا أردتُ ذلك!؟ أنت..! من نصحها باستمرار أنه يجب عَليها دراسة شيءٍ ما، ويجبُ أن تتكفّل بإعالة نفسها". وفي غمرة هيجانها وهي تتكلم، انهارت السيدة كالووسوفا على الكرسي وهي تُردّد: "يا إلهي.. لابُدّ أنّ شيئاً ما قد جَرى لفيرا التعيسة، ورُبّما أن المرض أقعدَها".

بَدأ السيد كالووس يَذرع الغرفة جيئة وذهاباً وقد استشاط غضباً، ثم صاح: "مريضة!؟ لماذا يمكن أن تكونَ مَريضة؟ عَسى ألا تكون مُحاولة انتحار! رُبّما أن ذاك الشاب قد اختطفَها وعادَ وأطلق سراحها.."

شرعَت السيدة كالووسوفا بحلّ مريول المطبخ، وأعلنت وهي تستمرُ في البكاء: "سأذهب إليها، أنا لن أتركَها هُناك، وأنا.."، لكن كالووس صَاح بها: "لن تَذهبي إلى أيّ مَكان".

انتصبَ جسمُ السيدة كالووسوفا، وانتفخت أوداجها كما لم يرَها أحدٌ يوماً بمثلِ هذا الاعتزاز: "أنا أمّها يا كالووس، وأعرف ما هي واجباتي". ثم ابتعدَت جارّةً معها اعتزازها ذاك.

انفردَ الرجلان جانباً؛ الأب كالووس والابن توندا. قال كالووس وقد أظلمت الدنيا بوجهه: "يجبُ أن نكون مُستعدين لأسوأ الاحتمالات. رُبّما

Twitter: @ketab_n

اختطفوها في مكانٍ ما. لا تقُل شيئاً أمام أمك. سأسافر وحدي إلى غرينوبل".

قال توندا بصوتٍ صادر من الأعماق: "يا والدي (في مُناسبات أخرى كان يخاطبه بابا) أترُك لي الموضوع. أنا سأذهبُ إلى هناك، أعرفُ قليلاً من الفرنسية".

قال الأب بتهكّم، وقد فقد السيطرة على أعصابه: "بالتأكيد، سيخشون مثل هذا الفتى هُناك. أنا من ينقذُ ابنته بنفسه، سأسافرُ في أوّل قطار وكل ما أرجوه ألا يكون الوقت قد أصبح مُتأخراً".

لكن توندا أجابَ مُستهزئاً: "بالقطار! لم يبقَ إلّا أن تذهبَ إلى هُناك سيراً على الأقدام، لو سافرتُ *أنا*، فعلى الطائرة المتوجهة إلى ستراسبورغ".

صرخَ الأب بقوة: "وهل تعتقدُ أنه لا يمكنني الطيران أيضاً؟ ليكُن بعلمك.. سأطير"، وأخذ يؤشر بقبضتيه بروح قتالية ويتوعّد: "أمّا ذاك الشخص التافه فسأمزقهُ إرباً إرباً، ياله من تعيس!"

وضعَ توندا يده على كتفِ أبيه- إنها معجزة! كيف بلغ هذا الهراوة، في تلك اللحظة، مبلغ الرجال- وقال مُهدّئاً من روعِ أبيه: "يا والدي.. هذه المهمة لا تناسبك، لقد تقدّمت في السن، اعتمد عليّ وسترى كيف سأبذلُ قصارى جهدي من أجل أختي". حتى تلك اللحظة طبعاً، كان توندا، مثل كلّ شقيق أصغر، يتصرّفُ مع أخته بلطفٍ واستعلاءٍ ذكوري ليس إلّا.

هزّ كالووس رأسهُ رافِضاً، وقال بشراسة: "لا، هذه قضيتي *أنا*. لا يمكن للأبناءِ الاعتماد على أحدٍ مثل اعتمادهم على أبيهم. أنا الذي سيسافرُ إلى هناك يا توندا. أما أنت، فستكون بمثابة سندٍ لأمك.. وأنت تعرفُ تلك النسوة".

ظهرَت السيدة كالووسوفا، في تلك اللحظة، وقد ارتدَت ملابس الخروج، لكن ما يبعث على الاستغراب أنها لم تبدُ مُطلقاً كمن يحتاج إلى مؤازرة.

Twitter: @ketab_n

صرخ كالووس بوجهها: "إلى أين أنت ذاهبة رجاءً؟"

أجابت المرأة الجسورة بلا مُبالاة: "إلى البنك، سآخذ نقودي كي أسافرَ إلى الخارج حيث ابنتي".

انفجر كالووس قائلاً: "هذا هُراء".

"لا، ليس هراء على الإطلاق"، أجابتهُ ببرود: "أعرفُ ما الذي أفعله، وأعلم لماذا أيضاً".

قال كالووس بعزم: "يا امرأة، عليك أن تعرفي أنني سأسافرُ لعند فيرا وحدي".

"أنت؟ نطقتْ بها بتعالٍ، وما جدوى وجودك هناك؟" وأضافت وكأنها قد ألحقت به هزيمة ساحقة: "ولماذا تزعجُ نفسك؟"

همدَ الأب كالووس واحمرّ، ثمّ خاطبها بحدّة: "دعكِ رجاءً من جدوى وجودي هناك. أصبح لديّ تقدير جيّد لما يجبُ أن أقوم به هناك، وإني جاهز لكلّ احتمال. أخبري الخادمة أن تجهّز لي الحقيبة. مفهوم؟"

أجابته: "إني أعرفك جيداً، إن لم يمنحكَ رئيسكَ إجازة لن تذهبَ إلى أيّ مكان".

صاح كالووس: "ليذهب الرئيس إلى الجحيم! ولتذهب الدائرة أيضاً إلى الجحيم، فليطردوني، سأتدبرُ أمر معيشتي على نحوٍ ما. لقد ضحّيت طيلة حياتي من أجل العائلة، وسأضحّي الآن أيضا، أتفهمين؟"

جلست السيدة كالووسوفا على حافة الكرسي، وقالت بانقباضٍ: "يا رجل.. افهَم بم يتعلّق الأمر! إني ذاهبة إلى هُناك لفحصِها، لديّ إحساسٌ بأنّ فيرا عالقة بين الحياة والموت، ويجبُ عليّ أن أكون بجوارها.."

قال كالووس واعظاً: "أمّا أنا..! فلدي إحساسٌ أنها في قبضةِ أحد

Twitter: @ketab_n

الأنذال. لو أننا نعرفُ، على الأقل، ما الذي تَعنيه هذه البرقية، إذن لتهيأنا لـ.."

"لأسوء الاحتمالات"، صاحت بذلك السيدة كالووسوفا.

قال كالووس بغُموض: "رُبمّا، لكنّي بتُّ أخشى التفكير بالموضوع، وبما تتضمّنه هذه البرقية في واقع الأمر".

ردّت السيدة كالووسوفا بشَيء من عدمِ الثقة: "اسمع! لم لا نسألُ السيد هورفات عن ذلك".

كالووس الذي تفاجأ بالفكرة قال: "فعلاً، لكن.. نسألهُ عن ماذا؟" أجابته: "نسأله ماذا تقول البرقية، فالسيد هورفات يمكنهُ حل مثل هذه الشيفرة".

تنفس كالووس الصعداء: "هذا صحيح، إنهُ يستطيع فك رُموزها"، وصاح على الخادمة: "يا أندولا.. اصعدي إلى الطابق الخامس حيث يسكن السيد هورفات، وأخبريه أننا نرجوه الحضور إلينا؟"

ولعلمكم، فإنّ السيد هورفات هذا، لهُ مكانة خاصة في دوائرنا الاستخبارية، ويختصُّ أساساً في فكِّ رموز الألف باء، السرية هذه، ويقالُ بأنه إنسان عبقري، وإذا ما أتيحَ له الوقت المُناسب يستطيع حلّ أيّ شيفرة. إنها مهمّة صعبة، وكل من يؤديها، يصبحُ إلى حدٍّ ما مَجنوناً.

بعدَ انقضاءِ فترة قصيرة، حضرَ السيد هورفات إلى بيت كالووس. إنّهُ شخصٌ هزيل الجسم عَصبيّ، وتفوح منه رائحة الكحول.

قال له السيد كالووس: "يا سيد هورفات.. لقد استلمتُ هذا.. هكذا.. برقية من الصعب فكّها، لذا فكّرت لو أنك.. وهذا سيكون لطفاً منك".

سَارع السيد هورفات إلى القول: "أرني إياها". قرأ تلك البرقية وبقيَ جالساً، عيناه نصف مُغلقتين، ثم سادَ صَمت كصمتِ القبور. بعدها، قال هورفات: "هه هه؟ من الذي أرسل هذه البرقية؟"

Twitter: @ketab_n

أوضح كالووس: "إنّها من ابنتنا فيرا، وهي تدرسُ في فرنسا".

"هه.. هه"، قال السيد هورفات ونهض: "أرسِلوا لها برقياً قرابة مئتي فرنك فرنسي إلى عنوان فندق بيلفو في غرينوبل، هذا هو كلّ شيء".

صَرخ كالووس: "وهل فككت رُموز البرقية؟"

أجابه هورفات: "لا، أبداً. هذه ليست شيفرة؛ إنهُ نصّ مُقتضَب ليس إلّا. لكن، رجاءً أخبروني ما الذي يدفعُ مثل هذه الفتاة اليافعة لإرسال برقية؟ على الأغلبِ أنّها أضاعت محفظة نقودها، وهذا كلّ ما في الأمر، ومثله يحدثُ أحياناً".

سألهُ السيد كالووس بتردد: "لكن، ألا يمكن.. ألا يمكن أن يكون في البرقية ما هو أسوأ؟"

اعترضَ السيد هورفات مُتعجباً: "لماذا بإمكانها أن تتضمّن ما هو أسوأ؟ اسمع.. غالباً ما تحدثُ أمور عادية كهذه، وهذهِ المحافظ النسائية لا تساوي شيئاً".

قال كالووس ببرود: "إذن، شكراً لكم أيّها السيد".

تمتم هورفات: "بسيطة، وذَهب".

سادَ الهدوء قليلاً بين آل كالووس، ثمّ تكلّم الأب بتشتت: "اسمعي.. هورفات هذا لا يُعجِبني، إنه.. هـ.. م.. خَش.. خَشِن".

بدأت السيدة كالووسوفا تفكُّ أزرار فستان الخروج، وخاطبت زوجها: "يا مقيت، أنت.. هل سترسلُ هذه النقود لفيرا؟"

"سأرسلُ طبعاً"، تمتم كالووس وقد خُدِش: "هذه الوزّة الغبية.. أكان عليها أن تضيعَ محفظة نقودها! وهل النقودُ التي أحصل عليها كنتُ أسرقها أم ماذا !؟ إنها تستحق بضع.."

Twitter: @ketab_n

تدخلت السيدة كالووسوفا بنكد: "أنا أقتصدُ مثل مَجنونة، وصبيّتنا هذه.. حتى لا تنتبه لنفسها. إنها لمُشكلة مع هؤلاء الأبناء".

هبّ السيد كالووس بوجه ابنه توندا قائلاً: "أمّا أنت أيّها الكسول، فيكفيكَ تلفتاً. اذهب وحضّر دروسك"، ثم سارَ ببطء شديدٍ إلى البريد.

قيل بأنه لم يَبدُ في حياته مُغتاظاً كما بدا حِينذاك. مُنذ ذلك الوقت، أخذ يعتقدُ أنّ هورفات ما هو إلّا رجلٌ مَهزوز ومتشائم ، وإلى حدّ ما غير مؤدّب، كأنّما هورفات قد أهانه.

Twitter: @ketab_n

إطلاقُ سَراح

تساءل مدير السجن، بعد أن أتمّ تقريباً قراءة القرار الصادر عن وزارة العدل بنبرةٍ احتفاليّة: «ماذا يا زاروبا.. هل فهمت؟ القرار يعني أنّهم يعفونك ممّا تبقّى عليك من حكمِ المؤبد الصادر بحقك.. لكنّه عفو اشتراطي. لقد قضّيت اثنا عشرعاماً ونصف هنا.. وكان سلوكك طوال هذه المدّة.. على أيّ حال.. وباختصار.. نموذجياً. من جهتنا، قدّمنا بحقك أفضل شهادة و.. آه.. بكلمة واحدة: بإمكانك الذهاب إلى بيتك، أتفهمني؟ لكن عليك أن تتذكّر يا زاروبا، أنّك إن إقترفت أيّ شيء، سيتم التراجع عن القرار.. وسيتوجّب عليك أن تقبع في السجن مدى الحياة، لقتلكَ زوجتك ماريّا. عندها، حتّى ربّ العالمين لن يساعدك.. لذا عليك الانتباه يا زاروبا.. المرّة القادمة، ستبقى في السجن إلى أن تموت»، تمخّط السيد المدير بتأثّر، وقال: «نحنُ هنا كنّا نكنّ لك الودّ يا زاروبا.. لكنّي لا أريد رؤيتك عندنا مرّة أخرى. امض برعاية الله.. سيعطيك المسؤول المالي نقودك.. يمكنك الانصراف».

مضى زاروبا، الهزيل والبالغ طوله مترين تقريباً، بتثاقلٍ وتمتم بشيء ما. كان سعيداً لدرجة الألم، فقد صدرَ عنه ما يشبه النّشيج.

أخذ المدير يُهمهم: «لاعليك.. دعك من هذا يا زاروبا.. لا تبكِ أمامنا هنا.. هيأنا لك بدلة.. وقد وعدني معلّم البناء مالك أنّهُ سيأخذك للعمل معه.. ماذا؟.. تريدُ أوّلاً رؤية بيتك؟ ها.. هه.. تريد زيارة قبر زوجتك»، ثمّ سارع المدير إلى القول: «على كلّ حال، هذا شيء جميل منك. أتمنّى لك التوفيق يا سيّد زاروبا»، ومدّ يده لمُصافحته: «انتبه لنفسك بحقّ الإله. تذكّر أنّ وجودكَ خارج السجن مشروط!»

Twitter: @ketab_n

«يا لهُ من إنسانٍ خلوق»، قال المدير بعد خروج زاروبا مباشرة: «لعلمك يا فورمان..هؤلاء القتلة عادة ما يكونون مستقيمين، الأسوأ هُم المختلسون.. هؤلاء لا يتورّعون عن ارتكاب أيّ جريمة.. خسارة زاروبا هذا!»

عندما خلّف زاروبا فناء سجن بانكراتس الحديدي وبابه وراءه، كان لا يزال يتملّكه شعور خفيّ وغير مؤكد بأنّ أوّل حارس يلتقيهِ سيمسكُ به ويعيده إلى السجن من جديد. حتّى أنّه سار ببطء وتثاقل كي لا يُعطي انطباعاً بأنّه هارب، وعندما خرج إلى الشارع أصابه دوار خفيف. تعجّب من كثرة النّاس خارج السجن؛ شخص يهرول وراء أطفال، اثنان من السوّاقين يتشاجرون، «يا إلهي! لم يكُن هناك كلّ هذا الكمّ من الناس في السابق. إلى أين أتّجه؟ لافرق. سيّارات لاعدّ لها، ونساء بلا حدود. أما من أحدٍ يتجهُ نحوي؟ لا، يا لكثرة السيّارات!» انحدرَ زاروبا باتجاهِ مركز براغ مُسرِعاً، باذلاً جهده ليكون أبعد ما يمكن عن السجن. راقت له رائحة اللحوم المقدّدة. لكن ليس الآن، ليس بعد. رائحة البناء الجديد اخترقت أنفه. توقّف عامل البناء زاروبا، وبدأ يشتمّ روائح الملاط والعوارض. نظر إلى العمّ كيف يخلط الجير، تملّكته رغبة في الكلام مع الآخرين، لكنّه لم يستطع. لم يصدر عنه أيّ صوتٍ، ففي السجن الانفرادي تفارقُ الإنسان عادة الكلام. سار زاروبا بخطوات طويلة إلى مركز براغ. يا إلهي! هاهُنا يرتفع بناء! إنّهم يشيّدونه من الباطون بصورة كاملة. لم يكن هذا شيئاً مُعتاداً قبل اثني عشر عاماً. «لم يكن.. في زمني لم يكن..» هكذا قدّر زاروبا الأمر. لكنّ بناءً بمثل هذه الدعائم الرقيقة سيسقط! «انتبهْ يا رجل! هل أنت أعمى؟» كادت تدهسه سيّارة. كاد يسقط تحت الترام الذي كان يُقعقع. يا للعنة، بعد اثني عشر عاماً لا يبقى الإنسان مُعتاداً على الشوارع. رغب بسؤال أحدهم: «ما هذا البناء الضخم؟ أيّ طريق يؤدّي إلى محطة القطارات الشمالية الغربية؟» فمِن هُناك كانت تتحرّك الشاحنات المحمّلة بالحديد. حاول مُخاطبة نفسه بصوتٍ عالٍ: «أرجوكم. أي اتجاه يوصلني إلى المحطة الشمالية الغربية؟» لا. لم يتمكّن. لقد جفّ صوته، أو ربّما أنّ الإنسان هُناك في

Twitter: @ketab_n

السجن يصدأ ولايعود قادراً على الكلام. يَسأل أوّل ثلاث سنوات عن هذه القضيّة أو تلك، لكنّه يكفّ بعدها عن السؤال .»رجاءً.. أيّ طريق يؤدّي إلى..» كان ذلك مُجرّد حشرجة في رقبته، وليس صوتاً لإنسان.

مضى زاروبا سائراً في الشوارع وكأنّه ثمل، أو كأنّه يسير في حلم. كلّ شيء غدا مُختلفاً عمّا كان عليه قبل اثني عشر عاماً؛ صار أكبر، أكثر ضجيجاً ومدعاةً للضياع. النّاس، ما أكثرهم! كلّ ذلك أدّى بزاروبا إلى الشعور بالحزن. تهيّأ له أنّه في مكان ما في الغُربة، وأنّه لا يستطيع التواصل بالكلام مع هؤلاء النّاس. كلّ ما تمنّاه أن يهتدي إلى محطة القطار، ليستطيع الوصول إلى البيت، البيت. شقيقهُ يملك بيتاً وله أولاد: «رجاءً. أيّ طريقٍ يؤدّي إلى..؟» حاول زاروبا القول، شفتاه تحرّكتا، لكن من دون صوتٍ: «آه، ما الأمر!؟ في البيت، سأتجاوز هذه الحالة. سأتكلّم. فقط لو أستطيع الوصول إلى المحطة!»

فجأةً، علا خلفهُ ضجيج. دفعه أحدهم إلى الرصيف وعنّفه سائق: «لماذا لا تسير على الرصيف يا رجل!» أرادَ زاروبا الإجابة، لكنّه لم يستطع. كلّ مافعله أنّه بلع ريقه ومضى قُدماً. فكّر: «رُبّما أنّ الرصيف ضيّق عليّ. يا ناس! إني في عجلة من أمري. أريد أن أكون في البيت. رجاءً، كيف أصلُ المحطّة الشمالية الغربية؟» قرّر أنّه قد يصل عبر الطريق الأكثر ازدحاماً، حيث يسير طابور من حافلات الترام. كيف تجمّع كل هذا العدد من الناس؟ إنّهم صفوف طويلة يسيرون في اتّجاه واحد؛ بالتأكيد نحو محطة القطار. إنّهم إنمّا يسيرون على هذا الشكل كي لا يفوتهم القطار. ضاعف الطويل زاروبا من سرعة خطواته حتّى لا يتخلّف وراء الجموع، ولكم أن تروا! لم تعد الأرصفة تستوعبهم. جموع غفيرة وصاخبة تتماوج وسط الشارع، وتنضمّ مجموعات جديدة إليهم باستمرار. إنّهم يهرولون ويصيحون بشيء ما. وفي هذا الخضم، بدأ الجميع بإطلاق هتافات عالية وطويلة.

زاروبا، المذهول من الضجيج، أُصيب رأسه بالدوران. «يا للعنة! كل

Twitter: @ketab_n

هذا العدد من الناس! شيء جميل». في المقدّمة، بدأ البعض بالنشيد. أمّا زاروبا، والذي عدّل من خطواته، أخذ يسير مبتهجاً. والآن، التفّ الجميع حوله وهم ينشدون. حركة ما دبّت في رقبته كأنّما شيء يَسعى للخروج منها. نعم، انطلق صوته: «واحد اثنان، واحد اثنان». لكنّ زاروبا يُنشدُ بدون كلمات، يدندن بصوتٍ عميقٍ. «ماهذه الأغنية؟ ليس مُهماً، أنا ذاهب إلى البيت..أنا ذاهب إلى البيت!» زاروبا الطويل الهزيل أصبح يسيرُ في المقدّمة ويغنّي. إنها ليست كلمات، شيء جميل على كلّ حال، «واحد اثنان، واحد اثنان»، زاروبا ويده مرفوعة يُصدر صوتاً كنهيم الفيلة، كأنّما جسمه بكامله يتكلّم؛ بطنه تهتزّ كطبلة وصدره يهدر وينبعث إحساس لطيف في حنجرته. لطيف كأنّما أنت تشرب أو تبكي. آلاف النّاس يهتفون: «يا للعار! يا لعار الحكومة!» لكنّ زاروبا الذي لم يستطع تَمييز ما يهتفون به، أخذ ينغّم منتشياً: «آ.. أ! آ..أ». سار في المقدّمة رافعاً يده الطويلة، وراحُ ينعق ويصيح، يغنّي ويزِنّ، يطرق قبضته على صدره ويطلقُ صراخاً حاداً يعلو فوق رؤوس الجميع، كعلم يرفرف عالياً: "أُوا ...وا ، أُوا ...وا" صرخ زاروبا بملىء حنجرته وبكل قوة رئتيه ومن صميم فؤاده مغمضا عينيه كالديك «أُوا! آ آ! هوراااا». توقّفت جموع الناس فجأة. لم يعدُ بإمكانها التحرّك إلى الأمام، وإذ احتدمَ غيظها، أخذت تتراجع بشكل فوضوي، وتصرخُ بحدّة وهي بحالة من الهيجان. «أُوا! هوراااااا!»، زاروبا وبعينيه المُغلقتين، يستسلمُ للصوت المتحرر من داخله. وفجأةً احتوته أيدٍ ما، وزنّ في أذنه صوتٌ لاهث: «باسمِ القانون نلقي عليك القبض!»

حملقت عينا زاروبا. أمسك شرطيّ بإحدى يديه يريد سحبه من بين الجموع الهائجة. تأوّه زاروبا فزعاً وأراد تخليص يده التي لواها الشرطي .أنّ من الألم، لكنه هوى بقبضته الثانية على رأس الشرطي الذي احمرّ وجهه وأفلته. لكن، في اللحظة نفسها، ضرب أحدهم زاروبا بالهراوة على رأسه ضربة واحدة وثانية وثالثة، ويدان ضخمتان دارتا كطاحونة هواء وهوت على بعض الرؤوس، وهُنا ظهر رجلان يرتديان خوذة على رأسيهما وانقضّا عليه

Twitter: @ketab_n

كالكلاب الشرسة. زاروبا يلهثُ مسعوراً يحاول التخلّص منهم؛ يرفس كلّ ما حوله، يهيج كالمجنون، لكنّهم يدفعونه ويجرّونه إلى جهة ما. شرطيان يقودانه، ويداه مقيّدتان إلى الخلف باتجاه شارع فارغ. «واحد اثنان، واحد اثنان»، زاروبا يمضي الآن كالحَمَل: «أرجوكم.. كيف أمضي إلى المحطّة الشمالية الغربية، فأنا يجب أن أذهب إلى البيت».

واصل الشرطيّان اقتياده إلى أن وصلا معه إلى المفوّضية.

«ما اسمُك؟» بدأ صوتٌ بارد وبشع بسؤاله.

زاروبا يرغب بالإجابة، لكنّه يُحرّك شفتيه ليس إلّا.

«هيّا.. ما اسمك؟» صاح الصوت البشع.

«زاروبا أنتونين»، همس الطويل الهزيل بصوت مصفور.

«سكنُك؟»

هرّ زاروبا كتفيه بلا حيلة: «في البانكراتس»، قالها كأنّما يكلّم نفسه: «في الحبس الانفرادي». ما تلا هذه الوقائع ما كان له أن يحدث، لكنّه حدث! ثلاثة من رجال القانون تشاوروا بصدد تخليص زاروبا من هذه الورطة: رئيس هيئة المحلّفين، والنائب العام والمحامي المُكلّف بالدفاع عنه.

قال النائب العام: «حبّذا لو أنكرَ زاروبا الأمر».

«لايمكن ذلك»، همهمَ رئيس هيئة المحلّفين: «لقد اعترفَ أثناء التحقيق معه أنّه تعاركَ مع رجال الشرطة. ياله من أبله. اعترف من تلقاء نفسه».

اقترح المحامي: «لو أنّ الشرطيين أعادا إفادتيهما، وقالا أنّهم لا يستطيعان التحقق من شخصيّته، وربّما أنّ شخصاً آخر هو المعني».

«أرجوك»، احتجّ النائب العام: «أتريدُ أن نعلّم رجال الشرطة الكذب، خاصة وأنّهم يعرفون زاروبا؟ أنا أميلُ إلى استبعاد حالة الفعل العمد، لو اقترحتم فحص حالته الصحيّة فأنا سأؤيد ذلك أيّها الزميل».

Twitter: @ketab_n

قال المحامي: «هذه ليست مسألة صعبة، سأقترحُ ذلك، لكن ماذا لو لم تقر لجنة الأطبّاء جنونه؟»

تدخّل رئيس هيئة المحكمة: «سأتكلّم معهم بهذا الخصوص، صحيح أنّ هذا الأمر لا يجوز لكن.. يا للشيطان! أنا لا أرغب أن يقضي زاروبا هذا بقية حياته في السجن من أجلِ مسألة تافهة.. أُفضّل رؤيته في.. لا أدري أين. بحق الإله، كنتُ سأحكم عليه بستة أشهر دون أن يرفّ لي جفن، لكن، أيّها السيّد، أن يقضيَ بقية حياته في السجن.. مسألة.. حاشاك.. لا تُعجبني».

قدّر النائب العام الأمر قائلاً: «إن لم يُسعفنا استبعاد حالة الفعل العمد، فسيكون الأمر قاتماً. بحق الإله! أرجوكم، سيتوجّب عليّ اعتبارُ الأمر جريمة. ما الذي في وسعي فعله غير ذلك؟ لو أنّ هذا الأبله، على الأقل، توقّف في إحدى الحانات! لكنّا نسجنا حكاية جنونٍ».

لكنّ رئيس هيئة المحكمة ألحّ على زملائه: «أرجوكم أيّها السادة، دبّروا لي الأمر بصورة ما، بحيث أتمكّن من إطلاق سراحه. إني رجل مُسنّ، ولا أرغب في تحمّل.. هه.. لاشكّ أنّكم تعرفون ماذا!»

قال النائب العام: «إنّها قضية صعبة. لكن، سنرى، رُبّما يطول الأمر مع أطبّاء النفس. المحاكمة ستكون غداً، أليس كذلك؟»

لكنّ المحاكمة لم تقم أبداً. في تلك الليلة، شنق أنطونين زاروبا نفسه، على الأرجح خوفاً من العقاب. وبما أنّهُ طويل جداً، فقد كان مشدوداً إلى الحبل على نحوٍ غريب. إذ كان يبدو وكأنه جالس على الأرض.

«قضية عويصة»، تمتمَ النائب العام: «يا للعنة! إنّها قضية مؤسفة. لكن، حسبُنا أنّه ليس لنا ضلعٌ فيها».

Twitter: @ketab_n

إبرة

حدّث السيد كوستيليتسكي: «لم يكُن لي في حياتي أيّ شأنٍ مع المحاكم، لكن لا أكتمكم: إنّ ما يعجبني فيها على وجه الخصوص، هو إيغالها المفرط في التفاصيل الدقيقة، وتلك المرافعات والطقوس التي تتخللها من حين إلى آخر، حتى لو تعلّق الأمر بشعرة عنزة، وهذا ما يولّد نوعاً من الثقة بها. وإذا ما توفرت بين أيدي القضاء موازين دقيقة، فلتكن كالموازين الصيدلانية. أمّا إذا امتلك سيفاً، فليكن حاداً كموسى الحلاقة. وهذا كلّه يُذكّرني بحادثة جرَت في شارعنا.

اشترت سيدةٌ تعمل في إدارة إحدى البنايات، وتدعى ماشكوفا، خبز ساندويش مُدوّراً من البقالية. وبينما كانت تمضغ قطعة منه، وخَزَها فجأةً شيء ما في حنكها، فأدخلَت يدها إلى فمها، وسحبت منه إبرة انغرزَت في سقفِ حلقها. وبعد هُنيهة، انتابها رعب وراحت تُحدّث نفسها: يا إلهي، كان من المُحتمل أن أبتلع تلك الإبرة وأن تثقب معدتي، لا يمكنني تركُ هذا الأمر يمرّ هكذا ببساطة، فهو يتعلّق بالحياة والموت! يجبُ التحقيق فيه، أيّ تعيسٍ نصبَ لي هذه الإبرة المكِيَدة في الخبزة؟ وهكذا، حملَتِ الإبرة والخبزة المقضومة إلى مركز البوليس.

قام البوليس باستجوابِ صاحب البقالية، وكذلك الخباز الذي خبز تلك القطع. ومن المفهوم طبعاً، أنّ أحداً لن يُقرّ بصلة له مع تلك الإبرة. بعدها، أحال البوليس الإبرة إلى المحكمة، لأنّ الأمر هُنا، لعلمكم، يُصنّف على أنه إلحاقُ ضرر خفيف بالجسم. قاضي التحقيق الذي تولّى القضية، رجلٌ ذو ضمير حي وموظف مُثابر. استنطق من جديد صاحب البقالية

Twitter: @ketab_n

وهذا الخباز، كلاهُما احمرّ واصفرّ وأقسم أنه ما كان لهذه الإبرة أن تصل إلى الخبزة وهي عِندهُما. ذهب قاضي التحقيق إلى البقالية لاستطلاع الأمر مرّة أخرى، فتأكد أنه لا توجد هُناك أيّ إبرة، ثم إلى الخباز ليرى كيف يُحضّر الخبز. جلس في المخبز طيلة الليل وراقب كيف يُحضّر العجين، وكيف يُحمى الفرن، وكيف يُعجن خبز الساندويش، وكيف يضعونه في الفرن لينضج ويكتسب لونه الذهبي. ومن خلال ذلك كلّه، اكتشف أن الإبْرة لا تُستعمَل خلال عملية الخبازة. لن تُصدّقوا كم هي جميلة صناعة خبز الساندويش، وخصوصاً عملية شواء الخبز العادي. كان لجدّي المرحوم مخبز، ولهذا عرفتُ مدى جمال العملية، ولعلمكم، يوجدُ سرّان أو ثلاثة أسرار كبيرة، وإلى حدٍّ ما مقدّسة في عملية إعداد الخبز؛ السرّ الأوّل أنّه حينما تُحضَّر الخميرة، تُترَك في جُرن، ثم يحدث تحوّل سرّي ما تحتَ الغطاء، وما عليك إلّا الانتظار حتى تحصل من الماء والطحين على خميرة حيّة، بعد ذلك يُعجَن العجين ويجري خلطه بواسطة يد آلية. يتراءى هذا الخلط لمن يشاهده كرقصة دينية أو ما شابه! بعدها يُغطّى العجين بأكياس الخيش ويُترك ليختمِر. التحوّل السري الثاني يكمُن في كيفية اختمار العجين وانتفاخه بوقار. ليس مسموحاً لك رفع الخيشة لتنظرَ إلى العجين بدافع الفضول- الحق أقول، إنّها عملية جميلة وغريبة كالحَمْل، كان لديّ دائماً انطباع بأنّ هذا الجرن شيءٌ نسائي. والسر الثالث هو عملية الشواء نفسها؛ أي ما يؤول إليه العجين الطري والشاحب في الفرن. يا للعذراء.. عندما تسحبون هذا الخبز الذهبي والمُقمّر من الفرن، تُلاحظون كيف تنبعث منه تلك الرائحة الزكيّة التي لا يُمكن أن يفوحَ أزكى منها حتى ولو من طفلٍ صَغير، إنها المعجزة بعينها.. أعتقدُ أنه على الفرن أن يرنّ لدى حدوثِ هذه التغييرات داخله، كما ترنّ الأجراس في الكنيسة عند مُناولة القربان.

لكن ما رغبت بقوله بأنّ قاضي التحقيق هذا، مع أنه استنفد كلّ قواه، أبى أن يتركَ الموضوع للضياع. وهكذا، أخذَ تلك الإبرة، ثم أرسلها إلى

Twitter: @ketab_n

معهد الكيمياء ليتحققوا هُناك عمّا إذا كانت قد استقرّت في الخبزة قبلَ إنضاجها، أم بعد. كان هذا القاضي مولعاً بالاكتشافات العلمية بصورة استثنائية. كان في المعهد ذلك الوقت أستاذٌ جامعي ملتحٍ وذو باعٍ طويل في العلم، يدعى البروفسور أوهر، والذي ما أن استلم الإبرة، حتى بدأ يشتُمُ بقوّة تلك المحاكم، التي لا تعرف ما الذي تريده منه بعد. إذ أنهم من فترة ليست بالبعيدة أرسلوا له أحشاءً تالفةً لدرجة أنّ مُحَضّر عملية التشريح لم يَحتملها، فما الذي يمكن لمعهد كيمياء فعله مع إبرة! لكنه عاد وغيّر رأيه، إذ بدأ الاهتمام بالموضوع، طبعاً، من زاوية علميّة. قال لنفسه: كيف إذاً! قد يكون من الصواب القول أن بعض التحولات قد تطرأ على الإبرة حينما تدخلُ في العجين، أو عندما يُخبزالعجين وهي بداخله، أو ربما تتولّد بعض الأحماض في مَرحلة الاختمار، أم ما الذي يمكن حُدوثه علاوة عمّا ذُكِر! ربمّا ينتج عن تلك التحوّلات، في مرحلة الشواء، تأكسد أو تآكلٌ بسيط في رأس الإبرة . على كلّ حال، يُمكن التحقق من كلّ هذه الأمور تحت المجهر. وهكذا، شرعَ في هذه العملية.

اشترى أولاً بضع مئات من الإبر النظيفة عُموماً، وكذلك الصدئة بعض الشيء، وبدأ يشوي خبز الساندويش في معهد الكيمياء. في التجربة الأولى، وضع الإبر في الخميرة مُباشرة، ليعرفَ كيف تؤثّر عملية التخمّر عليها. وفي التجربة الثانية، وضعها في عجين جَرى تحضيره للتو. وفي الثالثة، في عجين مازال في مرحلة الاختمار. أمّا في الرابعة، ففي عجين اكتمل اختمارُه. ثم أدخلها قبل عملية الشواء مُباشرة، وأيضاً خلال الشواء، وحشاها في خبز الساندويش كذلك، عندما كان لا يزال حاراً، ثمّ في الجاهز منه. ولغرض التدقيق، أعاد كل سلسلة التجارب هذه من جديد. باختصار، لم يقوموا في معهد الكيمياء، خلال أربعة عشر يوماً بالتمام والكمال، بأيّ شيء، سوى شواء الخبز مع الإبر. بروفسور وعميد وأربعة مُساعدين وخادمة، يقومون بعجنِ خبز الساندويش وشوائه، يوماً بعد يوم. بل زيادةً على كلّ ما سبق، اختبروا الإبر بالمجهر، وقارنوها ببعضها، الأمر الذي تَطلّب أسبوعاً آخر من العمل. وفي النهاية، تمّ التأكُّد بدقّة أن الإبرة

Twitter: @ketab_n

المعنية قد غُرِزت في الخبزة بعد أن تمّ شواؤها، لأنها تطابقت مجهرياً مع الإبر التي وضِعَت في الخبز الجاهز.

قرّر قاضي التحقيق، مستنداً على هذا الإثبات، أن هذه الإبرة وصلت للخبزة إمّا في البقالية أو في طريقها من الخبّاز إلى البقالية. والآن، قال الخبّاز مُتذكّراً: يا للعنة.. في ذلك اليوم.. طَردتُ من الخدمة صَبياً مُتدرّباً، وهو من حملَ الخبز في السلّة وقام بتوزيعه! عندها استدعوا الصبيّ الذي بدوره اعترفَ بأنه قد وضعَ الإبرة في الخبزة، رغبة منه في الانتقام من السيد مُعلّمه. وبما أن هذا الصبي لم يكُن بلغ سنّ الرشد، فقد تلقى تنبيهاً، بينما حُكِم على المعلّم الخبّاز بغرامة قدرها خمسون كروناً مع وقف التنفيذ، وذلك لأنه المسؤول عن العاملين معه. وهُنا ترون، عبر هذا المثال، كم أنّ العدالة صارمة ومُثابرة.

لكن لهذه المسألة وجهٌ آخر. ما أدراني .. رُبّما يكون فينا نحنُ معشر الرجال، نوع من الطموح الغريب، أو العناد، أو ما إلى ذلك. باختصار، عندما بَدأوا في معهد الكيمياء شواء قطع الخبز تلك، أدخلَ هؤلاء الكيميائيون إلى رؤوسهم أنّه يتوجّبُ عليهم القيام بهذه المهمة بإتقان. كان خبزهم في البداية كلّ ما قد يخطر على بالكم من الأنواع ضعيفة الجودة، قليلة الاختمار وذات المظهر السيّء، لكنهم كانوا كلّما مَضوا في الشواء تحسّن أداؤهم. ثم أخذوا يَرشّون الخشخاش على الخبز، وكذلك الملح وبذور الكمون، وبِذا كانوا يعطونه مظهراً جميلاً يبعثُ السرور لدى كلّ من ينظر إليه، الأمرُ الذي دفع بهؤلاء العلماء إلى التفاخر بأن خبزاً شهياً وناضجاً مثل الذي أعدّوه في مَعهدِهم لا يمكن أن يُعدّ في أيّ مكانٍ آخر في جميع أنحاء براغ».

قال السيد ليلِك: «إنك تُسمّيه عِناداً يا سيد كوستيليتسكي، لكن بإمكاني القول بأنه يُماثل الرياضة. أتعلم.. إنّها هواية ذات فاعلية عَظيمة، والرجل الحق لا يفعلُ ذلك من أجل نَتيجة قد لا تستحقُّ الكثير، بل لأنها لعبةٌ من نمطٍ خاص، ولأنها تَوتّر طوعيّ. وسأشرحُ لك الأمر في مَثلٍ واحد، مع أنّك رُبّما تقول عنه بأنهُ سَخافة لا محلّ لها هنا.

Twitter: @ketab_n

باختصار، عندما كنتُ لا أزال على رأس عملي في قسم المحاسبة عندنا، وأقوم بالإقفالات الحسابية، نصف السنوية، كان يحدثُ ألّا تتطابقَ الأرقام أحياناً. مرّةً حدث نقص في الخزنة، مقداره ثلاثة هاليرات (قروش. م) ومفهوم أنّني، ببساطة، أستطيعُ إضافة تلك القروش الثلاثة إلى الخزنة من جيبي الخاص، لكنّ هذا لا يُعدّ لعبة نظيفة. وكما تعلم، فمن وجهةِ نظر علم المحاسبة، سيكون الأمر مُخالفاً لقواعد الرياضيات. من بين أربع عشرة خانة، يجبُ تحديد تلك التي نقصت فيها بالذات تلك الهاليرات (القروش)، وأقول لك بأنني كنت أتوقّعُ حدوثَ خطأ ما قبل كل إقفال.

في مثل تلك الحالة، كنت أظلّ في مكتب المحاسبة الليل بطوله، ويا رجل.. كنت أبحرُ في تفاصيل كتب المحاسبة الموجودة أمامي، طويلاً. إنّه لأمر غريب، فأنا لم أنظر إلى الجداول الحسابية على أنّها أرقام، بل قضايا. أحياناً كان يتهيّأ لي أنيّ أتسلّقُ على هذه الأرقام صَاعداً للأعلى، وكأنها تُمثّل مساراً شديد الانحدار. كنت أشعر أني صياد يجهد في الخطو بين أحراج الغابة ليُمسك بحيوانٍ نادر وهيّاب.. إنه القروش الثلاثة تلك! أو كنت أعتقدُ أني مُخبر سرّي يقف على الزاوية في الظلام متابعاً آلاف الوجوه التي تمرّ به إلى أن يُمسِك برقبة ذلك النشّال أو المجرم أو ذاك الخطأ الحسابي. تهيأ لي مرات أخرى أني أجلسُ إلى حافة النهر ناصباً الشرك، وفجأة تهتزّ العصا.. لقد اصطدتكِ أخيراً أيتها اللعينة!

لكن أكثر ما تكرّر هو تخيّلي أني صياد، ترتفعُ قدماي وتهبط بين غصينات عنب الغابة البرّي الرطبة وأوراقها. أشعرُ بذاك الفرح المتأتي من الحركة والقوة، وبنوعٍ من الحرية الخاصة والتوتر، وكأنني أعيش مُغامرة. ليالٍ كاملة صمدتُ فيها ملاحقاً تلك الهاليرات الثلاثة، وعندما عثرتُ عليها، لم أفكّر حتى بكونها ثلاثة هاليرات بائسة، بل كانَت كأس الفوز. ولا تستغرب إن قلت لك أني ذهبت للنوم مُنتصراً وفخوراً؛ استلقيتُ بحذائي على الفراش. وهذا هو كلّ شيء".

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

دليلٌ قاطِع

"أتعلم يا توني؟" قال قاضي التحقيق ماتيس لأحدِ أقرب أصدقائه: "إنها مسألةُ خبرة، فأنا لا أؤمن بأيّ حُجج، ولا بأدلةٍ أو بكلام أحد. لا أصدّق أيّ متهم ولا أيّ شاهد. الإنسان يكذب حتى عندما لا يقصدُ ذلك. ترى شاهداً ما يُقسِم لك أنه لا يُكنّ للمتهم أيّ عداء. ومع ذلك، يكون هو نفسه لا يعرف أنّه في أعماق روحه أو لاوعيه يمقته بسبب غيرة أو كراهية مَقموعة. كل ما يقوله المتهم لك مُختلق ومرسوم سَلفاً، وكل ما يقوله الشاهد يمكن أن يهدف بوعي أو بلا وعي إلى مُساعدة المتهم أو الإثقال عليه. إني أعلمُ يا عَزيزي أن الإنسان، من أعلاه إلى أسفل قدميه، ما هو إلّا دجال لعين.

إذن، بأي شيء أؤمن؟ بالصدفة؟ وأنا ياتوني أقصدُ ذاك النوع من الكلمات أو الحركات أو الأفعال، التلقائية والعفوية، أو.. كيف أعبّر لك.. اللاإرادية، التي تَوْقعُ هنا أو هُناك بصاحبها. أي شيءٍ يُمكن تزويره أو افتعاله، كل شيءٍ عبارة عن خداع أو نيّة مبيّتة إلّا الصدفة. إنها تُقرأ من النظرة الأولى. وأنا لي أسلوب أتّبعه: أجلسُ وأدعُ الناس يَهذرون بما قد ابتَدعوه وأضمَروه سَلفاً، أتظاهرُ بأني أصدّقهم، أو حتّى أساعدهم كي تنطقَ أفواههم بجودةٍ أكبر، وأترصّدُ إلى أن تفلتَ منهم كلمة ما، تلقائية غير مقصودة.

أتعرف.. يتوجّبُ على المرء، لهذا الغرض، أن يكون طبيباً نفسياً. بعض المحققين يتّبعون تكتيكاً يهدفُ إلى إرباك المتهم، ولهذا الغرضِ يقاطعونه في الكلام باستمرار، ويربكونه إلى أن يعترفَ يانِك المسكين حتى بقتلِ

Twitter: @ketab_n

الامبراطورة إليزابيث. أمّا أنا، فكل ما أبتغيهِ هو ببساطة، اليقينُ الراسخ. لهذا أنتظرُ بصبرٍ وهدوء سُطوع شيء من الحقيقة، من خلال الكذب المُستمر والمراوغة التي تردُ أثناء ما يُصطلح على تسميته إفادة. لعلمك، الحقيقة السّاطعة تنبثقُ من وادي الدموع بفضل سهوٍ ليس إلّا. تنبثقُ فقط، عندما يبوحُ الكائن البشري بها بكيفية ما، أو في حال ارتكابه هفوة.

اسمعني يا توني، أنا لا أخفي عنك أي سرّ، فنحنُ أصدقاء منذ الطفولة- وتعرف كيف ضربوك أنتَ عندما قمتُ أنا بكسرِ نافذة- ما كنت لأحدّث أحداً عن سرّ لي، لكنّي أخجل منه لدرجة تقتضي أن أخرجه من داخلي. هذا عبث، لكن الإنسان بحاجة إلى البوح، سأخبركَ كيف أن أسلوبي هذا تأكّد الآن في.. في حياتي الشخصية، وباختصارٍ، الزوجية. بعدها، قل لي أرجوك، أني كُنت أبلهاً وجلفاً، فهذا ما يليق بي.

يا رجل.. أنا.. فلأقل شككتُ بزوجتي مارتيتشكا(*)، باختصار ركبَتني الغيرة كالأحمق. تصوّر أني أدخلتُ إلى رأسي هاجساً مفاده أنّ لها علاقة مع ذاك.. مع شاب.. هذا.. سأسميه لك: إنه آرتور، أعتقدُ حتى أنت لا تعرفه. لا تتعجّل، فأنا لستُ عبداً لأحد، لو كنتُ مُتأكداً أنها تحبه، لقلت لها: اسمعي يا مارتيتشكا، فلنفترق، لكنّ أسوأ ما في الأمر، أنيّ لم أكُن مُتيقّناً من شَيء. آه لو تعلم يا توني مَدى الالتياع الذي يُسبّبه هذا الأمر. يا للعنة! لقد كان عام شؤم ونكدْ! تأمّل تلك التفاهات التي يقوم بها زوجٌ غيور كهذا: يتحرّى ويترصّد ويستنطق الخدم ويفتعل مشاهد ومواقف.. أضِف لكلّ ذلك أني، ويا للمُفارقة، قاضي تحقيق. يا رجل.. لقد تحولت حياتي العائلية في العام المنصرم إلى استجواب صليبيّ(**) مُتواصل، مُنذ مطلع الفجر، وحتى.. حتى الفراش.

---

*) تصغير لاسم مارتا. م.

**) "استجواب صليبيّ: يَعني استجواباً يُجريه عادةً عدّة أشخاص، تُطرَحُ خلاله أسئلة مُختلفة التوجّه، ويتناوبُ طارحوها بسرعة". المصدر: "قاموس اللغة التشيكيّة الفصحى- الجزء II، ص. ٤٦٨- إصدار أكاديمية العلوم التشيكوسلوفاكيّة ١٩٨٩. م.

Twitter: @ketab_n

المُتهمة، أقصد مارتيتشكا، تماسكَت بشكل رائع، ومع أنها كانت تبكي، وتصمت رغم الأذى الذي يكون قد لحق بها، ومع أنّها كانت تُجيب عن أسئلتي: أين كانت طوال النهار، وماذا فعلتْ، فقد كنتُ أُمعنُ في ذلك، وفي ما إذا كانت ستبوح بشيء، من غير قصد، أو تقع في هفوة ما. ومع أنّها كذّبت عليّ مراراً، أعني كذباً عادياً، فلم يكُن ذلك غير عادة نِسائية ليس إلّا. المرأة لا تقولُ لك بوضوح أنّها كانت لمدّة ساعتين في محل بيع القبعات النسائية، وكلّما أرّقتها أكثر، تخترعُ لك قصة، مثل أنّها كانت عند طبيب الاسنان، أو أنها في المقبرة لزيارة قبر أمّها. أقول لك يا توني: إن الرجل الغيور، عادة ما يكون أسوأ من كلب مَسعور. كلّما كنت أطرح أسئلتي المفاجئة الماكرة أكثر، ازدادت حيرتي. كل كلمة منها، كل مراوغة، كنت أقلّبها وأفسرها عشرات المرات، لكنني لم أجد غير أنصاف الحقائق العادية المقصودة، وأنصاف الكذبات التي لا تَتأثر بها العلاقة الإنسانية العادية، أو الزوجية العاديّة على الأخص. ألستَ معي في ذلك؟ أنا أعرف كيف كانت حالتي، لكنني كلما استعرضتُ ما كانت تخلّفه أسئلتي من مُعاناة للمسكينة مارتيتشكا، شعرتُ، يا رجل.. برَغبة في صفعِ نفسي.

لقد ذهبت مارتيتشكا هذا العام إلى مصحات فرانتيشك، وما أدراك بتلك الأمور النسائية! لقد بدَت بحالة سيئة، وبالطبع عملتُ على مراقبتها، ودفعتُ من أجل ذلك مبلغاً لرجل خَسيس كان يُمضي جلّ وقته في الحانات. أمرٌ غريب! كيف تفسد حياتك كلها، عندما تكون لديك قضية واحدة وحيدة على غيرِ ما يُرام. إنك تتسخُ بالكامل إن كانت عليك قطرة دمٍ واحدة. كتبتَ مارتيتشكا لي- كيف أقول- كانت غير واثقة، مُهتابة كأنها لا تدري ما الذي يجب أن تكتبه. من جهتي طبعاً، شككتُ بما كتبت، وقرأت ما بين السطور. وذات مرّة، تلقيت منها رسالة عليها عنوان: فرانتيشك ماتيس، قاضي التحقيق.. إلخ لكن عندما فتحتها وسحبت الورقة المكتوبة من داخلها، قرأت: عزيزي آرتور!

لقد تراخت يداي. ها قد اتّضح الأمر أخيراً. يحدثُ ذلك أحياناً، يكتب

Twitter: @ketab_n

الإنسان أكثر من رسالة، يضع إحداها خطأً في ظرفٍ يحمل عنوان شخص آخر. هكذا إذن يا مارتيتشكا.. إنّها لصدفة بلهاء.. أليس كذلك؟ ويا عزيزي توني.. حالتي وصلت إلى درجة أن أشفق عليها لأنها سَلّمت نفسها بين يديّ.

إيّاكَ أن تذهب بعيداً يا توني، فأوّل ما خطر لي هو ألّا أقرأ تلك الرسالة الموجّهة لهذا.. آرتور هذا، وأن أعيدها إلى مارتيتشكا، وكنت سأفعلُ ذلك، لكن الغيرة، شعور.. شعور قذر وتَخَنْزُرٌ. ويا صديقي... لقد قرأتُ تلك الرسالة، وسأريها لك، فأنا أحملها معي. هاك. استمع لما جاء فيها:

(*)

عزيزي آرتو

لا تغضَب لأني لم أجبكَ حتى الآن. كانت لديّ متاعب لأنّ فرانتسي (أنا المقصود. تدركُ ذلك؟) لم يكتب لي منذ مدّة طويلة، وأنا أعرفُ أنه مَشغول جداً بعمله، لكن عندما تظل المرأة لفترةٍ طويلة دون أخبار عن زوجها، فإنها تسيرُ كجسم بلا روح، لكنّك يا آرتور لن تستوعبَ ذلك. سيحضر فرانتسي إلى هُنا الشهر القادم، وبإمكانك أنت الحضور إلى هُنا أيضاً. كتب لي أنّه يُمسِكُ الآن بقضية مثيرة جداً، لكنه لم يذكر عنها شيئاً. أعتقد أنّها جَريمة قتل هوغون ميلر تلك، وهي ما أتشوّق لمعرفة ظُروفها. أشعرُ بالأسف لأن فرانتسي قد ابتعدَ عنك قليلاً، لكن السبب بالتأكيد هو انشغاله الدائم. لو بقيَت الأمور كما كانت عليه في الماضي، لأمكنكَ اجتذابه إلى الناس، أو الذهاب معه في نزهة بالسيارة. كنت جيداً معنا دائماً يا آرتو، ولابُدّ أنّك لن تَنسى ذلك الآن. رُبّما لا يكون الأمر كما يجب

*) .هذا الفراغ مقصود من قبل الكاتب في النص الأصلي.م.

Twitter: @ketab_n

عليه أن يكون، لكن فرانتسي غدا عَصبياً وغريباً إلى حدٍّ لم أعرفهُ من قبل. من جهتك، لم تقُم حتى بالكتابة لي عن أحوال فتاتِك. فرانتسي يَشكو من حرارة الطقس المُرتفعة في براغ، ومن المُفترض أن يأتيَ هُنا لتغيير الجو. إنّهُ بالتأكيد يتأخرُ في مكتبه حتّى الليل. متى ستُسافرون إلى البحر؟ آملُ أنك ستأخذ فتاتكَ معك. إنكم لا تدركونَ مَعنى أن ينتاب النساء الشوق. تحيات قلبية لك يا آرتور.(*)

المُخلِصة مارتا ماتيسوفا.

ماذا تقولُ في ذلك يا توني؟ أعرفُ أنها ليست رسالة بليغة، بل هي بشكلٍ عام أداء ضَعيف من جهة الأسلوب والإثارة. لكن، انظر يا رجل إلى أيّ مدى تلقي الضوء على مارتيتشكا وعلى علاقتها بهذا المسكين آرتور! ما كنتُ لأصدقها بأيّ حال، لو أنها أخبرتني بما تريده، لكن بين يديّ الآن شيء تلقائي وخارج عن إرادتها إلى حدّ.. ها، إنك ترى كيف أن الحقيقة، الحقيقة المؤكدة، والتي لا تخيب، تبزغ بشكلٍ تلقائي. لديّ رغبة في البكاء سعادة وفي آنٍ واحد خجلاً، من الغيرة التي مَلأت قلبي وبكل تلك البلاهة.

تَسألني، ما الذي فعلته بعد ذلك؟ طويتُ ملف واقعة قتل هوغون ميلر حالاً. أقفلتُ الدرج عليه، وبعدَ يومٍ واحد كنتُ في مصحات فرانتيشك. عندما رَأتني مارتيتشكا احمرّ وجهها وزقزقَت كالأطفال. بدَت كما لو أنّها قد اقترفَت أمراً فظيعاً. أنا.. لا شَيء. مارتيتشكا قالَت بعد برهة: فرانتسي، هل استلمتَ رسالتي؟

أي رسالة؟ أستغربُ، فأنتِ، ويا للشيطان، قليلاً ما تكتبين لي.

بدأت مارتيتشكا تنظر إليّ بارتباكٍ ثم تتنفس كأنما سَرت راحة في بدنها. رُبّما أكون نسيتُ إرسالها لك، قالت ذلك وهي تُفتّش حقيبتها، إلى أن اصطادَت ورقة مَطوية قليلاً. بدايتها: عزيزي فرانتسي! اضطررتُ في داخلي للضحك. على الأغلب أنّ السيد آرتور قد أعادَ لها ما لا يخصه.

---

*) في النص الأصلي وردت هذه الرسالة باللون الأحمر.م.

Twitter: @ketab_n

لم نأتِ على الموضوع بعد ذلك، ولا حتى بكلمة واحدة. بدأتُ أحدّثها، طبعاً، عن جَريمة هوغون ميلر التي حازت اهتمامها. أعتقدُ أنها مازالت إلى اليوم تؤمن بأني لم أستلم تلك الرسالة مطلقاً.

على أي حال، هذا هو كلّ شيء. مُنذ ذلك الوقت، يسود عندنا على الأقل، الهدوء. قُل! ألم أكن غَبياً إذ أصبتُ بالغيرة ببلاهة؟ تعرفُ أني أحاولُ الآن تَعويض مارتيتشكا عن ذلك.

أدركتُ من تلك الرسالة مِقدار اهتمام هذه المسكينة بي. وهكذا، انتهى الموضوع الآن. إنّ الإنسان يخجلُ لبلاهتهِ أكثر ممّا يفعل لأخطائه.

الآن، أصبحَ لديك مِثال كلاسيكي على قوة الدليل التي تتضمنّها مثل هذه الصدفة الخالصة والتلقائية، أم لا؟

في الفترة نفسها على وجه التقريب، قال الرجل الفتيّ، المُسمّى هنا آرتور، للسيدة مارتيتشكا: "ماذا أيتها الصبيّة هل ساعَدَت الـ..... في ذلك؟"

"ماذا تقول يا حبيبي؟"

"تلك الرسالة التي أرسلتِها لهُ، كما لو أنّ الأمر هَفوة".

"ساعدَتْ"، قالت السيدة مارتا وفكّرتْ: "أتعلم أيّها الشاب، إني أشعرُ حدّ الخجل لكون فرانتسي أصبحَ يثق بي الآن إلى هذه الدرجة. كم أصبحَ لطيفاً معي مُنذ ذلك الوقت.. إنّهُ يحمل تلك الرسالة إلى جانبِ قلبه باستمرار"، ثم أخذَت السيدة مارتا ترتجف: "إنّهُ لأمرٌ فظيع حقاً لأني.. أخذله بهذا الشكل. ألا تعتقدُ ذلك؟"

غير أنّ السيد آرتور لم يعتقد ذلك؛ لكنّه على الأقل زعم أنها لا تخذله قطعاً.

Twitter: @ketab_n

المُستبصِر

قال السيّد يانوفيتش بلهجة الواعظ: «أتعلم أيّها السيّد المُدّعي العام أنّه ما مِن أحدٍ بإمكانه استغفالي هكذا بسهُولة، إذ ليس عبثاً أني يهودي، أم لا؟ لكن ما يفعله هذا الرجل يَتخطّى قُدراتي الذهنية. المسألة هُنا لا تتعلق كما قد يخطرُ على البال بتحليل الخط ، إنّها.. أنا نفسي لا أدري بماذا تتعلّق. تصوّر! أنتَ تقدّم له رسالة مكتوبة وموضوعة داخل مُغلّف لم يلصق بعد، وهو يصفُ لك بعد وقت قصير شَخصيّة كاتبها دون أن يرى ما هو مكتوب فيها. يصِفُها بتلك الـ...، ماعلينا! سترمش عيناك تعجّباً. كل ما يفعله أنه يُدخِلُ أصابعه في المُغلّف ويتلمّسُ بها الكتابة، بينما يَرُمُّ شفتيه هكذا...، وكأنّ شيئاً ما يؤلمه. الخلاصة أنّه يهتدي إلى تشخيص كاتب الرسالة بدقّة مُتناهية. لقد وضعتُ في مغلّفٍ رسالة كتبها العجوز فاينبرغ، فعرف كلّ شيء عنه. عرف حتى أنّه مُصاب بداء السكّري، وأنّه سيعلن إفلاسه. ماذا تقول في هذا الأمر؟»

«لاشيء»، قال السيّد المدّعي العام بجفاء: «رُبّما أنّه يعرف العجوز فاينبرغ».

انزعجَ السيّد يانوفيتش، وقال: «ولكن، إنّه حتى لم يرَ الكتابة، ويقول بأنّ لكل كتابة رنينها الخاص، ويدّعي أنّه يمكن الحدس به بدقة. يقول بأنّ الأمر يتعلّق بمعجزة فيزيائيّة مَحضة، كما الراديو مثلاً. إنّه ليس نصّاباً أيّها السيّد المُدّعي العام، فهذا الأمير كارادغ لا يأخذُ أجراً. إنّه من عائلة عريقة من باكو كما أبلغني بذلك رجل روسي. لكن، ما الذي في وسعي إضافته؟ تعال لترى الأمر بنفسك. سيكون عندنا هذا المساء. يجب أن تأتي».

Twitter: @ketab_n

عقّب السيّد المُدّعي العام: «اسمع يا سيّد يانوفيتش.. كلّ ما تقوله جميل، لكنّ ثقتي بالأجانب لاتتعدى الخمسين بالمئة، خاصّة عندما لا أعرف كيف يؤمّنون معيشتهم. أثق بالروس بنسبة أقل. أمّا بهؤلاء الدراويش، فأقلّ ما يمكن. لكن إذا كان فوق كلّ ذلك أميراً، فإنني لا أثق به إطلاقاً. أين، كما تقول، تعلّم ذلك؟ ها.. هه.. في بلاد الفُرس. دَعني وشأني يا سيّد يانوفيتش، فكلّ الشرق دجّال».

دافع السيّد يانوفيتش قائلاً: «لكن، ياحضرة المُدّعي العام الحكومي، إنّ هذا الشاب يستبصرُ بشكل علمي عُموماً؛ لاسحر، لا قِوى خفيّة، بل أقول لك بأنّها طريقة علميّة دقيقة».

«ما ذكرته يؤكّد أكثر أنّها مسألة دجل»، قال المُدّعي العام الحكومي بلهجة تأنيبٍ: «إني أستغربُ منك هذا يا سيّد يانوفيتش، لقد قضيتَ عمركَ بدون طرقٍ علميّة، والآن أراك تلهث وراءها. اسمعني، لو كان في الأمر ما يستحق الاهتمام، لظَهَرَ منذ وقتٍ طويل.. أم لا؟»

«حسناً»، قيّم السيّد يانوفيتش ما سمِعَه غير واثقٍ: «لكنني رأيت بعيني كيف أصاب في وصف حالة العجوز فاينبرغ! لقد كان وصفاً رائعاً. أتدري أيّها السيّد المدّعي العام.. تعال لتتحقق بنفسِك. ستتحقّق ما إذا كان دجّالاً؛ خاصّة وأنّك خبير يا سيّدي، ما من أحدٍ بإمكانه خداعكَ أيّها السيّد المدّعي العام».

«بصعوبةٍ على ما أعتقد»، قال السيّد المدّعي العام بتواضع: «سأحضر يا سيّد يانوفيتش.. لكن! لأُراقب أصابع أُعجوبتك هذا. من العار أن يكون عندنا أشخاص يمنحون ثقتهم بمثل هذه الخفّة. إيّاك أن تُخبرهُ من أكون. مهلك! سأعطيه رسالة داخل مُغلّفٍ، وسيكون الأمر على ما يُرام. في وسعك المراهنة على أني سأكتشفُ الدّجل».

يجبُ أن تعلموا أنّ السيّد المدعي العام- وبدقّة أكبر، يُقال له السيّد النائب العام الرسمي الدكتور كلابكا- سيقدّم ادّعاءه في أوّل جلسة لهيئة

Twitter: @ketab_n

المُحلّفين، وهو يخصّ قضيّة هوغو ميلر، المتّهم بالقتل العَمدْ، وهو مليونير ويملك مصنعاً. لقد أتُّهم بأنّه أمّن على حياة شقيقه الأصغر أوتا، ثمّ أغرقهُ في بُحيرة دوكسان. وزيادة على ذلك، كان موضع شبهة في قضية مقتلِ عشيقته، لكن إثبات ذلك لم يكن مُمكناً. باختصار، كانت من أكبر القضايا المطروحة أمام المحاكم، ولهذا رغب السيّد المُدّعي العام بالاستعداد لها كما يجب. انكبّ على دراسة الملفات بكل عزيمته وفطنته اللتين منحتاه سمعة مُدّعٍ عام يُثير الرهبة والفزع. ولأنّ القضية لم تكن واضحة، فقد كان على استعدادٍ لإعطاء أيّ شيء مقابل دليل مباشر واحد. لكنّ مَجرى الأمور اضطرّه إلى الاعتماد أكثر فأكثر على موهبته في الكلام، ليتمكن من إقناع هيئة المُحلّفين بجرّ السيّد ميلر إلى حبلِ المشنقة، وأصبحت المسألة لدى المُدّعي العام مسألة شرف.

في ذلك المساء، كان السيّد يانوفيتش مُتأرّقاً بعض الشيء، قال بصوت خافت: «إنّه الأمير كاراداغ، وهذا هو السيّد الدكتور كلابكا. إذن، يمكن البدء، أليس كذلك؟»

رَمَقَ المدّعي العام ذاك الحيوان الإستوائي بنظرات فاحصة. لقد بدا فتياً ونحيلاً وبنظّارةٍ على عينيه، له وجهُ راهبٍ من التيبت ويدا لصٍ ناعمتان. إنّه محتال.. هذا ما استقرّ عليه رأيُ السيّد المُدّعي العام.

هَذَرَ السيّد يانوفيتش بسرعة: «ياسيّد كاراداغ.. يوجدُ هنا إلى جانب الطاولة الصغيرة ماء معدني. أضِيء من فضلك ذلك المصباح المُنتصب على الساق. أمّا الثُريّا، فنطفئها لئلا تزعجنا. وهكذا، أيّها السادة، حافِظوا على الهدوء رجاءً. السيّد.. إه.. هذا هو السيّد كلابكا، وقد أحضر مَخطوطة. لو تكرّم السيّد كاراداغ و..»

سَعَلَ السيّد المُدّعي العام بعدَ بُرهة، جلسَ بحيث يرى المُستبصر على أفضل ما يُمكنه، ثُمّ أخرج من جيبه الصدري مُغلّفاً مفتوحاً، وقال: «تفضّل».

Twitter: @ketab_n

«شكراً»، قال المُستبصر بصوتٍ واهنٍ. أمسكَ بالمغلّف، قلّبه بأصابعه وهو يُغمض عينيه. فجأة أصابه دُوار، فمادَ برأسه: «إنّهُ لأمرٌ غريب»، لغطَ بكلمات ما، ثمّ شرب جرعة ماء، وما أن أدخلَ أصابعه الرقيقة في المُغلّف حتى انصعقَ وبدا وجهه المُصفرّ أكثر شُحوباً.

سادَ في الغرفة صمت، بحيث كانت تُسمع خرخرة السيّد يانوفيتش؛ للعلم، السيّد يانوفيتش مصابٌ بمرض الغدّة الدرقية.

كانت شفتا الأمير الرقيقتان ترتجفان وتتماوجان، كأنّما أصابعه تكتوي بحديدٍ حامٍ، وعلى جبينه يتصبّب العرق. «لا يُمكنني تحمّل ذلك»، قال بصوت يشبهُ فحيح الأفعى وسحب أصابعه من المغلّف. مَسحها بمحرمة ومرّرها على طرف غطاء الطاولة، كما لو أنه يشذّب موسى. ثمّ رشف الماء مرّة أخرى بتوتر، وبحذر تناول المغلّف بأصابعه.

بدأ الكلام بجفاءٍ: «الإنسان الذي كتبها.. الإنسان الذي كتبها.. توجدُ هُنا قوّة هائلة، لكنّها.. (على مايبدو كان يبحثُ عن كلمة مناسبة) قوّة مُتحفّزة، وهذا التحفُّز فظيع». صاح وأسقط المغلّف على الطاولة: «حَمداً أنّ هذا الإنسان ليس عدوّي!»

«لماذا؟» لم يُطِق المدّعي العام الانتظار: «هل اقترفَ شيئاً ما؟»

أجابَ المستبصر: «لا تسألني. كلّ سؤالٍ يخلقُ توجهاً. كلّ ما أعرفه أنّ بإمكانه اقتراف أيّ عمل.. الأعمال الكبيرة والفظيعة. هُنا توجد إرادة صلبة.. لإحراز النجاح.. وللحصول على المال.. هذا الإنسانُ ليس مَعنياً بحياة أخٍ له في الإنسانيّة. لا، إنّه ليس مُجرماً عادياً، النمر ليس مُجرماً أيضاً. النمر سيّد عظيم. هذا الإنسانُ لا يقوى على القيام بأيّ عَمل قذر، لكنه يعتقدُ أنّه إنّما يسيطرُ على حياة الناس. عندما يقومُ بالاصطياد، يرى في الناس مُجرّد فريسة. بعد ذلك يقتلها».

قطّب المدّعي العام حاجبيه موافقاً بحذرٍ: «طبعاً خارج الخير والشر».

Twitter: @ketab_n

أجاب الأمير كاراداغ: «هذه كلمات ليس إلّا. ما من شيء خارج الخير والشر. هذا الإنسانُ يمتلك قيماً أخلاقية دقيقة. إنّهُ ليس مَديناً لأحد؛ لايسرق، لايكذب وإن قَتَلَ فهو كأنّما يقوم بحركة كش الملك في لعبة الشطرنج. إنّها لعبته، لكنّه يلعب بصوابٍ»، جعّد المستبصر جبهته بقوّة: «لا أعرف ما هذا. أرى بُركة واسعة فيها قوارب ذات مُحرّك».

«وبعد، ماذا؟» همهم المدّعي العام وهو يتنفّس بصعوبة.

«بعد! لا يمكن رؤية شيء. الصورة غائمة عموماً. غائمة على نحوٍ غريب، خاصة فيما يتعلّق بأمر تلك الإرادة الطاغية واللامبالية لاقتناص الفريسة. لكن، لا توجد هُنا أيّ عاطفة، إنّما عقلٌ فقط. لديه توجّه عقلاني صَرف تجاه كلّ صغيرة، كما لو أنّه يؤدي واجباً ما أو يحلّ مشكلة تقنية. لا.. هذا الإنسانُ لا يحسب حساباً لأيّ شيء. إنّه واثق من نفسه ويرى فيها خطراً على ذاته، لكنّه لا يرى أنّ عليه الخوف من ضميره. لديّ انطباع أنّه إنسان ينظر إلى كلّ المسائل من الأعلى. إنّه مغرور جداً ويُطري نفسه بإسرافٍ ويُسعده أنّ الناس تخشاه». رشف المستبصر الماء وأكمل: «حتى أنّه مهرّجٌ، وفي جوهره لا يهتم إلّا بمصلحته. يُظهر وضعيّته الخاصّة، ويرغب بإفزاع العالم بأفعاله. يكفي هذا الآن. إني مُتعب جداً.. إني أبغضه».

قال السيد المدّعي العام: «اسمع يا يانوفيتش، إنّ مُستبصرك هذا لرجل فظيع. ما قد قاله يمُثّل صورة متكاملة؛ رجلٌ قويٌ يتجاهلُ الآخرين ويرى في الناس مجرد فريسة، يلعبُ دوره بإتقانٍ، إنّه دماغ يحضّر عمله بعقلانية صَرفة ولا يحسب حِساباً لأيّ شيء وفي أيّ وقت، مُهذّب ومهرّج في آنٍ واحد. ويا سيّد يانوفيتش.. إنّ كاراداغ هذا قد أصاب بنسبة مئة بالمئة».

«ها إنّك ترى»، أجابه السيّد يانوفيتش بإطراء المتُملّق: «ألم أقل لك؟ أكانت تلك رسالة من السيّد شلايفن الليبرتسي؟»

«ما الذي تقوله يا سيّد يانوفيتش»، هتف السيّد المدّعي العام: «إنّها رسالة من قاتلٍ».

Twitter: @ketab_n

«ياه.. ياه»، استغرب السيّد يانوفيتش: «أمّا أنا، فقد اعتقدتُ أنّها من تاجر القماش شلايفن. أتعلم، إنّه محتال كبير شلايفن هذا».

«لا.. لقد كانت رسالة من هوغو ميلر قاتل أخيه. ألم تنتبه كيف تكلّم هذا المستبصر عن القارب في البركة الواسعة؟ من هذا القارب ألقى ميلر بشقيقه إلى الماء».

«أي نعم.. أي نعم»، انتعش السيّد يانوفيتش: «أترى كيف! إنّه مَوهبة عظيمة أيّها السيّد المدّعي العام».

«بلاشك»، أعلن السيّد المدّعي العام: «رأيتَ كيف ألمّ بشخصية ميلر هذا وبدوافع أعماله. إنّه.. ياسيّد يانوفيتش.. إنّه معجزة. حتى أنا ما كنتُ لأستطيعَ إدراك شخصية ميلر بهذا الشمول. أمّا هذا المستبصر، فأدرك ذلك بمجرّد لمسه بضعة سطور من كتابة ميلر.. إنّ في هذا الأمر شَيئاً ما، لابُدّ وأنّ هناك قُدرة ما خارقة في الكتابة الإنسانية أو ما لستُ أدريه».

عقّب السيد يانوفيتش مُبتهجاً: «ألم أقل لك؟ لو سمحت أيّها السيّد المدّعي العام، فأنا لم أرَ لحد الآن كتابة قاتل».

أجابه السيّد النائب العام: «بكلّ سُرور»، وأخرج من جيبه ذاك المغلّف. «إنّها بالمناسبة رسالة مثيرة»، أضاف وهو يخرج الورقة من المغلّف، وفجأة تغيّر لون وجهه وراح يقول: «لأنّه.. يا سيّد يانوفيتش»، تحدّث وقد بدا غير واثقٍ: «هذه الرسالة تخص مَلفات المحكمة، وطبعاً.. لا يُمكنني أن أُريك إيّاها. أرجو أن تتفهمني».

بعد مُضي وقت قليل، عاد السيّد المدّعي العام إلى البيت دون أن ينتبهَ حتى للمطر المُتهاطِل من السماء. «أنا حمار. قال بحنقٍ، أنا معتوه... كيف أمكن أن يحدث لي هذا ؟ أنا أحمق ! لأني وأنا في تلك العجلة من أمري أسقطتُ في محفظتي مَخطوطة كَتبتُها أنا، بدلاً من أن أضعَ رسالة ميلر فيها. كانت في المخطوطة ملاحظاتي عن الدعوى، أدخلتُها في ذاك

Twitter: @ketab_n

المغلّف! إني أبله! ها.. إذن كانت تلك كتابتي! شُكراً جزيلاً! ما عليك إلّا أن تنتظر. سأكمن لك أيّها المحتال!»

ما عدا ذلك، فإنّ السيّد المدّعي العام أخذ يهدّىء نفسه: «لم يكن كل ما قاله كارداغ على تلك الدرجة من السوء؛ قوّة خارقة، إرادة صلبة. نعم، لستُ قادراً على ارتكاب فعل قذر، لي قِيَمي الأخلاقية الدقيقة.. وكلّها صفات تشبع غرور الإنسان عموماً. وإني لا أحسب حِساباً لأيّ شيء، وفي أيّ وقت؟ حَمداً لله، ليس عندي ما أحسبه؛ أقوم بواجبي ليس إلّا. أمّا عن ذلك الحساب العقلاني، فهوَ صحيح أيضاً لكن! أنا مُهرّج! لقد جانبه الصواب. على كلّ حال، إنّه ليس أكثرَ من دجّال».

فَجأة توقّف، وطَبعاً خاطبَ نفسه: «في الحقيقة، إنّ ما قاله المُستبصر بإمكانه أن ينطبقَ على كلّ شخصٍ ثانٍ! إنّها عُموميات ليس إلّا. كل إنسانٍ إلى حدّ ما مُهرّج ومصلحي. إنّها المراوغة المكشوفة؛ أن تتكلّم بشكل يُتيح لكلّ شخص يُنصتُ لك التعرّفَ على شيء من شخصيته- تلك هي المسألة». قرّر السيّد المدّعي العام وفتح واقيته من المطر، مُسرِعاً نحو بيته بخطواته الحيوية المنتظمة.

«ياإلهي!» تفجّع رئيس المحكمة وهو ينزعُ روبه: «الساعة بلغت السابعة، ومرّة أخرى يمتدّ بنا الوقت في المحكمة طويلاً! فالسيّد المدّعي العام تكلّم لساعتين.. لكنّه ربح القضيّة أيّها الزميل. أن تحصل على حبل المشنقةِ بمثل هذه الأدلّة الضعيفة، هذا ما يُقال عنه نجاح. باختصار، ليس بالإمكان التنبؤ بموقف هَيئة المحلّفين إطلاقاً. لكنّه تكلّم بمهارة»، قال رئيس المحكمة ذلك بينما كان يغسلُ يديه: «الأمرُ الأساسي هو كيف قدّم تشخيصه لميلر هذا، لقد كان صورة مُتكامِلة. أتدري.. إنّها تلك الشخصية اللاإنسانية الرهيبة لهذا القاتل.. ما كان يمكن لأي إنسان إلّا أن ينهزّ بسببها من الأعماق. هذا القاتل ليس بقادرٍ على العمل القذر؛ لا يكذب، لا يسرق. أمّا إن قتلَ إنساناً، فسيفعل ذلك بهدوء، كأنّما هو يميتُ

Twitter: @ketab_n

الشاه في لُعبة الشطرنج. إنّهُ لا يقتل بدافع العاطفة، بل لإعتبارات عقليّة باردة، كأنّما هو يحلّ معضلة أو قضيّة تقنيّة. كل ما قاله كان رائعاً أيّها الزميل. وكذلك عندما قال عنه بأنّه حينما يصطاد يرى في أخيه بالإنسانيّة فريسة ليس إلّا.. ألم تُلاحظ ما قاله عن ذاك النمر، كان في أدائهِ شيء من المسرح، لكنّه أعجبَ المُحلّفين».

تابع السيّد فوتانت، رئيس المحكمة، كلامه: «أو مثلاً كيف قال :هذا القاتل لا يحسب لأيّ شيء حساباً. هو واثق من نفسه إلى درجة أنه يشكل خطراً عليها. إنّه مطمئنٌ بحيث لا يرى سَبباً لتأنيب الضمير».

«أو مثلاً هذا المقطع البسيكيولوجي»، استمرّ رئيس المحكمة في الكلام وهو ينشّف يديه بالمنشفة: «إنّه مهرّج ومتكلّف، يريدُ إرهاب العالم بأفعاله..»

«ومن هو كلابكا»، قال السيّد فوتانت مُعترفاً: «إنّه خصم خطير».

«هوغو ميلر مُذنب باثني عَشر صوتاً»، قال رئيس المحكمة مُتعجّباً: «من كان يتوقّع ذلك! إنّ كلابكا قد اصطادهُ على كلّ حال. الأمر لديه كلعبة الشطرنج أو الصيد. إنّه يغوص بهذا المنوال في كل مُحاكمة.. حمداً لله أيّها الزميل أنّه ليس عدوّي».

تابع السيّد فوتانت: «خوفُ الناس منه يسببُ له سعادة غامرة».

«إنّه معجب بنفسه قليلاً، إنّه فعلاً كذلك»، قال رئيس المحكمة الموقّرة وهو شارد الذهن: «لكن، له إرادة صلبة، خاصة إن تعلّق الأمر بإحراز النجاح. إنّه قوّة هائلة يازميلي، لكن..»

لم تخطُر على بالِ السيّد الرئيس الكلمة المناسبة: «على كلّ حال، فلنتناول العشاء».

Twitter: @ketab_n

أسرارُ الكتابة

صاح رئيس التحرير: "يا روبنير! ستذهبُ هذه الليلة، لرؤية مُحلّل الخط جنسن، فهو سيحاضرُ أمام الصحفيين. يقالُ بأنّ ذلك سيكون حَدثاً مهمّاً، وأنّ جنسن هذا سيؤرخُ لعصرٍ جديد. أُكتُبْ بعد ذلك خمسة عشرَ سطراً عن الموضوع".

"حسناً"، تمتمَ روبنير، بدون حماسٍ وَظيفي، كما يقتضي الأمر.

"لكن عليك الانتباه، فقد يكون من الدجالين!" ألحّ عليه رئيسُ التحرير، "راقِب الوضع باهتمامٍ واحرص ما أمكنَ على القيام بذلك شخصياً، فلهذا بالضبط أُرسلكَ أنت، الإنسان المجرب، إلى هُناك.."

"... إذن، أيها السادة، إليكمُ الأسس العلمية الرئيسية. بتحديدٍ أكبر، يمكن القول بأنّها دراسة الخطّ من الناحية الحركية النفسية"، وأكمل مُحلّل الخط جنسن شرحهُ النظري لممثلي الصحافة في تلك الأمسية قائلاً: "كما ترون، تقوم المنظومة كلها، وبصورة كاملة، على قوانين تجريبية. لكن التطبيق العملي لهذه الطرق المُحكمة معقّد طبعاً لدرجة لا حدود لها، بحيث أني لا أستطيعُ تقديمها بتفصيلٍ أكبر في مُحاضرة واحدة. سأقصّر الأمر عَملياً على تقديم تحليلٍ لمخطوطتين أو ثلاث، وذلك دون أن أشرح لكم على نحوٍ نظريّ طريقة عملي كلّها. إذ ليس لدينا اليوم الفرصة الكافية لذلك. أرجو أن يُعطني أحد السّادة الحضور أيّ مَخطوط".

روبنير الذي كان ينتظرُ ذلك، أعطى جنسن العظيم ورقة مَخطوطة، والذي بدوره وضعَ نظارته الشيطانية على عينيه ونظر إلى الكتابة مُتفحّصاً.

Twitter: @ketab_n

"ها.. آ.. هه.. يَدٌ نسائية!" قالها بسخرية، "كتابةُ الرجال عادةً ما تكون أبرز وأكثر إثارة للاهتمام، لكن أخيراً.."، دمدمَ بكلامٍ ما، تأمّلَ عبر نظّارته تلك الورقة المكتوبة بتركيزٍ شديد وردّد للحظات: "هَم.. هَم"، هزّ برأسه ثم ساد صمت عميق.

سأل مُحلّل الخط فجأة: "أليسَت من.. من شخصية تربطكَ بها صلةُ قرابة؟"

"كلاّ.. ما الذي تقوله!؟" سارع روبنير بالاحتجاج.

"هذا أفضل"، قال جنس العظيم، "اسمعوا!.. هذه المرأة تكذب! هذا هو أول انطباعٍ تتركه هذه الرسالة. كذب.. كذب بحكم العادة. كذب كتعبيرٍ حياتي. وما عدا ذلك، فإنها شخصية ذات مُستوى مُتدنٍّ جداً. لا يملك رجل مُتعلمٌ الكثير مما قد يتكلم معها بصدده.. إنها شبقة جداً، فهذه الكتابة بالمناسبة، ذات أشكال ثخينة جداً. إنّ هذه المرأة فوضوية لدرجة تثيرُ العجب، أمّا عن مُحيطها، فحدّث ولا حرج.. عن!.. قلتُ لكم في البداية بأنّ أوّل ما تعرفونه عن الإنسان عاداته، لأنّها العلامات الأوّلية، التي تَحكي بآلية مُباشرة الكثير، وبوضوح. التحليل النفسي الشخصي يبدأ أوّل ما يبدأ بالخصائص التي ينفيها أو يقمعها الشخص المعني، لأنه إن لم يفعل ذلك يكون كمن يُسلّم قدره لمحيطه"، وضع جنسن أصبعه على أرنبة أنفه، "أعتقدُ أنّ هذه الشخصية لن تعترفَ بما تفكّر به لأيّ كان. إنّها سطحية لكن بمَعنى مُزدوج، سطحية في التعبير عن نفسها ولها اهتمامات تافهة، لكنها بهذا كلّه تخفي حقيقة ما تفكّر به. وهذه الأنا المَخفية عادة ما تكون بدورها تافهةً جداً، بل في وسعي القول بأنّها نقيصة مَردّها خمولٌ روحي. انظروا مثلاً.. هذا الخط شهواني إلى درجة تثيرُ الامتعاض- إنّه علامة على الإسراف أيضاً- مع أنه حَذِر بابتذال. هذه الشخصية تُفضّل على نحو قويّ راحتها على أن تبحثَ عن مُغامرة ممتِعة. وطبعاً، عندما تتاحُ لها فرصة- لكن هذا ليس شأننا- تغدو شخصية مُرتاحة بصورة غير

Twitter: @ketab_n

اعتيادية ومُفرطة في الكلام. وعندما تفعل شيئاً، تظل تتحدث عنه نصف نهار لدرجةٍ تبعثُ على الضجر.. إنها تتناولُ ذاتها بإفراط، ومن الواضح أنّها لاتحب أحداً. من أجل راحتها ليس إلّا، تتعلّق بشخصٍ ما وبقوة لكي تقنعهُ بأنّها تحبه، والله وحده يعلم مدى اهتمامها به.

إنّها واحدة من تلك النساء التي يبدو كلّ رجل ضعيفاً أمامها. إنّه ببساطةٍ يصبح ضعيفاً نتيجة الملل والثرثرة التي لا نهاية لها وتلك السمنة المُذلّة.. لاحظوا كيف خطّت بداية الكلمات، وبالأخص الجمل. إن فيها شيئاً من التضخيم والرخاوة، هذه الشخصية ترغب بأن تأمر وهي تفعل وفي ذلك لا تكمن حيوية ما، بل شيء من الأهمية المنتحلة وكلام كثير. وقد تلجأ أحياناً إلى أكثر أشكال التعسّف دناءة: تعسّف الدموع. إنه لأمر غريب، فبعد كل هَرج تقوم به، نلاحظ عندها هبوطاً ملحوظاً، ويا للعجب! ضعيف المعنى. شيء ما يكبح هذه الشخصية- إنها باستمرار تخشى شيئاً ما- وعلى الأغلب تخشى أن يطفو على السطح شيء ما مُقلق جداً ومَخفيّ بإحكام، يُهدد راحتها الجسدية. هم.. ه.. م لستُ أدري، رُبمّا يكون شيئاً من الماضي. بعد هذا الهبوط فقط، تبدأ باسترداد قواها، أو على الأصح استعادة روتينها الحياتي، من أجل تسجيل كلمتها بابتذال؛ وهذا الذيل المعجب بنفسه والملتوي في النهاية يوضح الأمر طبعاً. بعدها تزداد ثقتها بنفسها مرّة أخرى. تجدون في هذا التحليل ذلك الانطباع الأوّلي عن الكذب، وفيه تلاحظون أيضاً أيها السادة، كيف أنّ التحليل التفصيليّ يجبُ أن يؤكد في النهاية الانطباع العام، والذي هو حدسي عُموماً. هذا التوافق في النهاية أدعوه برهنة منهجيّة- تحدّثتُ عن المستوى المُتدني لصاحبة الخط- إنّه ليس وليد البدائيّة، بل التنافر. هذا الخط يتظاهر، يدّعي جمالاً أكثر مما هو عليه في الواقع، لكنه إنمّا يفعلُ ذلك في التوافِه. هذه الشخصية تحرصُ على دقة ما في الصغائر، تضعُ النقاط بعناية على حرف i ، أمّا المسائل الكبيرة فلا توليها الاهتمام المناسب، وهي تفتقدُ النظام وبلا قيم؛ ببساطة، إنها فوضوية. إشارات الحركة والتنقيط هي

Twitter: @ketab_n

أكثر ما يثير الارتباك، فبينما يميل الخط بشكل عاديّ نحو اليمين، نرى أنّ للإشارات اتجاهاً آخر، وهذا يخلّف انطباعاً غريباً يشبه طعنة خنجر في الظهر، وفيه شيء من الجُبن والمكر. بإمكاني على نحوٍ تصويري القول بأن هذه الشخصية تستطيعُ طعن الإنسان من الخلف- لكنها من أجل راحتها، أو لضعفٍ في خيالها- لا تفعل. أعتقدُ أن ما قد أسلفته يكفي. هل لدى أيّ منكم مخطوطة أكثر إثارة؟"

في ذلك المساء، عاد روبنير إلى البيت وقد اكفهرّت الدنيا بوجهه.

بادرتهُ زوجته السيدة روبنيروفا بالقول: "ها قد عُدتَ كما أرى! هل تناولت العشاء في مكان ما؟"

نظر روبنير إليها بمشاعر من كان موضع شبهة، وقال: "بدأنا.. مرّة أخرى!؟" ثم كشّر متوعّداً.

رفعَت السيدة روبنيروفا حاجبيها مُستغربة: "أرجوك! ما الذي تقوله!؟ كلّ ما في الأمر أني سألتك إن كنت تريد تناول العشاء؟"

"حسناً، ها أنت ترين"، قال روبنير بجفاء، "إذ لا يمكنكُ الحديث طبعاً عن أيّ شيء سوى التهام الطعام! تلك هي اهتماماتك التافهة. إنّها لأمور مُذلّة هذه الثرثرة الدائمة، السمنة والملل.." زفر روبنير وحرّك يده بخيبة، "أعرفُ ذلك، بهذه الطريقة يجعلون من الرجال شخصيات ضعيفة".

وضعَت السيدة روبنيروفا ما كانت تقوم بخياطتة على ركبتِها، نظرَت إليه بتفحصٍ ونادتهُ باسمه المصغّر مهمومة: "فرانتسي! هل حدث لك مكروه ما؟"

".. آ.. هه"، صاح روبنير بخبث، "أراكِ تهتمين بي، كالعادة، أليس كذلك؟ أرجوك ألّا تعتقدي أنك بذلك تسترضيني. فاضِلَتي! مرّةً، يستعرضُ الإنسان كلّ هذا البهتان، مرّةً يدرك كيف أن شخصاً يتعلق به بقوة لمجردِ شهوة ومن أجل راحته ليس إلّا.. شيء مُقرف!" ثم صرخ، "شيء يستفزّ الإنسان!"

Twitter: @ketab_n

أشاحت السيدة روبنيروقا بوجهها وأرادت قول شيء. لكنها فضّلت زمّ شفتيها، وانهمكت في الخياطة بسرعة، وكان صمت. لكن روبنير سرعان ما خرقه، قائلاً وهو يستعرض المكان بامتعاض: "الحالة هُنا تدعو للأسى.. فوضى وإهمال! الأمور التافهة تستحقُ التمحيص والاهتمام! أمّا القضايا الأهم!؟ ماذا تفعلُ هذه الخرقُ هنا؟"

خرجت السيّدة روبنيروفا عن طورها، وبحنجرة مُتراقصة إلى أعلى وأسفل، قالت: "أرتّق القمصان".

"ترتّقين القمصان؟"، هزأ منها روبنير، "ها إنّك ترين، أنتِ ترتقين القمصان! وعلى العالم كلّه طبعاً أن يعلم بذلك. أهكذا؟ النهار بكامله، لا يجبُ الحديث إلّا عن هذا الموضوع فقط ، ولا يجب إلّا القول أنّ شخصاً ما يصلحُ القمصان! وأن تؤلّف عن ذلك الحكايات وتولى الأهمية! ألهذا تعتقدينَ أنه بإمكانك أن تأمُري؟ آه يا ربّي! لو أنها تكفُّ الآن عن ذلك!"

زفرَت السيدة روبنيروفا مُندهِشة: "فرانتسي! هل فعلتُ لك شيئاً؟"

"وما أدراني؟" قال بلهجةٍ ذات مغزى، "لا أعرفُ ما الذي فعلت، ولا أدري بم تفكرين وما في جعبتك. أنا لا أعرف عنكِ شيئاً. لا شيء على الإطلاق، لأنك تخفينَ ما قد حبستِه في داخلك، حتى ماضيك، أنا لا أعرف عنه شيئاً!"

استشاطت السيدة روبنيروفا غضباً: "اسمح لي! هذا تجاوز لكل الحدود! إن قلت شيئاً آخر.."، لكنها كبحَت نفسها بكل ما أمكنها أن تفعل، "يا رجل!" قالت بحرقة، "ما الذي جرى لك؟"

"آ.. هه"، أعلن روبنير بنغمة ملؤها الانتصار، "ها قد مَثُلَ الموضوع أمامنا! ماذا خشيتِ؟ أن يتضح شيءٌ ما فيقلق راحتك.. ها؟ الأمر واضحٌ لنا: إنّها في غمرة كلّ شروط الراحة هذه، تجدُ، أحياناً، هنا أو هناك، فرصة للقيام بمغامرة.. أليس كذلك؟"

Twitter: @ketab_n

جلست السيدة روبنيروقا مَصعوقة، وقالت وقد سالت دموعها: "يا رجل! إن كان عندك شيء ضدّي، إذن، بحقّ الإله انطق به مباشرة!"

"عموماً لا شيء"، قال ذلك بمفارقة واضحة وبلهجة الواعظ، "معاذ الله ليس لديّ شيء ضدك! ليس مُهماً إن كانت للإنسان زوجة تفتقدُ الاستقامة، وبلا أخلاق، ثرثارة وفوضوية، سوقية الكلام، كسولة ومُسرفة، شهوانية جداً! وفوق كلّ هذا مستوى مُتدنٍّ".

انتفضَت السيدة روبنيروفا وهي تنشجُ، مُلقيةً بما كانت تخيطُه على الأرض:

"كفاك، كفاك".

صاح مهدئاً لها بازدراء: "إنه التعسّف الدنيء، تعسف الدموع هذا".

لكن السيدة روبنيروفا ما عادت تسمعُ شيئاً بسبب بكائها الصارخ والخانق وهي تهرع إلى غرفة نومها.

ضحك روبنير، وبهتسيرية أطلّ برأسه من باب الغرفة، وصاح: "أن تطعن الإنسان من الخلف بخنجر.. هذا ما في وسعك إتقانه، لكن الكسل هو ما يحول دون قيامك بذلك!"

(*)

في المَساء، وبعد أن حدث ما قد حدث، دلف روبنير إلى الحانة التي اعتاد ارتيادها. رحّب به السيد بليتشكا الذي كان يضعُ نظارته على عينيه مُنكباً على قراءة صحيفة: "جئتَ وأنا أقرأ هنا صَحافتكم. بالمناسبة، كيف تجلّى مُحلل الخط جنسن هذا؟ أكان في كلامه شيء أيها السيد المحرّر؟"

---

*) هذا الفراغ مقصود من الكاتب .م.

Twitter: @ketab_n

"ياه.. الكثير"، قال روبنير ثم خاطب صاحب الحانة السيد يانتشيك: "الآن، أعطني قطعة لحم مشوية، ولتكن طريّة"، ثم عاود الكلام مع السيد بليتشكا: "اسمع، إنّه العبقري جنسن هذا. رأيتهُ البارحة، إنه يُحلّل لك الكتابة بأسلوب علمي صرف".

"إذن، فهو دجّال!" عقّب السيد بليتشكا وأردف: "أنا يا سيدي أؤمن بكل شيء عدا العلم. الأمر هُنا يشبه قصة الفيتامينات، إلى ما قبل وجودها كان الإنسان يعرفُ ما الذي يأكله. أمّا الآن، فإنك لا تدري. في قطعة اللحم التي ستأكلها الآن كثير من المواد الحيوية المجهولة"، أكّد السيد بليتشكا آخر كلماته بقرفٍ وخشية.

"هذه مسألة مختلفة"، أعلن روبنير: "يتطلب الأمر مني يا سيد بليتشكا الحديث مُطولاً عن معاني 'الحركية النفسية' و'التلقائية'، عن الرئيسي والثانوي، عن الإشارات وما شابه من هذه القضايا، لكني أقول لك بأنّ هذا الإنسان يقرأ من الخط كما يقرأ من الكتب، وينجح في الوصول إلى المعنى بسهولة. إنك ترى بنفسك كيف يصفُ لك من هو صاحب الخطّ، ما هو ماضيه، بم يُفكّر، ماذا يخفي، يعني.. كلّ شيء! لقد كنتُ شاهداً على ذلك أيها السيد!"

"دعك من هذا!" همهم السيد بليتشكا مُشككاً.

عاود روبنير الإيضاح: "إذن، سأروي لك حادثة. رجل ما- لن أسميه لك فهو مَعروف جيّداً- أعطى جنسن هذا ورقة كتبتها زوجتُه، وما أن نظر إليها حتى بدأ: هذه المرأة كذابة من رأسها حتى أخمص قدميها، فوضوية، شهوانية جداً سطحية، كسولة، مُسرفة، ثرثارة، تأمر في البيت، لها ماضٍ سيّء، وفوق كل هذا تريد قتلَ زوجها!

تصور أنّ لونَ ذاك الرجل قد شحب شحوب الميت، لأن كلّ ما قد سمعه كان صحيحاً بالحرف، ولعلمك فقد عاش معها بسعادة لمدة عشرين عاماً، لكنه، عموماً، لم يلحَظ شيئاً! عشرون عاماً من الزواج، ولم

Twitter: @ketab_n

يعرف عن هذه المرأة ولا حتى عُشر ما قد اكتشفه جنسن هذا من النظرة الأولى! أهو إنجاز أم لا؟ بالتأكيد أنه سيقنعك أنت أيضاً ياسيّد بليتشكا".

"أستغربُ ذلك"، عقّب السيد بليتشكا: "أستغرب كيف أن هذا الزوج-السطل ، لم يتمكّن طوال عشرين عاماً من معرفة ذلك". لكنّ روبنير سارعَ إلى القول: "أرجوك، بما أنّ تلك المرأة كانت تتظاهرُ بمهارة، وزوجها كان، على العموم، سَعيداً معها، فإن مثل هذا الإنسان السعيد ليس له عُيون. زد على ذلك، أن تلك الطرق العلمية والمُحكمة لم تكُن في متناول يده. إذن، تصبح المسألة كالآتي: إن ما يبدو لك من خلال عيونك العادية أبيضاً، تكون له حسب العلم كلّ الألوان. التجربة لا تعني شيئاً أيها السيد. إنسان اليوم يهتدي بالطرق الدقيقة ليس إلّا. لا تستغرب أنّ الشخص المعني لم يكن يملك أيّ فكرة عن مَدى تفاهة المرأة التي يعيشُ معها. إنه، ببساطة، لم يتعامل معها بطريقة علمية؛ هذا هو لبّ الموضوع".

"والآن، هل اتّجهَ للطلاق منها؟" أقحم صاحب الحانة السيد يانتشيك نفسه في الحديث.

أجابه روبنير بلا اكتراث: "أنا لا أعرف، ولا أهتم بمثل هذه التفاهات. كل ما يهمني هو الإلمام بكيف تعرفُ من الخط ما لا يمكن لأيّ شخص على الإطلاق أن يعرفه. أتركُ الأمر لتقديركم، لنفترض أنكم ولسنوات طويلة تعرفون عن شخص ما أنه جيد ومهذب، وفجأة تنهارُ الصورة أمامكم، إذ تدركون أنه وغد أو لص نقود. يا إلهي.. يجبُ على الإنسان ألّا يُصدّق الآخر من خلال التعابير التي يظهرها، ومثل هذا التحليل فقط، بإمكانه كشف ما يكنّه في داخله!"

"مهلك، مهلك!" استغرب السيد بليتشكا بضيق: "تبعاً لما تقوله، فإن على الإنسان أن يخشى الكتابة لأي كان!"

"بالضبط"، عقّب السيد روبنير: "تصوروا الأهمية التي ستمثلها دراسة

Twitter: @ketab_n

الخط علمياً، فلنقل لرجال البوليس الجنائي، ستخوّلهم، أيها السيد، حبس الإنسان قبل أن يقوم بفعل السرقة. كتابته ستشي به، ستنبئ بأن لهذا الرجل علامات لصوصية ثانوية، وعندها: هيّا لاقتياده إلى سجن بانكراس! إن لهذا العلم مستقبلاً هائلاً، وأقول لكم إنه علم مُكتمل لا يمكن أن تحوم حوله أيّ شكوك"، نظر السيد روبنير إلى ساعته : "ياه! العاشرة، حان وقت ذهابي للبيت".

"ولماذا تعودُ اليوم باكراً"، همهم السيد بليتشكا.

"تعرفون"، قال روبنير برخاوةٍ: "رُبّما ستتذمّر زوجتي من أنني أتركُها وباستمرار وحيدة في الدار".

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

دُوار

بادر السيّد لاتسينا قائلاً: "ثمّة أمرٌ لم يعُد يُقال له ضمير، بل أصبح يُسمّى الآن، التصورات المقموعة. لكن، سيّان إن قلت كلمة صفعة بدلاً من لطمة.

لستُ أدري إن كانَ أحد منكم قد سَمعَ قصّة صاحب المصنع جيركه، الرجل الثري، الوجيه، الضخم والقوي كالعمود. قيل بأنّه أرمل. على كلّ حال، فإنّ أحداً لم يعرف عنه شيئاً غير ذلك، فقد كان شَخصيّة مُنغلقة. عندما تخطّى الأربعين، أحبّ فتاة عمرها سبعة عشر ربيعاً، كانت فاتنة كأنّها دمية صغيرة جميلة، لدرجة أنّ الإنسان يحبسُ أنفاسه عندما يَراها. وأمام هذا الجمال الحقيقي، يُعْتَصَر القلب أسفاً أو رقّة، أو ما لاأدري كيف أصفه! تَزوّج جيركه من هذه الفتاة، لأنه كان جيركه الغنيّ والعظيم.

ذَهبا إلى إيطاليا لقضاءِ شهر العسل، وهُناك حدث الآتي: صعدا في مدينة البندقيّة إلى برج كامبانيلا الشهير، وعندما نَظر جيركه إلى الأسفل- يُقالُ بأنّه منظرٌ جميل جداً- شحب لونه، ومال نحو سيّدته الفتيّة، ثمّ كبا على الأرضية كسنديانة. منذ ذلك الحين، لوحظ أنّه أصبح أكثر انغلاقاً على نفسه. حاول التغلّب على هذه الحالة كي يبدو على مايُرام، كما لو أنّه لا يعاني من أيّ شيء. لكنّ عينيه بَدتا قلقتين ويائستين. أمّا سيّدته الصغيرة، فقد أصيبَت بالخوفِ الشديد طبعاً، فنقلته إلى البيت. كانوا يمتلكون بيتاً جميلاً قرب منطقة مُشجّرة من المدينة. وفي هذا البيت، تفجّرت غرائب جيركه، فأخذ يتنقّلُ باستمرار من نافذة لأخرى، ليتأكّد ما إذا كانت مُحكمة الإغلاق. وكان ما أن يجلس حتّى يقفز من جديد، مُتجهاً

Twitter: @ketab_n

نحو إحدى هذه النوافذ ليغلقها. كان يصحو حتى في الليل، ويُثير الخوف في كلّ أرجاء البيت، يجيب عن كلّ سؤالٍ مُغمغِماً بأنّ دواراً لعيناً قد ركبه وأنّه إنّما يريدُ إغلاق النوافذ حتى لا يقعَ منها. لهذا كلّه، عملت زوجته على تشبيك كلّ النوافذ، لتضعَ حداً لقلقه المستمر، وقد ساعده هذا الأمرلبضعة أيّام، إذ هدأ قليلاً، مع أنّه استمر بالتنقّل بين نافذة وأُخرى، هازّاً شباكها ليتحقق من ثباتها المتين. بعدها عملوا على تركيب إطارات فولاذيّة لتلك النوافذ، وعاشوا خلفها كالمعتوهين الذين يُحتجزون في المصحّات العقلية، ممّا ساعد على تهدئة جيركه نوعاً ما، لكن اتضح مرّة أُخرى أنّ دواراً ينتابه كلّما نزلَ على الدرج، إذ كان يتوجّبُ عليهم إسناده وقيادته، بالضّبط كما يحتاجُ المشلول، وفي الأثناءِ كان يهتزّ كما تهتز الورقة، غارقاً بعرقه، لدرجة أنّه كان يحتاج أحياناً إلى الجلوس وسط الدرج، حيث يأخذه نشيج يتخلله الفواق؛ إلى هذا الحدّ بلغَ خوفه.

كان من الطبيعي أن يبدءوا باستدعاءِ كلّ من هبّ ودب من الأطباء وغيرهم. وكما تجري الأمور في مثل هذه الحالة، قال ممرض بأنّ الدّوار ناتجٌ عن الإجهاد في العمل، بينما قال طبيب بأنه مَرض الذهول، وآخر بأنّ الإمساك هو السبب، ورابع أنّ ضعف التغذية الدموية للدماغ يُسبّب هذا الدوار. وأنا بدوري لاحظتُ أنّه ما أن يصبح شخص ما اختصاصياً بارعاً، حتى يَبدأ في داخله تفاعلٌ ما، نتيجتهُ أنّه يغدو قبل أيّ شيء آخر صاحبَ موقف، بعدها يأخذ بالقول: يازميلي.. انطلاقاً من موقفي، فإنّ هذا المرض هو كذا وكيت، لكنّ اختصاصياً آخر، صاحب موقف أيضاً، يرفضُ هذا التشخيص قائلاً: صحيح أيّها الزميل، لكن تبعاً لموقفي، فإنّ الحقيقة مُعاكسة تماماً لما قد شخّصته. وأنا أعتقد أنّ المواقفَ يجب أن تُعلّق في الردهات كما تُعلّق القبّعة والعكّازة. في كلّ مرّة تمنحون صاحب موقفٍ مُسبقٍ فرصةً، سيُسبّب ضرراً ما، أو على الأقل فإنّه لن يتفق مع الآخرين. لكن، عَودة لصاحبنا جيركه، فقد تناوب على علاجه، كلّ شهر شخص آخر، متخصصّ بارع، وإن بأساليب مُختلفة. كان جيركه رجلاً كالجبل، كابد كلّ ما جرى له، ومع ذلك لم يعُد باستطاعتهِ حتى النهوض

Twitter: @ketab_n

من أريكته، لأنّ دواراً كان يصيبه كلّما نظر إلى الأرض، ولذا غدا يُحدّق في الظلام صَامتاً وبدون حركة، وأحياناً، كانت تنتابهُ قشعريرة عندما يبكي.

في ذلك الوقت، استطاعَ طبيب أعصاب جديد القيام ببعض المُعجزات. إنّه الأستاذ المساعد سبيتز الذي ركّز في طريقتهِ لإشفاء الناس على مُعالجة تلك التصورات المَقموعة. قال بأنّ في داخل كلّ إنسان تقريباً، أنواع شتّى من التصوّرات أو الذكريات أو الرغبات الجامحة التي يقمعها لخشيته منها . إنّها تخلقُ له حالة من الفوضى والإرباك، وأعطال عصبيّة كهذه. وعندما يقوم طبيب ماهر بالتعرّف على تلك التصوّرات المقموعة وإخراجها إلى النور الإلهي، تتحسّن حالة المريض، ثمّ يُشفى تماماً. لكن، يتوجّب أولاً على مثل هذا الطبيب، المحلل النفسي الماهر، كسب ثقة مريضه المطلقة. وكذلك استقصاء كلّ ما هو ممكن عنه؛ بماذا كان يحلم في الليل؟ ما الذي يتذكّره من طفولته؟ وغيرها من المسائل. وفي النهاية، يقول له: ياعزيزي الإنسان.. قبل أعوام، قُمتَ بهذه الفعلة أو تلك-التي عادة ما تكون مُخجلة- وبدورها ضَغَطت عليك في اللاوعي، وهذا ما ندعوه العقدة النفسيّة. أمّا الآن، فقد انفكّت.. جلا.. جلا..راح البلاء.. هوب! أصبحتَ مُعافى. بعبارة أخرى؛ إنّه السحر!

الحق أقول لكم أنّ الطبيب سبيتز هذا، في استحضاره لما في داخل مريضه، قد مارسَ السحر فعلاً. لعلّكم لا تُصدّقون كم من النّاس الأغنياء لديهم تَصوّرات مقموعة، أمّا الفقراء، فهم لا يُعانون منها عادةً. باختصارٍ، كان معظم زبائن الطبيب سبيتز من علية القوم. عندما تناوبت العقول الطبيّة على جيركه هذا، كان من بينهم في ذلك الحين، الأستاذ المساعد سبيتز الذي أفاد بأنّ سبب دوار مريضه إنمّا هو عصبيٍ ليس إلاّ، وهو- أي هوغو سبيتز- يَتعهّد بالقضاء على هذا الدوار. حَسناً، لكنّ صاحبنا جيركه لم يقُل الكثير، فعندما سأله الطبيب سبيتز عمّا رغب بمعرفته، لم يُجبه إلّا بصعوبة وبنصف فمٍ أيضاً، ثمّ لاذَ بالصمت. وفي نهاية المطاف، قام بطرد الطبيب من بيته، ممّا سبب للأخير شعوراً بالإحباط الشديد، لأنّ النجاح

Twitter: @ketab_n

أو الإخفاق في علاج مثل هذا الزبون الوجيه يؤثران على مَكانته، إضافة إلى أنّ حالة جيركه تُعدّ نموذجاً واضحاً للخلل العصبي وللمدى الكبير الذي قد بلغه، وكذلك لأنّ السيّدة إرما، زوجته، جميلة وتعيسة الحظ . لكل ماسبق، تحمّس الطبيب سبيتز للانغماس في حالة مريضه، وتمتم: إمّا أن أكتشفَ التصوّر المقموع داخله، أو أن أتركَ مِهنة الطب وأذهبَ للعمل بائعاً للحرير عند التاجر لوبل.

لهذا بدأ اعتماد طريقة تحليل نفسي جديدة. أوّلاً، أراد التعرّف على خالات جيركه وعمّاته وأبنائهن، على أنسبائه وجميع فروعه العائلية، وعلى كلّ من يمتّ له بصلة قرابة، بعيدة كانت أم قريبة. بعدها عمل على كسب ثقتهم- على مثل هذا الطبيب أن يُتقِن أساساً فنّ الاستماع بصبرٍ- أمّا هؤلاء الأقرباء، فقد شُغفوا بلطفه ونباهته، لكنّه غدا في النهاية صارماً جدّاً، إذ لجأ إلى مكتب تَحرّيات موثوق، والذي بدوره قام بإرسال عنصرين مُتمكنين، في مهمةٍ إلى مَكان ما على الطريق. وعندما عادا، دفع لهما الطبيب أتعابهما، ثمّ اتّجه مُباشرة إلى حيث السيّد جيركه الذي كان يجلسُ على الأريكة وسط نصف ظلام، دون أن يتمكّن من الحركة تقريباً.

قال الطبيب سبيتز: يا سيّد جيركه.. أنا لن أزعجك، ليس من الضروري أن تُجيبني ولا حتى بكلمة واحدة، إذ لن أسألك عن أيّ شيء. كلّ ما يهمني هو مُعالجة السبب الذي يقف وراء دواركَ ليس إلّا. لقد دفنتَهُ في داخلك، لكنّ هذا التصوّر المَقموع من القوّة بحيث أنّه يُسبب لك خللاً عصبياً كبيراً.

"أنا لم أدْعك أيها الطبيب"، قاطعه جيركه بصوت أجش، ورفعَ يده نحو الجرس.

"أعرف ذلك"، أجابه الطبيب سبيتز: "ولكن، انتظر لحظة! عندما انتابكَ الدوار لأوّل مرّة في برج كامبانيلا في مدينة البندقيّة، هل تذكرُ ذلك يا سيّد جيركه؟ ما الذي شعرتَ به حينها؟"

Twitter: @ketab_n

جلس جيركه مُتيبّساً، وأصبعه على الجرس.

استمرّ الطبيب سبيتز في الحديث: "لقد أحسَسْتَ.. أحسست بما هو مُريع. رغبة مجنونة بدفعِ زوجتك الفتية الجميلة من برج الكنيسة ذاك إلى الأسفل، لكن بما أنّك تحبها وبلا حدود، حدثَت لك أزمة، تَفرّغَتْ في داخلك على شكل هرّة نفسيّة، وأصابك الدوار".

ساد المكان صَمت. وحدها تلك اليد الممتدّة نحو الجرس، سقطتَ دفعة واحدة.

أكمل الطبيب سبيتز: "في تلك اللحظة، رسا ذاك الدوار فيك، وكذلك الخوف من الهوّة. حتى ذلك الوقت، كنت تغلقُ النوافذ، ولم تكن تستطيعُ النظر إلى الأمكنة العميقة، لأنّ ذلك التصوّر المُفزِعَ بأنّك ستدفعُ بالسيّدة إرما إلى الأسفل كان يسكنُكَ باستمرار".

تلوّى السيّد جيركه على أريكته بشكلٍ غير طبيعي.

استمرّ الطبيب سبيتز في الحديث: "نعم، لكن السؤال الآن يا سيّدي هو إلامَ استندَ هذا التصوّر المُلحّ! يا سيّد جيركه! كُنتَ متزوجاً قبل ثمانية عشر عاماً، ويا سيّد جيركه! زوجتكَ الأولى ماتت خلال رحلة سياحيّة على جبال الألب، وقعَت أثناء تَسلّقها مُرتفعاً في طَريقها إلى (هوها لاند) وأنتَ ورِثتَها".

كان جيركه يتنفّس بسرعة وحشرجة مسموعة.

صَرخ الطبيب: "يا جيركه! أنت من قَتل زوجتك السابقة! لقد دفعتها إلى الهاوية، ولهذا.. أتسمعُني؟ لهذا تهيّأ لكَ بأنّه يتوجّبُ عليك قتل الثانية، هذه التي تُحبّها، ولهذا تخشى الأماكن المرتفعة، ولهذا تعاني الدوار".

"يا دكتور"، صرخ الجالس على الأريكة: "يادكتور.. ماذا عليّ أن أفعل؟ كيف أتصرّف تجاه هذا الأمر؟"

Twitter: @ketab_n

هبطَ حزن شديد على الأستاذ المساعد سبيتز، وقال: "يا سيّد جيركه، لو كنت شخصاً مؤمناً لنصحتك بمواجهة العقاب، كي يسامحكَ الله. لكننا نحن الأطبّاء مَشكوك بإيماننا عادة. تدبَّر بنفسك ما يجب عليك فعله. لكن، من وجهة نظرٍ طبيّة، لقد تمّ إنقاذك. انهض يا سيّد جيركه!"

نَهض جيركه شاحِباً كالجير.

سأله الطبيب سبيتز: "ماذا؟ هل تشعرُ بدوران في رأسك؟"

تَزاحمت الأفكار في رأس جيركه، وهزّه علامة النفي.

"ها أنت ترى"، تنهّد الطبيب سبيتز بارتياح: "الآن، ستتوالى النتائج الأخرى. التصورات المقموعة كانت سَبب هذا الدوار. أمّا وقد عالجناها، فإنّك ستصبحُ على مايُرام. أفي وسعك النظر من النافذة؟ مُمتاز. كأنّ كلّ شيء قد زال عنك.. أليس كذلك؟ لا أثر للدوار.. ها.. كيف؟ إنّك يا سيّد جيركه تمثّل أجمل حالة صادفتها في يوم من الأيّام". صفّق الطبيب سبيتز بيديه ابتهاجاً: "شُفيتَ تماماً! أبمكاني استدعاءُ السيّدة إرما؟ لا؟ ها.. هه، تُريد مفاجأتها بنفسك، يا إلهي كم ستكون سَعيدة حينما ستَراك وأنت تسير! ها إنّك ترى بنفسكَ كيف يصنع العلم المعجزات".

سيكون سبيتز مَسروراً للغاية إن استمرّ في الكلام، طوال ساعتين، عن هذا النجاح الذي أحرزه، لكنّهُ ارتأى أنّ جيركه يحتاج للهدوء، لهذا كتبَ له وصفة طبيّة من البروم. انحَنى مُحيّياً، وغادر المكان.

| سأرافقك أيّها السيّد الطبيب"، خاطبَهُ جيركه باحترامٍ وسار معه حتى الدرج: "مِن الغريب أنّه لم يعُد للدوار أيّ أثر.. أيّ أثر".

صاح الطبيب سبيتز بحماس: "حَمداً وشكراً، إنّك تشعرُ بالمعاناة، أليس كذلك؟"

"لقد شُفيتُ تماماً"، قالها السيّد جيركه بصوتٍ خافت، ونظر إلى

Twitter: @ketab_n

الأسفل باتجاه الطبيب الهابط على الدرج. وما أن انغلق الباب الخارجي من وراء الطبيب سبيتز، حتى سُمعَ صوت آخر مكتوم. بعدَ فترةٍ قصيرة، وجَدوا جسم جيركه تحت الدرج، كان قد فارق الحياة بعد أن أصيبَ بكسورٍ في مَواضع عدّة من جسمه، نتيجة ارتطامهِ بحاجز الدرج.

عندما أخبروا الطبيب سبيتز بالأمر، صفّرَ ونظرَ أمامه باندهاشٍ، ثمّ أخذ دفترهُ الذي يُسجّلُ فيه حَالة مرضاه، وكتبَ إلى جانب اسم جيركه التاريخ وكلمة واحدة لا غير، suicidium . ولعلمك، يا سيّد تاوسيج، فإنّها تعني انتحار.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

جريمةُ قتلٍ عاديّة

علّق السيد هاناك قائلاً: "كثيراً ما كنتُ أتساءل، لماذا يبدو لنا الظلمُ أسوأ ما يكون ونحن نجهلُ الكثير عن الأمور الشريرة الأخرى التي قد نصادفها.

لو علمنا، مثلاً، أنّ بريئاً واحداً لا غير حُكِم عليه بالسجن، فإنّنا سننزعج ونقلقُ أكثر مما نفعلُ إذا ما تعلّق الأمر بآلافٍ من الناس يُعانون الفاقة والمرض. كنتُ شاهداً على بؤسٍ أستطيعُ القول أنّ أيّ سجنٍ يُعدُّ بحبوحة إذا ما قورِنَ به. ومع ذلك، فإن أشدّ بؤس لا يثيرنا مثلما يفعل الظلم. أعتقد، أن في داخلنا موهبة ما، قضائية، وأن الذنب والبراءة، الحق والعدالة، ما هي إلّا مشاعر متساوية في الأولوية والعمق والفظاعة، مثلها مثل مشاعر الحب والجوع.

أسوقُ لكم هذه الواقعة: شاركتُ في الحرب لمدّة أربع سنوات كأيّ واحد منكم، وبطبيعة الحال، نحن لن نتحدث إلى بعضنا البعض عمّا رأيناه هناك، لكن بإمكانكم أن تؤكدوا لي أنّ الواحد منّا اعتاد على كل ما يمكن تخيله من الأمور، مثلاً: رؤية الموتى، فأنا شاهدتُ مئات ومئات الموتى ممّن هم في عمر الشباب، وأحياناً مَوتى يستدعي النظر إليهم الغثيان، ولكُم أن تصدقوني، وأنا بدوري أعترفُ لكم أني اعتدتُ على الأمر كما لو أنّ الموتى كانوا خِرقاً باليةً، لكن! طالما لم تنبعث منها روائح كريهة. كلّ ما كنت أقوله لنفسي: إن خرجت يا رجل من هذه المعمعة البهيمية حياً وسالماً، فلن يهزّك في حياتك شيءٌ بعد.

انقضى نصف عام تقريباً على الحرب. كنتُ في بيتي في مدينة سلاتينا، وذات صباحٍ طرق أحدهم على نافذتي وصاح: "يا سيد هاناك.. تعال

Twitter: @ketab_n

وانظُر، السيدة توركوفا مقتولة!" للسيدة توركوفا حانوت صغير تبيع فيه الورق والخيطان، ولم يعتن بها طيلة حياتها أحد. من حين لآخر، فقط، كان يأتي أحد ما إلى حانوتها، ليشتري بكرة خيوط أو بطاقة معايدة. وثمة باب زجاجي داخل الحانوت، يؤدي إلى مطبخ صغير حيث كانت تنام. عُلّقت على ذلك الباب ستائر، كانت السيدة توركوفا تنظر من المطبخ عبرها، كلّما رنّ جرس الحانوت، لترى من الذي قد أتى. تمسح يديها بمنشفة وتدخل إلى الدكّان وتبادر إلى القول: "ما الذي ترغب فيه؟" كانت تسأل بتشكك، لدرجة أنّ الإنسان يتملكه شعور بأنه وقد دخل الحانوت، إنّما هو دخيل ليس إلّا، ثم يسعى إلى الخروج بأسرع ما يمكن. كان الأمر يبدو كما لو أنّك ترفعُ حَجراً عن خنفس وحيد وخائف يتحرّكُ تحت ذلك الحجر الرطب، ثم تَرمي الحجر لكي يهدأ روع هذا الخنفس البغيض.

عندما سمعتُ بهذا الخبر الجديد، هرعتُ لأستطلعَ ما حدث. أعتقدُ أن الفضول السوقيّ عموماً، هو الذي دفعني لذلك. تجمّعَ الناس أمام دكان السيدة توركوفا كما يتجمّعُ النحل على فوّهات خلاياه. أمّا أنا، فقد أدخلني الحارس إلى الحانوت لأنه كان يحترمني كإنسان مُتعلم. رنّ جرس الحانوت بهدوء كما في أيّ وقت آخر، لكن هذا الرنين الصافي والحميم، جعلني أتجمّد في تلك اللحظة، خطر لي أنّه لا يليق بهذا المكان. كانت السيدة توركوفا مُتمدّدة على الحافة المؤدية للمطبخ، ووجهها على الأرض وتحتَ رأسها بركة دم تميل إلى السواد، وعلى مؤخرة جمجمتها، اكتسب شعرها الأبيض، وقد تكبّب، لون الدم المشوبِ بالسواد. في تلك اللحظة، فاجأني شعور ما، كنت قد أحسستُ به في الحرب: "الفزع من جثة إنسان".

إنه لأمر غريب، لقد نسيتُ الحرب تقريباً، والبشرية تخطو على هذا الدرب أيضاً وإن ببطء، ممّا سيكون سبباً لاشتعالها يوماً ما من جديد. لكنني لن أنسى ما حييتُ هذه العجوزَ القتيلة التي لم تكن يوماً ذات شأنٍ على الإطلاق. صاحبة الحانوت هذه التي لم تُفلح حتّى في بيع بطاقات المعايدة. الشخص القتيل يختلفُ تماماً عن الشخص المتوفى؛ للأول سرّ

Twitter: @ketab_n

مرعب على نحوٍ ما. وأنا لم أفهم لماذا قُتِلَت السيدة توركوفا بالتحديد، تلك المرأة العادية والشخصية الرماديّة التي لم يهتم بها أحد يوماً. كيف يمكن استيعاب أنها تتمدد هُنا بشكل يثير الشفقة، وأن دركياً يحني رأسه نحوها، وفي الخارج يتدافعُ ذلك الجمع الغفير من الناس ليروا ولو طرفاً منها؟ إني أجرؤ على القول أنّ هذه المرأة المسكينة، لم تحظَ بمثل هذا الاهتمام في أيّ وقت من الأوقات كما تحظى به وهي مُمددة ورأسها متضرج بالدم الأسود. كان الأمر كما لو أنها حازت، دفعة واحدة، كل هذا الاهتمام الخانق والغريب. لم أنتبه طيلة حياتي لا لملبسها ولا لمظهرها، أمّا الآن فأنظرُ إليها كأنما عبر عدسةٍ هائلة، لا حدودَ لقدرتها على التكبير. كانت السيدة توركوفا لا تزال تَرتدي نعلاً في إحدى قَدميها. أمّا فردة النعل الثانية، فكانت مَخلوعة، وقد ظهر جوربها المرتوق في كعب قدمها. تأمّلتُ كل قطبة في الجورب، وبدَت لي جميعها مُفزعة على نحوٍ ما، كأنّما هذا الجورب البائس كان قد قُتِل أيضاً. انغرزَت يدُها على أرضية المكان، وبدت جافة وبلا حولٍ كيَدِ دجاجةٍ، لكن أكثر ما كان مروّعاً، ربطة الشعر الأشيب في مؤخرة جُمجمتها المربوطة بعناية، والتي كانت تلمعُ بين خطوط الدم المُتخثّر كما يلمع صَفيح قديم. شعرتُ أني لم أرَ مطلقاً ما هو أكثر إثارة للأسى من ربطة الشعر النسائية المُتخضبة بالدم هذه. كانت بقعة الدم التي تجمّدت خلف أذنها وفوقها، تلمعُ كحلقة أُذنٍ فضيةٍ ذات حجر أزرق. لم أحتمل المشهد، ارتجفت قدماي وصرخت.. يا إلهي!

الدركي الذي كان يبحثُ في المطبخ عن شيءٍ ما في الأرض، انتصبَت قامته ونظر إليّ. كان وجهه شاحباً، كأنما سيغمى عليه.

قلتُ، وأنا أصكّ أسناني: "يا رجل.. هل شاركتَ في الحرب؟"

أجاب الدركي بصوت أجَشْ: "كنتُ، لكنّ هذا.. هذا أمرٌ آخر"، وفجأة أكمل: "انظُر!" ثم أشار إلى الستائر المعلقة على الباب، كانت مُجعّدة ومُلطّخة بالدم. واضح أن القاتل كان قد مسحَ يديه بها. تنهّدتُ.. يا إلهي لستُ أدري ما هو الأشنع والذي لا يطاق؛ مشهدُ اليد وقد جفّ الدم

Twitter: @ketab_n

عليها، أم تلك الستائر النظيفة التي غدَت ضحية للجريمة؟ وأنا، حقيقة، لا أعرف. في تلك الأثناء، بدأ طير كناري في المطبخ يصرخُ بتغريدة طويلة. اسمعوا! إني لم أحتمل الأمر. دفعَني الفزعُ إلى الهرب من الحانوت. أعتقد أن وجهي قد شَحُب أكثر من وجه الدركي.

بَعدها، جلستُ على مشجب عربة خشبية في بَهو بيتنا، وجهدتُ لأجمع شتات أفكاري. قلتُ مخاطباً نفسي: "أيها الأبله! أيها الجبان! ألم ترَ في حياتك دماً؟ ألم يتناثر دمكَ عليك كما يتناثرُ الوحل على جسم الخنزير؟ ألم تصرُخ على جنودك أن احفروا بسرعةٍ أكبر حفرةً لمئة وثلاثين قتيلاً؟ مئة وثلاثون ميتاً جنباً إلى جنب! إنه عددٌ كاف حتى لو صففْتَهم كما تُصفّ ألواح السقوف الخشبية. لقد سِرتَ بموازاة تلك الصفوف ودخّنتَ السجائر وصرختَ على المجموعة التي هي بإمرتكَ: هيّا، اعملوا، اعملوا، كي نُنهي المهمة بسرعة! ماذا جَرى لك، ألم ترَ الكثير من الموتى.. الكثير.." نعم، هذا صحيح، قلتُ لنفسي، رأيتُ الكثير من الموتى.. لكنني لم أر ميتاً واحداً بمفردِه.. أجثو على جثته، لأتأمل وجهه وألمسَ شعره. صمتُ الميت رهيب. يجبُ عليك أن تكون معهُ وحيداً.. وحتى أن تحبسَ أنفاسك.. لكي تفهمَهُ. كلّ واحد من المئة والثلاثين سيجهدُ ليقول لك: "سيدي الملازم الأوّل، لقد قتلوني، انظُر إلى يديّ، أَوَ ليستا يدي إنسان؟!" لكننا جميعاً لم نُعِر انتباهَنا لهؤلاء الموتى، وذلك عندما توجّب علينا القيام بالحرب. لم نستطع سماعَ من سقطوا في ساحة الوغى. بحق الإله! كان الأولى بالناسِ أن يتزاحموا حول كلّ واحد من هؤلاء، كما يتزاحم النحل على فوهة الخلية- رجالاً ونساءً وأطفالاً- حتى يروا، في ظلّ الرعب، ولو جانباً منه على الأقل، تلك القدم المُثقلة بحذاء ثقيل، ذاكَ الشعر المُلطّخ. لو فعلنا ذلك، رُبمّا ما أمكنَ، ولا توجّب، حدوث ما قد حدث.

لقد شيّعتُ والدتي إلى مثواها الأخير، وكم بدَت مَجيدة وراضية، كم بدَت مُتألقة في تابوت الجنازة الجميل، بَدا وجهها مُثيراً للدهشة، لكنّهُ لم يكُن مروّعاً. لكن هذا.. هذا أمرٌ يختلف عن الموت، فالمقتولُ يصرخُ

Twitter: @ketab_n

بأعلى ما يمكنه، كأنّما هو يشكو من ألمٍ لا يُحتَمل. وأنا وهذا الدركي نعرف ذلك. نعرفُ أن الرعب قد سكنَ الحانوت، وهكذا بدأ الأمرُ ينجلي في داخلي. لست أدري، رُبّما ليست لنا روح، لكن في داخلنا أمور خالدة. إنّها النزوع إلى العدالة. وأنا لا أتميزُ عن أيّ شاب بأيّ شيء، لكن في داخلي أمراً لا يخصّني وحدي وحسب، رُبّما هو الحدسُ بنظامٍ ما حازم وعظيم. أدركُ أني أعبّر عن ذلك بشكل سيّء، لكني أدركتُ في تلك اللحظة كُنهَ الجريمة وماذا تعني الإساءة لله. ولعلمكم، الإنسان المقتولُ يشبه كنيسةً مُتهدّمةً وآيلة إلى مصيرها المحتوم.

تدخّل السيد دوبش في الحديث: "وماذا بعد، هل قبضوا على قاتل الجدّة؟"

"نعم، قبضوا عليه"، استمرّ السيد هاناك في الحديث: "لقد رأيتهُ بنفسي بعد يومين، وذلك عندما اقتادَهُ من الحانوت دركيّان، وكما يقال عادةً، استجوبوه في مكان الجريمة. رأيته، رُبّما، لخمسِ ثوان فقط، لكنه بَدا وكأنهُ تحت عَدسة مجهر مكبّر، شوّهَتْهُ. كان شاباً قروياً، يداهُ ترسفان في القيود، ويسرعُ بشكل مُريب، لدرجةِ أن الدركيين كانا يُتابعانه بصعوبة. أنفه مُتعرّق، أمّا تلك العيون الجاحظة، فكانت ترفّ وقد تملّكها الخوف.. بدا جلياً أن خَوفاً عظيماً قد لفّه كالأرنب، وقد اقتربَت من رقبته السكّين. لن أنسى ذلك الوجه ما حَييت. شعرتُ بعد ذلك اللقاء أنّهُ كان بلا طائل، وسبّب لي ألماً شَديداً. الآن سيُحاكمونه، أعتقد أنّهُم سيُماطلونه بضعة أشهر ليُجهّزوا أمرَ حكمه بالإعدام. أدركتُ في النهاية أني أشفقُ عليه وأني سأشعر- على الأرجح- براحة ما أن نجا من هذا الحكم. ألأنّ لهُ وجهاً لطيفاً؟! لا، العكس تقريباً هو الصحيح، فقد رأيتهُ عن قربٍ شَديد؛ رأيتُ كيف كان جفناهُ يرفّان يأساً. لستُ بحضرة الشيطان عَطوفاً. لا، على الإطلاق، لكنّهُ لم يبدُ عن قرب قاتلاً. ببساطة، لقد كان إنساناً. وأقول لكم، أنا نفسي لا أفهمُ الأمر. لا أعرفُ ما الذي كنت سأفعله لو عُيّنتُ قاضياً لمحاكمته. لكن الحزن لفّني نتيجة كلّ ما جرى، كما لو أني نفسي أحتاجُ المغفرة".

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الرجلُ الذي لا يعجِبُ أحداً

قال السيد باتسوفسكي للرقيب كولدا: «يا سيد كولدا، عندي شيء لك»، والسيد باتسوفسكي نفسه كان رجل شرطة في العهد النمساوي، حتى أنّه عمل ضمن وحدات الحرس الجوال، ولكن لسببٍ ما لم يعُد يستطع التأقلم مع الظروف المستجدة، ولهذا اتجه للتقاعد. طاف في العالم لبعض الوقت، وفي النهاية استأجر نُزُلاً اسمه «إطلالة على المشهد». وعلى الرغم من أن موقعه مُنعزل نسبياً ،إلّا أن الناس باتوا في هذه الأيام يُفضّلونه, حيث الرحلات والمناظر الجميلة والسباحة في البرك وما إلى ذلك. «إذن»، تابع السيد باتسوفسكي قائلاً: «ياسيد كولدا، ثمّة مسألة لا أستطيعُ استيعابها. لديّ نزيل مضى على وجوده أربعة عشر يوماً يُدعى رِدلْ ، وليس هذا هو المهم، فهو يدفعُ كما يجب ولا يشربُ ولا يلعب.. لكن أتدري ما الأمر؟» ثمّ أضاف بحشرجة قوية: «تعال معي لرؤيته».

سأل كولدا : «ما هي قضيته؟»

«هُنا بيت القصيد»، أجاب السيد باتسوفسكي بشيءٍ من الامتعاض: «لستُ أدري. ما من شيءٍ خاص يُميّزه، لكن كيف أعبّر لك؟.. إنّ هذا الشخص لا يُعجبني، هه». «رِدلْ .. رِدلْ»، فكّر الرقيب كولدا: «هذا الاسم لا يُذكّرني بشيء. من يكون يا ترى؟»

قال السيد باتسوفسكي: «لست أدري. أخبرَني أنه موظف مصرف، لكني يا صاحبي لم أستطع استخلاص شيء منه يدلني إلى معرفة اسم المصرف الذي يعمل فيه. إنّه لا يروقُ لي مع أنه شخصٌ دمث، لكن!..

Twitter: @ketab_n

حتى أنه لا يتسلمُ أيّ بريد. لديّ انطباع وكأنه يتجنب الناس، وهذا ما لا يعجبني فيه».

تساءل الرقيب كولدا: «كيف ذلك؟ كيف يتجنّب الناس؟»

«هو حتى لا يتجنّب»، عقّبَ السيد باتسوفسكي مُتشكّكاً: « لكن، أرجوك قل لي من الذي يأتي إلى الريف في أيلول؟ ثم إنه كلما رأى سيارة تتوقّف أمام الحانة، ينسحبُ من طاولة الطعام ويتجه إلى غرفته؛ تلك هي حالته. أقولُ لك بأن وضع رِدلْ هذا لم ولن يعجبني».

فكّر السيد كولدا قليلاً: «إذاً، أتدري يا سيد باتسوفسكي»، وأضاف بحكمة: «قُل له مثلاً أنكَ ستغلقُ النزل في الخريف، وعليه أن يذهب إلى براغ أو إلى أي منطقة أخرى، ألستَ معي في ذلك! لماذا يمكثُ عندنا هُنا بالتحديد؟ وانقضى الأمر».

في اليوم التالي، وكان يوم أحد، عاد الدركي الشاب هوريخ المعروف باسم مارينكا أو بانينكا من جولته الروتينية، وفي الطريق خطر بباله: «سأتوقفُ في الحانة»، ولذا اتّجه مُباشرة إلى باحة فندق «إطلالة على المشهد». وعندما وصل مدخلها الخلفي، توقّف لينفح على غليونه. وعندها سمع صوت نافذة وهي تفتح، في الطابق الأول من جهة الباحة، ثم تلاهُ صوتٌ مكتوم لشيء ارتطمَ بالأرض. ركض بانينكا إلى الباحة، وأمسك بكتف رجل قفزَ من النافذة بلا سَببٍ معروف: «يا سيد»، صاح مؤنباً: «ما الذي تفعله؟»

كان وجهُ الرجل الذي أمسكَ بانينكا بكتفه شاحباً وخالياً من أي تعبير. تفاعلَ بلا حماسة: «ولماذا لا أقفز؟ إني أسكن هُنا».

قَيّم الدركي الحالة بُرهةً: «هذا أمر ممكن، لكن ما لا يعجبني هو أنكَ قفزت من النافذة».

قال الرجل بوجهه الخالي من أيّ تعبير مُعتذراً: «لم أكُن أعرف أن القفز ممنوع. اسأل السيد باتسوفسكي، فأنا أسكنُ هنا واسمي رِدلْ».

Twitter: @ketab_n

«هذا مُمكن»، قال الدركي بانينكا: «إذن، أرني أوراقك».

«أوراقي؟» تساءل رِدلْ على نحوٍ غير واثق: «في الحقيقة أنا لا أحملها معي. سأرسلُ لإحضارها لي».

«لا.. سنستوضحُ الأمر بأنفسنا»، قال بانينكا مُتكرّماً: «تعال معي يا سيد رِدلْ».

«إلى أين؟» مانعَ السيد رِدلْ وقد شحب وجهه أكثر: «بأي حق.. بأي حق تريدُ أن تأخذني معك؟»

«لأنك لا تُعجِبُني يا سيد رِدلْ»، جهرَ بذلك بانينكا: «كُفّ عن الكلام وامض معي».

كان الرقيب كولدا في مركز الشرطة يجلسُ محتذياً حذاءً منزلياً، وهو يدخن بغليونه الطويل ويقرأ التعليمات الإدارية. وعندما رأى بانينكا مع السيد رِدلْ ، صرخ: «بحق الإله يا مارينكا، ما الذي تفعله بي؟ ألا أستحقُ الراحة حتى في يوم الأحد؟ لماذا تحضرُ لي أشخاصاً في هذا اليوم؟»

«السيد الرقيب»، أعلن بانينكا: «هذا الشخص لا يُعجِبُني. عندما شاهدني وأنا في طريقي إلى الحانة، قفز من النافذة إلى الباحة وقصد الغابة للاختباء هُناك. ليس لديه أوراق ثبوتية أيضاً، لهذا أحضرته معي. إنه رِدلْ ما».

«ها.. هه»، قال السيد كولدا باهتمام: «السيد رِدلْ. ها أنت بين أيدينا يا سيد رِدلْ».

«ليس من حقكم اعتقالي»، احتجّ السيد رِدلْ وقد بدا عليه الانزعاج، أمّا السيد كولدا فقد وافقه: «ليس من حقنا. ولكن بإمكاننا توقيفكَ للتحقيق، أليس كذلك؟! يا مارينكا.. اذهَب إلى النُزل، وفتش غرفة السيد رِدلْ وأحضر معك أغراضه. أما أنت يا سيد رِدلْ ، فاجلس».

Twitter: @ketab_n

«أنا.. أنا أرفض أيّ إفادة»، تأتأ السيد رِدلْ غاضباً: «سأعترض على ما تفعلونه. أنا سأحتج..»

«بحق الإله يا سيد رِدلْ»، تنهّد السيد كولدا: «إنك لا تعجبني. أنا لن أتعاطى معك. اجلس هُنا وأغلِق فمك»، ثم أمسك بالصحيفة وتابع القراءة.

بعد قليل، عاد وقال: «اسمع يا سيد رِدلْ . الأمر واضح في عينيك. إن شيئاً ما فيك ليسَ على ما يرام. لو كنت مَكانك لأدليت بكلّ شيء وارتحت، لكن ما دمت لا تريد فهذا أمر حسن أيضاً».

جلسَ السيد رِدلْ شاحباً ومُبللاً بعرقه، أمّا السيد كولدا فأخذ يتأمله ملياً- مراوغاً لعابه المُتهيّج من الغليون، والحَرِد في سقف حلقه- وقد ضاق ذرعاً بلعابه وبرِدلْ ، ثم راح يُقلّب رقائق الفطر التي كان يُنشّفها على المدفأة.

«اسمع يا سيد رِدلْ !» عاود كولدا الحديث بعد فترة قصيرة: «سنتحقق من شخصيتك، وستكون في هذه الأثناء تحت تصرُّف المحكمة، ولن يتكلّم معك أحد. لا تكُن مقيتاً يا رجل!»

استمرّ السيد رِدلْ في صمته المطبق، أمّا السيد كولدا فراح يُدمدم بنزق وهو ينظف غليونه، ثم بادر إلى القول: «حسناً، هكذا إذن!.. اسمع يا سيد رِدلْ ! رُبمّا سيستغرقُ التحقق من شخصيتك شهراً بأكمله مثلاً، وهذا الشهر سوف لن يُحسبَ من فترة محكوميتك يا سيد رِدلْ ، وبهذا تخسرُ شهراً تقضيه في السجن!»

أجاب السيد رِدلْ بتردد: «وإن اعترفت.. هل..»

«في تلك الحالة يصدرُ قرار بتوقيفك للاستجواب، وقد تحسَبُ مدّة توقيفك ضمن فترة الحكم الذي سيصدرُ بحقك. ولك أن تختارَ الموقف الذي تشاؤه. إنّك لا تعجبني يا سيد رِدلْ».

تنهد السيد رِدلْ ، وظهرت في عينيه اللتين لم تستقرا على خيارٍ علائم

Twitter: @ketab_n

الحزن وحتى الإرهاق، وتساءل قائلاً: «لماذا؟ لماذا يقول لي كلّ من التقيته أني لا أعجبه؟»

«لأنك خائف»، ردّ السيد كولدا بحصافة: «هُناك شيء ما تخفيه يا سيد رِدلْ ، وما من أحدٍ يُحب ذلك. وأيضاً لماذا لا تنظرُ إلى عيني أحد؟ إنك متوتر؛ تلك هي المسألة يا سيد رِدلْ».

«روسنر»، صحّح الشخص الشاحب بضيق.

حاولَ السيد كولدا أن يتذكّر: «روسنر.. روسنر، مهلك! أيّ روسنر؟ هذا الاسم يوحي لي بشيءٍ ما».

«روسنر فرديناند طبعاً»، قذفَ الشخص بالكلمات.

«روسنر فرديناند»، كرّر السيد كولدا: «الآن يحضرني ما يعنيه اسم روسنر فرديناند..»

«مصرفُ الإيداع في فيينا»، قال الشخصُ الشاحب مُساعِداً.

«ها.. هه»، صاح السيد كولدا فرحاً: «خيانة الأمانة. اتضح الأمر الآن. هكذا إذن، روسنر يا إنساني العزيز! لدينا أمرٌ باعتقالكَ مُنذ ثلاث سنوات! أجل! أنتَ إذاً هو السيد روسنر»، كرّر بسعادة: «لكن لماذا لم تقُل ذلك مُباشرة؟ انظُر.. كنت على وشك أن أدلك على الباب وأنت روسنر!» ثمّ صاح على هوريخ الدركي الداخل لتوه: «يا مارينكا! إنه روسنر؛ المختلس!»

«لأنه..» ارتجفَ روسنر متألماً بعضَ الشيء.

«لكن يا روسنر»، هدّأه السيد كولدا: «ستعتادُ على الأمر. كُن مسروراً لأنك أوضحت الحقيقة. بحق الإله! أرجوك أيّها العزيز. قُل لي أين اختبأت طوال السنوات الثلاث؟»

«اختبأت»، قال روسنر بمرارة: «إما في عربات النوم، أو في أغلى الفنادق. هُناك لا يسألون الإنسان من يكون ومن أين يكون».

Twitter: @ketab_n

«يه يه يه»، قال السيد كولدا مُتعاطفاً: «لقد كلّفك الأمر غالياً، أليس كذلك؟!»

«أعتقد ذلك»، قال روسنر بارتياح: «لكن، هل باستطاعتي الذهاب إلى نُزل يتعرّض لمداهمة الدرك؟ لقد توجّب عليّ أن أعيش باستمرار عيشة أعلى من مُستواي. لم أبت أكثر من ليالٍ ثلاث في المكان نفسه. هنا فقط، أمسكتم بي».

«أي، نعم!» أراحه السيد كولدا: «لكني أعتقد أن نقودك قد نفدت. أصحيح يا روسنر؟ لقد كانت نهاية الحكاية على أي حال».

«كانت»، وافق روسنر: «ولكني أقول لكم الحقيقة، ما كنت لأصمد أكثر، وحق الإله إني لم أتكلم من القلب إلى القلب خلال السنوات الثلاث تلك مع أي كان. لكن، الآن، هُنا..! حتى أني لم أستطع الأكل! ما أن ينظر أحدهم إليّ، حتى تراني أسعى جاهداً لكي أتوارى عن الأنظار. كنت أشعر بأن كل من ألتقيه يتأملني»، قال روسنر شاكياً: «كل شخصٍ بدى لي وكأنه من رجال الشرطة، حتى السيد باتسوفسكي! وأتركُ الأمر لتقديركم».

«لا تُضخّم الأمر»، قال السيد كولدا: «ولعلمك، السيد باتسوفسكي خَدَمَ في صفوف الشرطة أيضاً».

دَمدمَ روسنر: «إذن، يا تُرى، هل يُمكن للإنسان أن يشعر بالراحة عندما يكون محطّ الأنظار؟ لماذا كل واحد يتأملني؟ هل تبدو عليَّ ملامح مجرم ما؟»

تفحصه السيد كولدا جيداً: «سأقول لك شيئاً الآن ياروسنر.. لا، لا. الآن تبدو لي كأيّ إنسان عادي. لكنك قبل ذلك لم تكن تُعجبني، لست أدري يا صاحبي ما الذي لم يستقِم فيك؟ على كل حال!» وهُنا أطلقَ كولدا حكمه قائلاً: «سيقتادُكَ مارينكا إلى المحكمة، السّاعة السادسة لم تحِن بعد، سيحتسبونَ هذا اليوم من مُدّة محكوميتك، لو لم يكن يوم أحدٍ لاقتدتكَ بنفسي إلى هُناك لترى أنه.. هِم.. لم يعُد لدي شيء ضدك.

Twitter: @ketab_n

حالة الاغتراب هي السبب ياروسنر. على كلّ حال، كل شيء أصبح على ما يرام الآن. يا مارينكا، اقتده!»

قال كولدا في ذلك المساء: «أتعلمُ يا مارينكا، أقول لك بأن روسنر هذا قد حاز الإعجاب. إنه بشكل عام شخص دمث.. أم لا؟ أعتقدُ أنهم لن يحكموه بأكثر من سنة».

قال الدركي مُتوهجاً: «لقد توسطت لديهم ليعطوهُ بطانيَّتين، فهو لم يعتدِ النوم بعدُ على سرير السجن».

«هذا أمر جيد»، قدّر السيد كولدا: «وأنا سأقول للحارسِ أن يتكلم معه من حين لآخر، ليدركَ روسنر هذا أنهُ قد عاد بين الناس من جديد».

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

واقِعةُ قائدِ الفرقةِ الموسيقية كالينا

قال السيد روبيش: "مثلُ هذه الرّضة، أو الكدمة الدامية، تؤلمُ أكثر من الكسر أحياناً، لكن، إن هيَ طالت حدّ العظم. أعرفُ ذلك لأني لاعبُ كرة قدم قديم. ذات يوم، انكسر ضلعي وعظمُ كتفي وإبهام يدي. الجيل الجديد لا يلعب بحماسٍ كما كان الأمر في أيامي. وفي العام الماضي، عُدت إلى اللعب من جديد. أردنا نحن المتقدمون في السن أن نُظهرَ لشباب اليوم كيف كان تكتيكنا. لعبتُ ظهيراً؛ كما كان الأمر قبل خمسة عشر أو عشرين عاماً. وبينما كنتُ أوقفُ الكرة ببطني، ضَربني حارس مرمانا على.. هـ.. م يقالُ له العصعص؛ أيCauda equina . شتمتُ للحظات قليلة في حالة الاهتياج تلك، ثم نسيت الأمر، لكن الألم بدأ عندما حلّ الليل. وفي الصباح، لم أعد أستطيع الحركة على الإطلاق. الحق أقول لكم، كان الألمُ شديداً، لدرجة أني لم أستطِع تحريك يدي، ولا حتى أن أعطس.. إنّهُ لأمر غريب، كيف تترابطُ كل أجزاء جسم الإنسان وتتأثّرُ ببعضها. لقد استلقيتُ على ظَهري مثل خنفساء ميّتة، لم أستطع النوم حتى على جَنبي، ولا أن أحرّك أصابع قدمي. كلّ ما استطعتهُ هو أن أوشوشَ مُستهجِناً، وأتأوّه لاهِثاً من شدّة الألم وفظاعته.

بقيتُ على تلك الحالة يَوماً كاملاً وليلة، مُستلقياً على الفراش لا أستطيع النوم ولو للحظةٍ واحدة. ويستغربُ الإنسان كيف يمرّ الوقت ببطءٍ، حينما لا يكون قادراً على الحركة. إنّها حالة عَصيبة مُشابهة لحالة الإنسان المُحاصر تحت الأنقاض. ولكي يمرّ الوقت بسرعة، جمعتُ وطرحتُ، صلّيتُ، وحتى تذكّرتُ بعض الأبيات الشعرية ورحتُ أرددها. ومع ذلك، كان ليلاً طويلاً. أقدّر أن الساعة كانت قرابة الثانية صباحاً، عندما سمعت

Twitter: @ketab_n

فجأة، أصواتَ مجموعة من الناس وهي تطاردُ شَخصاً هارباً يركضُ في الشارع بكل ما أوتيَ من قوة. كان مُمكناً سماع ستة أصوات: "ستتلقى جزاءك، سأنتزع أحشاءك.. أنت أيها الفتى البائس، يا ابن الزنى"، وغيرها من هذه الأمور. لقد أمسكوا به تحتَ شباكي وبدأت الحكاية؛ ستة أزواج من الأرجل تشحطُ على الأرض، وتلك الأصوات المُتخشّبة، أصوات الهَراوات عندما تنهالُ على الرؤوس، شَهيق وأنين لكن من دون ضجيج. اسمعوا! إنهُ لأمر غير مَقبول، ستة ضدّ شخص واحد ينهالون عليه بالضرب كما لوأنهم يضربون كيساً. أردتُ النهوض والقول لهم إنهُ لأمر غير لائق، لكنني صرختُ من الألم ولعنتُ من لا تجوز لعنته. صككتُ أسناني وثغوتُ من التوتر كحيوان، وفجأةً، دبّت فيّ حيويّة؛ قفزتُ من السرير، وتناولتُ العكازة وطرتُ قافزاً على السلّم إلى الأسفل. عندما خرجتُ إلى الشارع، لم أعُد أرى بتاتاً. اصطدمتُ بواحدٍ من الشباب، وبدأت أضربه بالعكازة. أما البقية، فقد هَربوا في كلّ الاتجاهات. وأنا في حياتي كلها لم أضرب أحداً مثلما فعلت مع ذاك التافه. بعد ذلك فقط، شعرتُ أن دموع ألمي تَنسابُ كخط متواصل على وجهي. لقد تطلّب الأمر مني ساعة إلى أن تمكّنتُ من العودة إلى السلّم ثم إلى السرير. لكنني في الصباح تمكنت من السير؛ كانت تلك معجزة حَقاً. سأفرحُ لو عرفت (أضاف السيد روبيش وهو شارد الذهن) مَن الذي ضربته حينئذٍ. هل كان من ضمن المتفوقين عدداً، أم ذاك الذي تعرض لضربهم؟ على كلّ حال، واحد ضدّ واحد، هي على الأقل مسالة عادلة".

قال قائد الفرقة الموسيقية والمؤلف الموسيقي كالينا، وهو يهز رأسه: "العجز أمر فظيع". عايشتُ مرّةً، أيها السادة، واقعةً جرَت في ليفربول. في ذلك الوقت، تلقيتُ دعوة لأقود هُناك فرقةً في حَفلة موسيقية, وأنا لا أعرفُ ولا حتى كلمة إنكليزية واحدة. لكننا، نحنُ الموسيقيون، نتفاهمُ من دون طويل كلام، خاصة عندما تكون في أيدينا عصا المايسترو. فالإنسان يعبّر عمّا يريده بدقات أو طرقات، بل وأحياناً يصيح، ويشير بيديه ويحرك

Twitter: @ketab_n

عينيه، وبعدها يبدأ من جَديد. بهذه الوسائل، يمكن التعبير عن أدقّ المشاعر. مثلاً، عندما أشيرُ بيَدي هكذا، فالكلّ يعلمُ أنه تَسامِ وجداني ودَعوة إلى الخلاص من آلام الحياة وأثقالها. عندما أتيتُ إلى ليفربول، انتظرَني هؤلاءِ الإنكليز في محطّة القطارات، ثم نَقلوني إلى الفندق لآخذ قسطاً من الراحة. لكنني اغتسلتُ وذهبتُ لوحدي لأتفرج، وطبعاً ضعت.

عندما أزورُ بلداً ما، أذهب أوّل ما أذهب لرؤية النهر. عند الأنهر، يتعرّف الإنسان على أوركسترالية المدينة؛ إن صحّ التعبير. من جهة، ستجدون شوارع بأكملها صاخبة، تمُثّل الطبول والدفوف والأبواق وآلات النفخ الموسيقية النحاسية، ومن جهةٍ أخرى النهر، إنّهُ يمثل الكمنجات وأوتار الآلات الموسيقية. هُناك يسمع الإنسان المدينة بأكملها. في ليفربول، هناك نهر.. وأنا لا أعرف اسمه، إنه يَبدو أصفراً ورهيباً، يوشوش ويهدر، يَصرخ ويجأر، يُصلصل ويجلجل، حيث السفن تطلقُ صفاراتها وحيث زوارق القطر والمخازن وأحواض بناء السفن والرافعات.

أتعلمون؟ أنا أحب السفن حُباً جماً سواء الضخمة منها، أو المراكب القاطرة، أو بَواخر النقل المدهونة بالأحمر، أو سفن المُحيط البخارية البيضاء. وهكذا، قلتُ لنفسي يا إلهي.. هُناك، خلفَ تلك الزاوية، يجبُ أن يكون المحيط.. عليّ أن أنظرَ إليه من هُناك. سرتُ على خطّ النهر المُنحدِر، ركضتُ لمدّة سَاعتين ماضياً بمُحاذاة تلك المخازن والحظائر والأحواض، أحياناً، كان يظهرُ قاربٌ عالٍ، كأنه كنيسة، أو ذو مداخن ثلاث سميكة ومائلة، تفوحُ منها رائحة السمك والخيول المتعرّقة والخيش ومشروب الروم والقمح والفحم والحديد،. انتبهوا! أينما تكونُ هُناك كومة من الحديد كبيرة، تكون لها رائحتها المُميزة. وأنا كنتُ كما لو أني في حلم.

حلّ الليل بعد حينٍ عندما اقتربت من أرض رملية منارة تضيء, وهُنا أو هناك، كان يعومُ ضوء ما- هل هو المحيط؟ هُناك جلستُ على كومة من الألواح الخشبية، وأحسستُ تماماً بمَشاعر الوحدة والضياع. سمعتُ

Twitter: @ketab_n

وشوشوة المياه وقسيبها، كدتُ أنبحُ حُزناً. عندها أقبلَ شخصان، رجلٌ وامرأة، لم يَلحظاني، جلسا وظهرهما نحوي وتكلّما بصوتٍ مُنخفض. لو كنت أفهم اللغة الإنكليزية، لسعلتُ كإشارة مني بأن هُناك من يسمعهما. لكن، بما أني لا أعرفُ منها ولا كلمة واحدة، ما عدا فندق وشيلينغ، فقد بقيتُ صامتاً.

تحدّثا في البداية بتقطّع شَديد (sta ccato)، ثم بدأ ذاك الرجل الكلام بهدوءٍ وبطء كأنما هذا الكلام لا يرغبُ بالخروج من فمه، ثم أخذ يقذفُ به بسرعة. أمّا تلك المرأة، فكانت تصرخُ هولاً، تقول له شَيئاً ما بعصبية. لكنهُ أمسك يدها، وضغط عليها حتى راحت تتأوه، ثم أخذ يصك أسنانهُ كأنه يطوعُ هذه المرأة. لم يكُن ذلك بالتأكيد حديث حب، فالموسيقي يُميّز الأمر. التناغي له إيقاعٌ مُختلف تماماً، ونغمته على نحوٍ ما، ليسَت مَشدودة، حديثُ الحب كَمنجة رقيقة الصوت، لكن ما سمعتهُ كان من وزنٍ شَديد العمق، يتقلّبُ بسرعة كبيرة، وفي مستوى واحد، كأن هذا الإنسان يُكرّرُ شيئاً واحداً. بدأت أشعر بالضيق قليلاً، فهذا الرجل تَفوّه بشيء سيء، ممّا دفع المرأة للبكاء بصوتٍ خَفيف، لكنها صَرخت مرّات عدة تعبيراً عن الاعتراض، كأنما تريد التشبث بالرجل. صوت كلارينيتي مُتخشّب لا يوحي بالفتوة. أمّا ذلك الصوت الرجالي، فكانَ باستمرارٍ يلثغ بحرف السين، وكأنما هو يأمرُ أو يُهدّد بأمرٍ ما. بدأ الصوت النسائي يتوسل بيأس، ويتأوه هولاً كما يفعل الإنسان عندما توضعُ في عُبّه قطعة ثلج, كان صوت أسنانها يُسمَع وهي تصطك. بدأ صوتُ الرجل يُهمهم بعمقٍ شديد، بجهورية صافية، ويمكن القول بنغمة العاشق تقريباً. تحوّل البكاء النسائي إلى شَهيق ضعيف وسلبي، مما يعني أنّ المقاومة قد انكسرت. لكن الصوت الجهوري العاشق ارتفع مرّة أخرى، وأخذ يطرح جملة وراء أخرى، بتقطع ورزانة وحَسم. بدورهِ أخذ الصوت النسائي يزدادُ حدّة وتأوهاً. لم يكن ذلك مقاومة، بل هو الخوفُ الشديد، ليس من هذا الرجل، إنّما من مصيبة تتراءى لصاحبة الصوت في حدث مستقبلي. عِندها انخفض الصوت الرجالي متحولاً إلى همهمة مُسكّنة وتهديدات هادئة، في حين

Twitter: @ketab_n

تحوّل التأوه النسائي إلى تَنهد مُستسلم وضعيف. طرحَ الرجل بهمسات باردة عدداً من الأسئلة، وعلى ما يبدو حصل مُقابلها على هزّات بالرأس، فهو لم يعُد يُلحّ أكثر.

بعدها نَهض الاثنان، وذهبَ كلّ منهما في اتجاه مختلف.

أؤكدُ لكم أني لا أؤمنُ بعلم الغيب، بل بالموسيقى. عندما كنتُ في تلك الليلة أنصتُ لهما، تيقنتُ تماماً أن ذلك الصوت الجهوري كان يستدرجُ تلك القيتارة إلى أمرٍ فظيع. أدركتُ أن تلك القيتارة ستعود إلى البيت بإرادةٍ مَقهورة، وستقوم بما قد أمرها ذلك الصوت العميقُ به. نعم، لقد سمعتُ ذلك، والسماع شيء يَفوق فهم الكلمات. لقد أدركتُ أن جريمةً ما يجري التحضير لها، بل عرفتُ نوعها. اتّضح لي ذلك من الفظاعة التي فاحَت من الصوتين. نَبرة تلك الأصوات، إيقاعها، دَرجة سرعتها، فتراتُها، انقطاعاتها، كلّ هذا ساعدَ على انجلاءِ الأمر، اسمعوا! الموسيقى دقيقة، لا بل أدق من اللغة. تلك القيثارة كانت بسيطة جداً، أبسط من أن تقوم لوحدها بعملٍ ما.. ستساعدُ فقط، ستُعطي مفتاحاً ما أو تفتح باباً ما، لكن ذلك الصوت العميق والخشن سيقوم بالتنفيذ، بينما ستشهقُ تلك القيتارة اختناقاً. اندفعتُ نحو المدينة بسرعة، مُدركاً أن شيئاً ما سيحدث وأنّهُ يتوجّبُ عليّ القيام بعملٍ ما لإيقافه. إنّهُ لشعور خانق حينما يصلُ الإنسان متأخراً.

أخيراً، أرى على الزاوية شُرطياً يقوم بواجب الحراسة، أسرعتُ نحوه مُتعرّقاً وقد انحبسَت أنفاسي. صرخت.. أيها السيد.. هُنا.. في هذه المدينة.. يُزمع القيام بجريمة قتل!

هزّ الحارس كتفيه، وقال لي شيئاً لم أفهمه. يا إلهي! تذكرتُ أنّهُ لم يفهَم حتى كلمة ممّا قد قُلت! صَرختُ له وكأنّهُ أصم: جريمة قتل! هل تفهمني؟ سَيقتلون امرأة ما تعيشُ وحيدة! وتلك الخادمة أو الطباخة ستساعدُ في ذلك. صرختُ: يا للعنة! افعَلْ شيئاً يا رجُل!

Twitter: @ketab_n

اكتفى هذا الحارس بهزّ رأسه، وقال شيئاً من قبيل: (يور.. ويه).

شرحتُ له بانفعالٍ شَديد، وأنا أرتجف غَضباً ولوعةً: تلكَ المرأة التعيسة أيها السيد، ستفتح الباب لعَشيقها.. كُن واثقاً من ذلك.. لا يُمكنكم تركُ الموضوع، ابحثوا عنها!

تذكرتُ أني لا أعرفُ كيف تبدو تلك المرأة، وحتى ولو عرفت، فلن أستطيع التعبير، صرخت: ليس من الإنسانية في شيءٍ إهمال الموضوع.

نظرَ الحارس الإنكليزي إليّ بإمعان، وكأنّهُ يُحاول تَهدئتي. مَسكتُ رأسي بيدي، وبلا وعي منّي صَرختُ يائساً: أنتَ، أيها الأبله، سأجدُ ذلك بنفسي، أين هو!

أُدركُ أنّ ذلك كان ضَرباً من الجنون، لكن انظروا.. يجبُ فعلُ شَيءٍ ما عِندما يتعلّق الأمر بحَياة إنسان. لقد هَرولتُ طَوال الليل أجوبُ شَوارع ليفربول، لعلّي أعرفُ شيئاً عن شخصٍ يُريد اقتحامَ مَنزل ما. إنّها مَدينة غَريبة الأطوار، مَيتة في الليل إلى حدٍّ كَبير.. في الصباح، جلستُ على طَرف الرصيف وبكيتُ من التعب. وجدَني الحارس هُناك، قال لي: (يور... ويه)، وأخذَني إلى فندقي.

لستُ أدري كيف تمكّنتُ في ذلك اليوم من قيادة الفرقة في العَرض التجريبي، لكن عندما قذفتُ بعصاي في النهاية وخرجتُ إلى الشارع، كان بائعو الصحف يَصيحون. اشتريتُ واحدةً منها، كان في صَدر إحداها مانشيت كبير Murder ، وتحتهُ صورة امرأة ذات شعر أبيض. أعتقدُ أن Murder تَعني جريمة قتل".

Twitter: @ketab_n

العرّافة

كلّ مُطّلع على الأحوال يلحظ أنّ هذه الواقعة ما كان لها أن تحدث عندنا، ولاحتى في فرنسا أو ألمانيا، لأنّه يتوجّب على القضاة في هذه البلدان، كما هو معروف، محاكمة أصحاب الخطايا ومعاقبتهم حسب المعايير القانونية- وليس بأي حالٍ من الأحوال- اعتماداً على رجاحة العقل والضمير. لكننا نلحظُ في هذه الواقعة أنّ القاضي يصدر حكمه اعتماداً على العقل الإنساني السليم، غير آبهٍ بالمواد القانونية. يتضح من ذلك أنّ الوقائع الآتية ما كان لها أن تحدث إلّا في إنكلترا؛ بالأحرى حدثت في لندن فعلاً، بل يمكن القول بتحديد أكبر في كينسينجتون أو.. صبركم قليلاً.. كان ذلك في برومبتون أو في بايز ووتر. باختصار، في مكان ما هناك. هذا القاضي المدعو كيلي كانَ ضليعاً في القضاء، وتلك المرأة كان اسمها، وبكلّ بساطة، مايرسوفا- السيّدة إيديث مايرسوفا.

صدّقوا إذاً أنّ هذه المرأة وبالمناسبة، المحترمة، أثارَت انتباه مفوّض الشرطة ماك ليري الذي خاطب زوجته ذات مساء: "غاليتي، إنّ رأسي لم يستوعب هذه السيدة مايرسوفا. أودّ لو عرفتُ كيف تدبّر هذه المرأة أمور معيشتها. تصوّري أنّها في شهر شباط الجاري أرسلت خادمتها لشراء الهليون. أكثر من ذلك، تحقّقت من أنّها تستقبل يومياً من اثني عشر حتى عشرين زائراً من بائعات المواد بالمفرّق، كما تستقبلُ حتّى الدّوقة. أعلمُ يا غاليتي أنّك ستقولين ما هي إلّا عرّافة ورق.. حسناً، لكن قد يكون هذا مُجرّد غطاءٍ لأمر آخر تقوم به، فلنقل ترويج الدعارة أو التجسس مثلاً. أتعلمين! لديّ رغبة في التحقق من الأمر".

"حسناً يا بوبي"، قالت المرأة المتألّقة زوجة ماك ليري: "أترُك الأمر لي".

Twitter: @ketab_n

ما جرى بعد مضيّ يوم واحدٍ على هذا الحديث، هو أنّ السيّدة ماك ليري، وقد ارتدَت ملابس تليقُ بشابّة؛ وسرّحت شعرها كفتاةٍ آن لها أن تترك الحماقات؛ قرعت بيدها، جرسَ باب السيّدة مايرسوفا في بايز ووتر أو ماريلبون، وكانت بدون خاتم الزواج؛ وعلامات الخوف على وجهها. لقد توجّب عليها الانتظار قليلاً إلى أن استقبلتها السيّدة مايرسوفا.

قالت تلك المرأة العجوز، وهي تستعرضُ بانتباه شديد زائرتها المتهيّبة: "اجلسي يا طفلتي العزيزة، ما الذي تريدينه منّي؟"

"أنا"، زقزقت السيّدة ماك ليري: "أنا.. أنا أرغب.. أنا.. عيد ميلادي العشرين يُصادف غداً.. أنا سأكون مسرورة جداً لو عرفتُ شيئاً عن مستقبلي".

قالت السيّدة مايرسوفا: "لكن أيتها الآنسة.. إه.. كيف أدعوك من فضلك؟" ثمّ أمسكَت رُزم ورق اللعب، وبدأت تخلطها بحيوية.

"جونيسوفا"، تنهّدت السيّدة ماك ليري.

استمرّت السيّدة مايرسوفا في الحديث: "عزيزتي الآنسة جونيسوفا، هذا خطأ، قراءة الورق ليسَت عملي، إنّما أحياناً، هُنا أو هُناك، أقوم بذلك من باب الصدفة ككلّ امرأة مُسنّة. اسحبي الورق بيدكِ اليسرى، وقسّميه إلى خمسة أكوام.. تمام. أنا أحياناً أقرأ الورق لنفسي بغرض التسلية، وعلى كلّ حال.. انظري كيف"، قالت ذلك وهي تقلّب الكومة الأولى: "دیناري.. هذا يعني مالاً. وولدُ كبّة.. إنّها لورقة جميلة".

"آه"، نطقت السيّدة ماك ليري: "وماذا بعد؟"

"ولد ديناري"، قالت السيّدة مايرسوفا وهي تقلّب الكومة الثانية: "العشرة الخضراء.. إنّها تعني السفر. لكن هُنا.." وصاحت: "أرى سباتي، السباتي يعني دائماً معارضة.. ولكن ها هي في النهاية البنت الكبّة".

Twitter: @ketab_n

"وما معنى ذلك؟" سألت السيّدة ماك ليري وهي تزوغُ بعينيها بأفضل ما أمكنها.

"أيضاً ديناري"، قالت السيّدة مايرسوفا عن الكومة الثالثة: "طفلتي العزيزة؛ ينتظركِ الكثير من المال، لكنني لا أعرف إن كنتِ أنتِ من سيقوم بسفرة طويلة أم شخص قريب منك".

"عليّ أن أسافر إلى ساوثمبتون عند خالتي"، عقّبت السيّدة ماك ليري.

"ستكون سفرةً أطول"، استطلعت السيّدة مايرسوفا ذلك وهي تُقلّب الكومة الرابعة: "شخص ما سيعارضك، رجل ما، مسنّ.."

صاحَت السيّدة ماك ليري: "والدي ربمّا".

أشارَت السيّدة مايرسوفا بروحٍ احتفالية إلى الكومة الخامسة: "هه ! ها هو الموضوع أمامنا هُنا. الآنسة العزيزة جونيسوفا، هذه أجمل ورقةٍ رأيتها في أيّ وقت من الأوقات. سيتم عرسك خلالَ مدّة أقصاها عام. ستتزوجين رجلاً شاباً وغنياً جداً جداً، رُبمّا مليونيراً أو تاجراً، لأنّ هؤلاء كثيراً ما يُسافرون. لكن إلى أن يتحقق الأمر، يتوجّب عليك تَخطّي عقبات كبيرة.. رجلٌ ما.. مسنّ، سيُعارض ذلك.. وعليك أن تُصرّي. عندما تتزوجين، سترحلين إلى مكانٍ بعيد، على الأغلب إلى ما وراء المحيط.. أعطني جنيهاً لصالح البعثة المَسيحية، إلى البؤساء السود".

قالت السيّدة ماك ليري، وهي تُخرِج جنيهاً وشلناً واحداً: "لو تعلمين كم أشعر بالإمتنان لك.. لكن! أرجوك يا سيّدة مايرسوفا، كم يُكلّف الأمر للحيلولة دون تلك المعارضة؟"

عقّبت العجوز باعتزازٍ: "الأوراق لا يمكن رشوتها، من يكون والدك؟"

"من البوليس"، كذبت السيّدة الفتيّة بوجه بريء: "إنّه في القسم السرّي".

"ها.. هه"، قالت السيّدة العجوز وأخرجَت من الأكوام ثلاث أوراقٍ:

Twitter: @ketab_n

"طالع سيء. أخبريه ياطفلتي العزيزة أنّ خطراً كبيراً يُحيق به. عليه الحضور هُنا ليعرف المزيد. يَعودني الكثير من رجال سكوتلانديار لأقرأ لهم الورق، ويُسرّون لي بكل ما يجول في خاطرهم. إذن، كلّ ما عليكِ أن تَبعثي به إليّ.. تقولين أنّه في القسم السياسي؟ السيّد جونسن؟ قولي له بأني بانتظاره. وداعاً أيّتها الآنسة العزيزة جونيسوفا. من التالي!"

"إنّ هذا لايعجبني"، قال السيّد ماك ليري وهو يحكّ مؤخرة رأسه مُستغرِقاً في التفكير: "إنّ هذا لا يعجبني ياكاتيا، فهذه المرأة اهتمت بوالدك المرحوم كثيراً. عدا ذلك إنّ اسمها ليس مايرسوفا، بل مايرهوفيروفا، وهي من لوبيك.. إنها لألمانية لعينة"، دمدم السيّد ماك ليري: "لكن، كيف نستدرجها إلى.. المصيدة؟ أراهنُ خمسة إلى واحد أنّها تتحرّى بين الناس عن أمورٍ يجب أن لا تعنيها. أتعلمين، سأخبر المسؤولين فوق.. عن الأمر".

وبالفعل، قام السيّد ماك ليري بإبلاغِ من هم فوق، ويالللعجب، فقد اهتموا بالأمر وكان ما كان. أستُدعيَت السيّدة المحترمة مايرسوفا لتمثُل أمام القاضي كيلي.

"هكذا، يا سيّدة مايرسوفا", خاطبَها السيّد القاضي: "بحق الإله! ماذا عن قراءتك للورق؟"

ردّت السيّدة العجوز: "لكن ياعزيزي.. أيها السيّد، على المرء أن يعتاشَ من شيء ما أم لا؟ في مثل هذا العمرِ لن أقوم بالرقص في الملهى".

"هِـ...مْ"، نطق كيلي: "لكن، وردت شكوى بحقك لأنّكِ تقرئين الورق بشكلٍ سيءٍ. السيّدة العزيزة مايرسوفا!.. هذا يعني كما لو أنّكِ تبيعين أقراص ترابٍ بدل الشكولاته.. للناس الحقُّ بقراءة جيّدة مقابل الجنيه الذي تَطلبينه منهُم. أرجوك، كيف بإمكانك قراءة الورق وأنتِ لا تتقنينها؟"

دافعَت السيّدة العجوز عن نفسها: "بعض النّاس لا يحتجون. انظُر! أنا أتنبأ لهم بالمسائل التي يرغبون فيها، وتلكَ السعادة يا سيّدي تساوي

Twitter: @ketab_n

بضع الشلنات هذه. وبالفعل، إنّ الإنسان يصيبُ أحياناً.. إحدى النساء قالت لي: ياسيّدة مايرسوفا، لم يقرأ لي أحد أو يَنصحني كما تفعلين أنتِ. وهي تعيشُ في شارع جونسن وود، وعملية طلاقها من زوجها جارية الآن".

"مهْلكِ"، صَدّها السيّد القاضي: "عندنا هُنا شاهدة ضدك. أخبرينا أيّتها السيدة ماك ليري كيف كان الأمر".

السيّدة ماك ليري أفلتت الكلام بخفّة: "قرأت لي السيّدة مايرسوفا في الورق أنّ عُرسي سيكون خلال عام؛ وأنّ رجلاً فتياً وغنياً جداً سيتزوّجني؛ وأني سأرتحلُ معه إلى ما وراء المحيط.."

"ولِمَ إلى ما وراء المحيط بالتحديد؟" سأل السيّد القاضي.

"لأنّ في الكومة الثانية كانت العشرة الخضراء، وهذا كما تقول السيّدة مايرسوفا يعني طريقاً".

"هذا هراء"، دمدم السيّد القاضي: "العشرة الخضراء تعني الأمل، أمّا ما يعني الطرق فهي الأرضية الخضراء، وفي حال رافقتها السبعة الدينارية تعني طُرقاً عظيمة، تُبشّر بالربح.. ياسيّدة مايرسوفا! لن تتمكني من تفويت الأمر عليّ. لقد تنبّأتِ للشاهدة بأنّها ستتزوجُ من شاب غنيّ بعد عام، لكنّ السيّدة ماك ليري مضى على زواجها من مفوّض الشرطة الرائع ماك ليري سنوات ثلاث. كيف تُفسّرين هذا الهراء يا سيّدة مايرسوفا؟"

أجابت العجوز بهدوءٍ: "لكن، حضرتك، إنّه أمر يمكن حُدوثه. هذه المخلوقة أتتني وقد تَبرّجت بخفّة، وكانت قفّازة يدها اليسرى مُهترئة، مما يعني أنّه ليس لديها وفرة مالية، ومع ذلك تريد أن تكونَ موضع الإعجاب! قالت بأنّ عمرها عشرون عاماً، بينما هي في الخامسة والعشرين".

"أربع وعشرون"، صاحت السيّدة ماك ليري من دون تفكير.

" ليس مهماً. إنها ترغب في الزواج، ولأنّها قدّمت نفسها لي كآنسة، قرأت لها ورق الزواج والعريس الغني. هذا ما تهيّأ لي كأنسب شيء".

Twitter: @ketab_n

لكنّ السيّدة ماك ليري سارعت بالسؤال: "وماذا عن تلك المُمانعة؟ وعن ذلك الرجل المُسنّ؟ وتلك الطريق إلى ماوراء المحيط؟"

"زيادة الخير خيرٌ"، أجابت السيّدة مايرسوفا بكلّ بساطة: "لقاء جنيه كامل يتوجّب على الإنسان قول الكثير".

"يكفي هذا"، قال السيّد القاضي: "سيّدة مايرسوفا، هذه عملة لا تُصرَف عندي. قراءة الورق على هذا الشكل مُجرّد احتيالٍ لا غَير. الأوراق يجب أن تُفهم. صحيح أنّ هناك نَظريّات مختلفة عنها، لكن، وتذكّري ما أقول، لا يمكن بأي حال من الأحوال أن تعني ورقة العشرة الخضراء طريقاً. ستَدفعين خمسين جنيهاً غرامةً، تماماً مثل الذين يَغشّون المواد الغذائية أو يَبيعون أشياء لا قيمة لها. ياسيّدة مايرسوفا! تحوم حولك شبهة مفادها أنّك، عدا ما سبق، تقومين بالتجسس. لكنّي أعتقد أنّك لن تعترفي بذلك".

"إنني متيقّنة كيقيني بأنّ الله رقيبي"، صاحت السيّدة مايرسوفا. لكنّ السيّد كيلي قاطعها قائلاً: "نعم.. نعم، لنترك هذا الموضوع. لكن بما أنّك أجنبية بلا مهنة عاديّة، فإنّ الدوائر السياسيّة تستخدمُ حقّها في طردك من البلاد. وداعاً يا سيّدة مايرسوفا. شُكراً لك أيّتها السيّدة ماك ليري. لكنّي أقول: قراءتك الورق بهذا التزوير ما هو إلّا إيغال في المجون، وتصرف من غير ضمير. تذكّري ذلك ياسيّدة مايرسوفا".

"ماذا أفعل؟" تنهّدتْ السيّدة العجوز: "ألاقي ما ألاقيه، بالضبط، في الوقت الذي بدأت فيه معيشتي تبشّر بالازدهار".

بعد قرابة العام، التقى القاضي كيلي بالمفوّض ماك ليري: "طقسٌ رائع"، قال مُرحّباً به: "وبالمناسبة، كيف حال السيّدة ماك ليري؟"

بدا النكد على السيّد ماك ليري: "إنّما، أتعرفُ يا سيّد كيلي"، قال بارتباكٍ واضح: "هي.. السيّدة ماك ليري.. نحن قد تطلّقنا".

Twitter: @ketab_n

"لا تقُل ذلك!" استغربَ السيّد القاضي: "مثل هذه السيّدة الفتيّة الجميلة!"

"هذا هو بالضبط"، تمتم السيّد ماك ليري: "لكن.. هو.. بلا مُقدّمات.. ذاك الشاب المُتسكِّع.. اقتحم حياتها.. إنّه مليونير أو تاجر من مالبورن.. لقد عارضتها، لكن.." لوّح السيّد ماك ليري في إشارة يأسٍ: "قبل أسبوع، رحلا معاً إلى أستراليا".

Twitter: @ketab_n

مَوتُ البارون غَاندار

"اسمعوا..!" بهذه اللهجة، استَرعى السيد مِنشيك انتباه الحضور، وأخذ يدلو بدلوه في الحديث: "أمسكَ عسس ليفربول بالقاتل، لاشكّ في ذلك. كانت جريمة احترافية، عادةً ما يتم حلّ لغز مَثيلاتها، إذ عندما تحدُث، يقومون بجمع كلّ الأشقياء ذوي السوابق الذين ينعمون بحرية الحركة. والآن! قل لنا يا فلان، ما هي دلائل براءتك؟ إن لم يكن يملكها، فإنه الفاعل. رجال البوليس هؤلاء لا يُحبون التعامل مع قضايا الجرائم التي يَقترفها مجهول، سواء أكان شخصاً عادياً أم أنّ جنابهُ كان صاحب كفاءة عالية. بل في وسعي القول بأنهم يُفضّلون نِسبتها إلى أشخاص مَعروفين لديهم، أي ذوي مكانة في عالم الجريمة. حالما يقع شخص ما بين أيديهم، يُقيّدونه، يأخذون بصماته، وعندئذٍ يصبح من جماعتهم، إذ بإمكانهم بثقة العودة إليه لدى حدوثِ أي هسهسة في المدينة. إنّهم يتوجهون إليه باعتباره أحد مَعارفهم القدامى، أي كما يعتادُ الإنسان على حَلاقه مثلاً أو على بائع الصحف. الحالة الأسوأ، هي عندما يقومُ شخص ما، فلنقل مثلي أو مثلكم، جَديد في المهنة، أو بلا خِبرة، بارتكابِ عَمل ما، إجرامي. عندها يصعب على رجال البوليس إلقاء الضوء على الجريمة وإثباتها.

لي قريبٌ يعمل في إدارة البوليس، يُسمى المستشار بيتر، إنه عمّ زوجتي. يقول السيد بيتر هذا أنه لو كانت المسألة مَسألة سرقة، فإن الفاعل مُحترف. أمّا عندما تكون جريمة قتل، فهو على الأغلب أحدُ افراد العائلة. للسيد بيتر هذا وجهات نظر ثابتة؛ مثلاً هو يدّعي أن الإنسان نادراً ما يقتلُ شَخصاً غريباً، لأن هذا ليسَ سَهلاً. بين المعارف، يمكنه على الأغلب إيجاد فرصة. أما بين الأهل، فعادة ما يكون الأمر مَقروءاً كالكف.

Twitter: @ketab_n

عندما يُعهَدُ إلى السيد بيتر التحقيق في جريمة قتل، يحرص على السؤال: من الذي أمكنَهُ اقترافها بأقل ما يمكِنُ من المصاعب؟ وبعدها، يَجري وراء هذا الخيط. يقول لي: "أعلم يا مينشيك، إني لا أتمتع بأي قدرٍ من الخيال أو النباهة، ويمكنُ لأيّ من أفراد جهازنا أن يؤكد لك أني أكبر طبلٍ في المركز. لعلمك، إني مُتخلّف مثل ذاك القاتل؛ كل ما يخطر لي من دوافع وخطة وتنفيذ، يكون على القدر نفسه من العاديّة والبساطة والغباء مما يتّصفُ به القاتل، ولأن الأمر كذلك، فإني غالباً ما أنجحُ في حلّ لغز الجريمة".

لستُ أدري إن كان أحدكم يتذكّر حادثة قتل ذاك البارون الأجنبي غاندار، وقد كان من نوع المُغامر السرّي. كان ذا شَعر كشعر الغراب الأسود، وَسيماً كالشيطان، سكن إحدى فلل مَنطقة جريبوفكا. أمّا ما كان يَجري مع مرور الوقت هُناك؛ فحدّث ولا حرج. ذات صباح، سُمع في مُحيط تلك الفيلا صوت طلقتين من مُسدس. حدثَ ضَجيج ما، وبعدها وجدوا البارون في حديقة الدار مَقتولاً بالرصاص. مِحفظة نقوده الصدرية اختفت، وما عدا ذلك لم يبقَ في المكان أي أثر ذي شأن. باختصار، حادث غامض من الدرجة الأولى. استلمَ عمي بيتر القضية، إذ لم يكُن مَشغولاً حينها بأي شَيء آخر، لكن رَئيسه قال له: "السيد الزميل، رغم أن هذا الحادث يَختلفُ عن نموذجك المُعتاد، فهي فُرصتك لإقامة الدليل على أنكَ لم تنضُج بعدُ بما يكفي لكي تُحال إلى التقاعد". عندها، دمدم العم بيتر متبرماً وقال له بأنه سيعملُ ما في وسعه، ثم اتّجه إلى مكان الحادث. طبعاً، لم يجد هُناك ما يساعده. شَتم المخبرين وعاد إلى مكتبه، جلس إلى طاولته وأشعل غليونه ذي الرأس الطويل. كلّ من رأى السيد بيتر عبر سحابة دخانه ذي الرائحة الكريهة، أمكنَهُ الاعتقاد أنّه يفكّر في القضية التي أوكلت إليه، لكن ذلك سيَكون مُجرّد سوء تقدير. العم بيتر لم يكُن يفكر، لأنه كان يستبعدُ ذلك أساساً، وطالما ردّد: "القاتل أيضاً لا يُفكّر، هو إمّا أن يخطُر على باله القتل أو لا يخطر".

الآخرون في مركز البوليس أسِفوا لحالة بيتر، قالوا بأن هذه القضية

Twitter: @ketab_n

ليست له، وأن من الخسارة أن تُعطى لبيتر، وهي التي تملك تلك الحيثيات الجميلة. بيتر تليق به حوادث قتلِ الجدّات على أيدي أقاربهنّ أو عُشّاق خادماتهن. وهكذا، فإن مُفتّش البوليس مايزليك، زميل عمي، ذهبَ إليه وكأنّما بشكلٍ غَير مقصود، جلس على الطاولة وقال: "ماذا بعدُ أيها السيد المُستشار، ما الجديد في قَضية غاندار هذا؟"

أجاب العم بيتر: "رُبّما يكون له ابن أخ أو أخت، أو قريب ما".

قال الدكتور مايزليك مُحاولاً مساعدته: "أيها السيد المستشار، إنه لحادثٌ مختلفٌ قليلاً. ليكن مَعلوماً لك أن البارون غاندار كان جاسوساً عَالمياً كبيراً. مَن يدري أي أمور غامضة تَجري هنا. إني لا أستسيغ مَسألة أنّ محفظة نقودهِ قد فُقِدَت منه. لو كنت مكانك، لحرصتُ على جمع المعلومات".

هزّ العم بيتر رأسه تَبرّماً، وقال: "أيها السيّد الزميل، لكلّ منا طُرقه. يجب أولاً التحرّي عمّا إذا كان له بعضُ الأقرباء الذين بإمكانهم وراثته".

تابع الدكتور مايزليك قائلاً: "ثانياً، مَعروف لنا أن البارون غاندار لاعب قمار من العيار الثقيل، وأنتَ أيها السيّد المستشار لا تختلط بأوساط المجتمع. كل ما تفعله أنك تلعب الدومينو عند منشيك، وليس لك معارف من هذا الصنف. على كل حال، إن شئت، سأستفسرُ عمّن لعب معه في الأيام الأخيرة، أترى، رُبّما تعلّق الأمر بما يُسمى دَيْن الشرف".

تجهّم وجه العم بيتر، وقال: "اسمعْ! إن ما تقترحه لا يُناسبني. أنا لم أعمل يوماً في أوساط تلك الشرائح الاجتماعية الراقية، ولن أفعل ذلك أواخر عمري. دعني من دين الشرف هذا، فأنا لم أتولّ في حياتي قَضية مثل هذه. إن لم تكن هذه جريمة عائلية، فهي جريمة سَرقة، ومن قام بها لابُدّ أن يكون من أفراد البيت، هذا ما يحدثُ عَادة. رُبّما للطباخة ابن أخ، أو أخت أو قريب".

"بل رُبّما سائق غاندار"، عقّب مايزليك هذا، هادِفاً إثارة العم.

Twitter: @ketab_n

هزّ العم رأسه، وقال: "السائقون! هذا لم يحدُث طيلة فترة عملي، ولا أذكرُ أن سائقاً قتلَ بهدف السرقة. السائق يسكر، يسرق بنزين، لكن أن يقتل، هذا ما لم أصادفهُ حتى الآن. أيها الفتيّ مايزليك.. إني أعتمدُ على تجاربي، وحين تبلغُ من العمر ما قد بلغته.."

اضطرب الدكتور مايزليك، وأجاب مُباشرة: "السيد المستشار.. هُناك احتمال ثالث، فقد كانت للبارون غاندار علاقة مع امرأة مُتزوجة، أجملُ امرأة في براغ، وربّما تكون جَريمة بدافع الغيرة".

"هذا يحدث"، وافقه العم بيتر: "تولّيت مثل هذه القضية مرّات خمس، من هو زوج تلك المرأة؟"

أجاب السيّد مايزليك: "تاجرٌ كبير، شركتهُ ضَخمة جداً".

تمعّن العم بيتر بما سمعه، وعقّب: "هذا لا يقودنا لأي شيء. لم يمرّ عليّ حادثٌ قَتل فيه تاجرٌ كبير أحداً. التجار قد يقومون بالاحتيال، أما القتل بدافع الغيرة، فإنه يحدث في شرائحَ أخرى. لا، إنه احتمال مُستبعد تماماً أيها السيّد الزميل!"

استمر الدكتور مايزليك في الحديث: "أيّها السيّد المستشار، أتدري كيف كان البارون غاندار هذا يؤمّن معيشته؟ بالابتزاز! لقد عَرفَ الكثير من الأمور عن.. فلنقل، عن قائمة طويلة من الأغنياء. إنّهُ أمر يدعو للتأمل، من لهُ مَصلحة في.. إحم.. في تنظيف الطريق منه".

عقّب العم بيتر قائلاً: "ها إنّك ترى، لقد مرّ عليّ حادثٌ مُشابه، لكننا لم نستطع إثباته، وكل ما حَصدناه كان خزياً صارخاً. لن أحرقَ أصابعي مرّة أخرى في خيارٍ لا يَتوجّب عليّ سلوكه. يَكفيني اعتبار الأمر جريمة قتل عادية بهدَف السرقة. أنا لا أحبّ مثل هذه الأحاسيس والفضائح المُبهمة. عندما كنت في مثل عمرك، فكّرت أنا أيضاً أني سأنجح يوماً ما في كشف جريمة مُدوّية. هذا شَيء من قبيل الطموح. يا أستاذ!.. الإنسان يتخلى

Twitter: @ketab_n

مع مُرور الوقت عن هذه النزعة، ويتضحُ له أن ما يحدث إنّما هي حالات عادية ليس إلّا".

اعترضَ المُفتش مازليك: "لكن موت البارون غاندار لم يكُن حادثاً عادياً.. لقد عرفته أيها السيّد؛ كان نصّاباً أسود كالغجر.. أجمل وغد رأيته في حياتي. رجل غامض، جنّيّ. لاعب مزيّف، بارون مزيّف. اسمع! مثل هذا الإنسان لا يموتُ ميتة عادية، ولا بجريمة قتل عادية. الأمر هُنا يتعلّق بما هو أبعد.. بمسائل غريبة جداً".

"إذن، ما كان عَليهم توريطي بهذه المهمة"، هَمهم العم بيتر مُتأففاً: "فأنا لست مؤهلاً لمسك قضايا غَامضة.. ما لي ولها؟! إني أحبّ القضايا المُقترفة بسذاجة، والتي تكون واضحة وعادية مثل حَوادث قتل البائعات في أكشاك السجائر مثلاً. افهم يا رجل.. لن أبدأ الآن تعلّم طرق جديدة. طالما أنهم قد أوكلوا لي هذا الحادث، فسَأتعاطى معه بطريقتي الخاصة، وسأعتبرهُ جريمة قتلٍ بغَرض السرقة. لو أنهم أوكلوهُ لك، فسيكون جريمة غامضة، رواية غرامية، أو جريمة سياسية.. إن لك ذَوقاً رومانسياً وقدرة على استخدام الحيثيّات في نسجِ حادثٍ رنّان.. ولكن، ويا للأسف.. إنهم لم يوكلوه لك".

قذف الدكتور مايزليك كلماته بصوت أجش: "اسمع.. هل لديك مانع لو.. بشكل شخصي.. شاركتُ في الموضوع؟ تعرفُ أن لديّ الكثير من المعارف الذين بشكلٍ أو آخر يَعلمون عن غاندار الكثير"، وسارع مضيفاً: "طبعاً سأضعُ معلوماتي تحت تصرفك. سيَبقى الحادث حادثك طبعاً. ماذا تقول؟"

دفع العم بيتر- وقد استُفزّ- بمخاطه إلى مقدمة أنفه، وقال له: "أشكرك بإخلاص، لكن ذلك غير مُمكن أيها السيّد الزميل. إن لك طريقة عَمل تختلفُ عن طريقتي. إنّك ستستخلصُ نتائج تَختلف تماماً عمّا أستخلصه أنا. لا يمكن خلط الأمور بهذا الشكل. ما الذي بإمكاني البدء فيه مع مُخبريك ولاعبيك، سيّداتك الجميلات وتلك الشريحة العليا؟ هذا الأمر

Twitter: @ketab_n

ليسَ لي يا صديقي. طالما أني من سيَتعاطى مع الموضوع، فسينجلي الأمر عن حادثي العادي القذر.. كلّ منا يقومُ بما يتقنه".

قُرع الباب في تلك اللحظة، دخل أحد المخبرين وأعلن: "لقد تحققنا أيها السيّد المستشار من أنّ لحارس فيلا غاندار قَريباً يبلغ من العمر عشرين عاماً، وهو عاطل عن العمل، ويسكن في شارع فرشوفيتسه رقم ١٤٥١، وكان يتواجدُ عند الحارس باستمرار. وللخادمة التي تعملُ هُناك عشيق؛ إنّهُ جندي يُشارك الآن في المناورات".

"شيء حسن"، قال العم بيتر: "أسرعوا إلى قريب الحارس هذا، فتّشوا منزله، واجلبوه إلى هُنا".

بعد ساعتين، كانت محفظة نقود غاندار بين يدي العم بيتر، وَجدوها على سرير هذا الشاب الذي ألقوا عليه القبض بينما كان يَتسكّع لاهياً. وفي الصباح، اعترف بأنه أطلق النار على غاندار ليسرقَ محفظة نقوده التي كان فيها أكثر من خمسين ألف كرون.

"أرأيت يا مينشيك؟" قال لي عمّي بيتر: "إنه حادث يشبهُ بالضبط ذاك الذي جرى لتلك الجدّة في شارع كريمنتسوفا. كان القاتلُ أحد أقرباء الحارس أيضاً. عجبي يا بنيّ!"

أفكّر كيف كان مايزليك سيَتعاطى مع وقائع هذا الحادث لو أنيطَ به! أمّا أنا، فلا أملك ذاك الخيال، تلكَ هي المسألة".

Twitter: @ketab_n

حادثةُ الدكتور مايزليك

قال موظف البوليس، الدكتور مايزليك، للسّاحر المُسنّ مَهموماً: «اسمع يا سيّد داستيخ، جِئتكم في الحقيقة لاستشارة. لديّ قَضية حيّرتني».

أجابه السيد داستيخ: «أخرِج ما في جُعبتك. إذن، بمن تتعلقُ القضية هذه؟»

«بي»، قالها الدكتور مايزليك متنهداً ثمّ أضاف: «كلّما فكّرتُ بها أكثر، ازدادت حيرتي. اسمع! بل وقد يصابُ الإنسان بالجنون بسببها».

سألهُ السيد داستيخ مُحاولاً تهدئته: «من الذي سبّب لك ذلك؟ وماذا فعل؟»

«لا أحد»، ثمّ قذف الدكتور مايزليك بالكلمات: «وهذا هو أسوأ ما في الأمر. أنا نفسي قمتُ بعملٍ استعصى على فهمي».

حاول المسنّ داستيخ طمأنته: «لعلّه ليس سَيّئاً، ما الذي فعلته أيها الفتيّ؟»

أجابهُ الدكتور مايزليك بضبابية: «أمسكتُ لصاً يحترفُ سرقة الخزائن».

«وهذا هو كلّ شيء؟»

«نعم، كل شيء».

«ولم يكن اللص الحقيقي؟» ساعدَ السيد داستيخ مُحدّثه.

«بل كان، واعترفَ. أتدري؟ لقد فتحَ الصندوق العائد للجمعية الخيرية

Twitter: @ketab_n

اليهودية، واسمه روزانوفسكي أي روسينباوم، وهو من مدينة لفوف lvov»، ثمّ ضخّم الدكتور مايزليك صوتهُ: «وجدوا عندهُ مفاتيح وعدّة كسر للأقفال وكلّ شيء».

سألهُ المسن داستيخ: «إذن، ما الذي تريدُ معرفته؟»

أجابَ موظفُ البوليس بانهماك: «بودّي لو عرفتَ كيف أمسكتُ به. صبركم، سأخبركم بالأمر كما جرى. قبل شهر، وبالتحديد في الثالث من آذار، كنت في خفارة إلى مُنتصف الليل. ولا أدري إن كنتَ تتذكر أنّ المطر حينها كان قد استمر بالهطول لليوم الثالث على التوالي. وقتئذٍ، مررتُ لفترة قصيرة على المقهى، وبعدها أردتُ الذهاب للبيت في منطقة فينوهرادي، لكني بدلاً من ذلك سرتُ في الاتجاه المعاكس؛ أي نحو شارع دلاجدينه، وأسألكم ألا تعرفون لمَ سرتُ في هذا الاتجاه؟»

قال السيد داستيخ: «أظن أنّها رُبّما مُصادفة».

«لكن كما تعلمون، في هذا الجو، لا يتسكّعُ الإنسان في الشوارع مُصادفة. يا ليتني أعرفُ ما الذي كنتُ أبتغيه من كلّ هؤلاء الملاعين. ماذا ترى... أيمكنُ الاعتقاد أنه الحدس أو شيء من قبيل التخاطر؟»

قال السيد داستيخ: «ها.. هذا عموماً مُمكن».

عقّب الدكتور مايزليك مَهموماً: «أترى.. تلك هي المسألة. لكن! رُبّما أن الأمر تعلّق بتصوّر لا شعوري دَفعني لاستطلاع ما يجري في (العذراوات الثلاث)».

تذكّر السيد داستيخ: «نعم، تقصدُ ذلك الماخور في شارع دلاجدينه؟»

«بالضبط. هُناك ينامُ هؤلاء اللصوص والنشالون القادمون من بست(*) أو من هاليتش إلى براغ بغرضِ العمل. ونحنُ نعير انتباهاً لتلك

---

*) شطر من العاصمة المجرية: المترجم

Twitter: @ketab_n

المنطقة. ماذا تعتقدون؟ ألم يكن ذهابي هناك عادة بوليسية أمارسُها؟»

«يُمكن ذلك»، قدّر السيد داستيخ: «مثل هذه العادات يقومُ الإنسان بها عادة على نحوٍ ميكانيكي، وخاصة عندما يتملكهُ الشعور بالمسؤولية، ولا شيء غريب في هذا».

استمرّ الدكتور مايزليك في الحديث: «وهكذا أذهبُ إلى شارع دلاجدينه، وأستعرض بالمناسبة قائمة النزلاء في (العذراوات الثلاث)، ثم أكمل طريقي. لكنني أتوقف في آخر الشارع، وأعاود السير في الاتجاه المعاكس. وأسألك: ألا تعرفُ لمَ فعلتُ ذلك؟»

«إنّها عادة،» قدّر السيد داستيخ: «عادة القيام بجولات الخفارة».

وافقهُ موظف البوليس: «إن ذلك ممكن، لكن! لم يكُن لديّ وقتئذٍ خدمة، وإنّما أردتُ العودة لبيتي. رُبّما هو حسّ داخلي».

اعترفَ السيد داستيخ: «تحدثُ مثل هذه الحالات، لكنّ مثل هذا الحسّ ليس غريباً، فمن المعروف طبعاً أن قوى ما عليا تكمُن في الإنسان..»

«باللّعنة»، صَرخ الدكتور مايزليك: «أكانت تلك عادة أم قوة عليا؟ هذا ما أرغب في معرفته! انتظِر..

عندما خطوتُ في ذاك الاتجاه، إذا بشخصٍ ما يظهرُ قبالتي. قد تقولون وما الغريب في الأمر، ألا يمكنُ لكائن من كان وفي أيّ وقت من الأوقات الذهاب إلى شارع دلاجدينه في الواحدة ليلاً؟ لا، لا شُبهة في الأمر. وأنا لم أفكّر بأيّ شيء. لكنني توقفتُ بالصدفة، عند مَلهى لوتسيرنا، وأشعلت مصريّة(*)، أتعلم! نحنُ نقوم بذلك عندما نتقصّد مُراقبة شخصٍ ما. ماذا تعتقدون هل هي مُصادفة أم عادة أم.. جرس خفي؟»

قال السيد داستيخ: «لستُ أدري».

---

*) سيجارة. المترجم»

Twitter: @ketab_n

صرخ الدكتور مايزليك مُنزعجاً: «وأنا كذلك لا أدري، أعود إلى الموضوع، حينما أشعلتُ سيجارتي عند ملهى لوتسيرنا ذاك، كان هذا الشخص يسيرُ بمحاذاتي. وأنا، يا سيدي، لم أنظر حتى إلى وجهه. كل ما هناك أني نظرتُ إلى الأرض بفضولِ الباحث عن شيء، وعندما أخذ هذا الشاب يتجاوزني، بدا شيء ما لا يُعجبني. قلت لنفسي: إلى الشيطان، لابُدّ أن في الحكاية شيئاً ما ليس على ما يرام- لكن ما هو، طالما أني لم أنظر إلى سيادته. وهكذا، بينما كنت أقفُ تحت المطر قرب ملهى لوتسيرنا وأفكّر، خطر لي فجأة: الحذاء! كانَ على حذاء هذا الشاب شيء غريب. ومن لا شيء، وجدتني أقول بصمتٍ مسموع: مسحوق!»

«أي مسحوق»؟ سأل السيد داستيخ.

«ببساطة، مَسحوق. تذكرتُ في تلك اللحظة أنّ مَسحوقاً كان عَالقاً ما بين نعل الحذاء الذي يلبسه هذا الشخص ومتنه».

تساءل السيد داستيخ: «ولماذا لا يجوزُ أن يكون على حذائه مسحوق؟»

قال الدكتور مايزليك مُتوعداً: «انتظر، سينجلي الأمر. لقد رأيتُ في تلك اللحظة أيها السيد، نعم رأيتُ أداة إطفاء للحرائق مُقْتَلعة، يتساقط منها مَسحوق على الأرض. أتعلم، إنهُ ذلك المسحوق الذي يوضع بين صَفائح الفولاذ. وأنا رأيتُ كيف تدوسُ تلك الأقدام على ذاك المسحوق».

«إنّه الحدس»، قرّر السيد داستيخ: «حدس بارع، لكنه عَرَضي».

«هُراء»، قال الدكتور مايزليك: «يا رجل، لو أنها لم تمطِر ما كنتُ حتى لاحظت ذاك المسحوق. لكن، عندما تمطر، فإن المسحوق لا يَبقى عادة على أحذية الناس، أتفهمُني؟»

«إذن، إنّهُ استنتاج استنباطي»، عقّب السيد داستيخ بثقة: «ولقد كان حُكماً سديداً يستندُ إلى التجربة. وما الذي جرى بعد ذلك؟»

باختصار، بعدها رحتُ أتابع هذا الشاب، وكما توقّعت، دلفَ إلى

Twitter: @ketab_n

ماخور (العذراوات الثلاث). اتّصلتُ لأطلبَ اثنين من رجال البوليس السري، ودَاهمنا المكان. وجدنا السيد روسينباوم هُناك، وكذلك المسحوق وعدّة الكسر، مع اثني عشر ألفاً من خزنة الجمعية الخيرية اليهودية. وليسَت المشكلة في كلّ هذا، بل لعلمكُم، كُتبَ في الصحف أنّ بوليسنا برهنَ هذه المرّة على جَاهزيةٍ مَلحوظة! يا لهُ من هُراء! فأنا لو لم أذهَب إلى شارع دلاجدينه، ولو أني لم أنظُر بالصدفة إلى حذاء ذاك الشقي.. لأنهُ»، أكمل الدكتور واجماً: «هل كانت تلك صدفةً لا غير؟ تلكَ هي المسألة».

أشار السيد داستيخ عليه: «دعكَ من ذلك أيها الرجل الفتيّ. لقد كان نجاحاً تستحقُ عليه الثناء».

انفجرَ الدكتور مايزليك قائلاً: «الثناء!» ثم أخذ يُهمهم: «كيف سأثني على نفسي يا سيدي، وأنا لا أدري من أجل ماذا! أمن أجل شفافية تحريريّ الرائع؟ أم على عادات البوليس الروتينية؟ أم من أجل الصدفة السعيدة؟ أم على حدسٍ وتخاطرٍ ما؟ انظُر، كان هذا أول حادثٍ كبير لي. يجبُ على الإنسان التمسك بشيء ما. أليس كذلك؟ لنفترض أنهم سيعهدون لي غداً بمهمة التحقيق في جريمة قتل. حينها، ما الذي عليّ فعله يا سيد داستيخ! أن أركض في الشوارع وأنظُرَ بتمعّن إلى أحذية الناس؟ أم أنّ عليّ السير هائماً وانتظار هاجسٍ ما أو صوتٍ داخلي ما يقودُ إلى القتال مباشرة؟ كما ترى، هُنا تكمن المسألة. كل رجال البوليس يقولون الآن: مايزليك هذا.. إنّ له أنفان بوليسيان.. سيكونُ لهذا الفتيّ، ذي النظارات، شأن. إنهُ محقق بوليسي موهوب. إنها لحالة يائسة، يجب أن يكونَ للإنسان أسلوب ما. في القضية الأولى التي توليتها، كنت أؤمنُ بكل طرقِ الملاحقة والتجربة والتحقيق المُحكمة، وما إلى ذلك من التوافه. لكنني الآن، وأنا أراجع هذا الحادث، أرى أنّ..»

ثم، وبنوعٍ من الارتياح، تفوّه الدكتور: «اسمع.. لا أعتقدُ أنها كانت مُصادفة سعيدة».

Twitter: @ketab_n

قال السيد داستيخ بحكمةٍ: «يبدو أنها كما تقول، لكن مع ذلك كان في هذا الأمر شيء من المُلاحظة الجيدة، ومنطق من نوع ما».

«والروتين الميكانيكي»، أضافَ الموظف الفتيّ بلا حماس.

«والحدس، وكذلك قليل من نعم البصيرة والسليقة».

تأوهَ الدكتور مايزليك: «يا إلهي، ها إنك ترى.. يا سيد داستيخ، هل عليّ الآن فعل شيء ما؟»

أعلنَ السيد النادل: «يُرجى من السيد الدكتور مايزليك التوجه إلى الهاتف، مدير البوليس على الخط».

دندنَ الدكتور مايزليك باكتئاب: « هذا ما قلتهُ لك»، وتوجّه إلى الهاتف. وعندما انتهى من المُكالمة بدا لونه شاحباً، وبحالةٍ عَصبية، لقد صاحَ متكدّراً: «الحساب أيها السيد النادل. كما توقّعتُ، لقد وجدوا أجنبياً ما مقتولاً في الفندق، سأهرعُ لكي..»، وذهب.

بَدا الأمرُ وكأن هذا الرجل الفتيّ النشِط قد انتابهُ الفزع.

Twitter: @ketab_n

حِكاية جنائيّ مُسِن

"لا غرابة"، قال السيّد ياندِيرا الكاتب: "فمطاردة السارق أمرٌ نعرفه، لكن من غير المألوف أن يقوم السارقُ بالبحث عمّن سرقه. لعلمكم، لقد حدثَ هذا الأمر مَعي شخصياً. كتبتُ قصّةً وقدّمتها للنشر، وعندما قرأتُها مَطبوعة، داهمني شعور غير مُريح. قلت لنفسي: يا رجل.. لقد قرأتُ يوماً ما شيئاً مُشابهاً لها. احتدمَت في داخلي رَغبة لمعرفة من هو صاحب تلك المادة الأصلي. أيّام ثلاثة وأنا أسيرُ كعنزة ضائعة دون أن أهتدي لمعرفة من هو الذي- كما يُقال- استعرتُ منه هذه المادّة. أخيراً، التقيتُ بصديقٍ قلت له: يتهيّأ لي يا رجل، أنّ قصّتي الأخيرة مَسروقة من شخصٍ ما. أجابني صديقي: عرفتُ ذلك من النظرة الأولى، لقد سرقتها من تشيخوف. عندها ارتحتُ قليلاً. وفي حديثٍ لي لاحقاً مع أحد النّقاد قلت: قد لا تصدّق يا سيّدي أنّ الإنسان ينتحلُ أحياناً أفكارَ غيره، دون أن يدري. قصّتي الأخيرة مثلاً كانت مَسروقة. قال لي الناقد أنّه يعرف ذلك الأمر، إنّها من الكاتب موبيسان.

وهكذا، مررتُ بكلّ أصدقائي الطيّبين مُكرّراً على مسامعهم: "عندما يجدُ الإنسان نفسه مرّة وقد سارَ على طريق الجريمة الملتوي، فإنّهُ لا يعرف متى سيتوقّف. تصوّروا أنّ القصّة نفسها قد سرقتها أيضاً من جوتفريد كيلر، ديكينز، دانونزيا، ألف ليلة وليلة، شارل لويز، فيليب، هامسون، ستورما، هاردي، أندرييف، باندينبلي، روسيجررايمونت، وقوائم عديدة من غيرهم من الكتّاب. مِن هُنا، يتّضح كيف يسقطُ الإنسان في الشرّ، ثمّ ينحدرُ أعمق فأعمق".

"هذا لاشيء"، قال ذلك رجل مُسنّ من الشرطة الجنائيّة ويُدعى السيّد

Twitter: @ketab_n

بوبك، وهو يسعل سعالاً قوياً مَصحوباً بخرخشة في الصدر: " يُذكّرني هذا الأمر بحادثِ قتلٍ عُثر فيه على الجاني دون التمّكن من إثبات أيّ جريمة قتلٍ عَليه. وحتّى لا تأخذكم التصوّرات بعيداً، أقول أن لا علاقة لي بهذا الأمر، كلّ ما في الأمر أني عشتُ نصف عامٍ في المركز الجنائي نفسه الذي تواجدَ فيه الجاني. كان ذلك في باليرمو"، أوضح السيّد بوبك الأمر بتواضعٍ: "كنتُ هناك بسبب حقيبةٍ استلمتها في مركب يُبحر من نابولي. حدّثني كبير الحُرّاس في هذا المركز عن حالة الجاني، أمّا أنا فعلّمته لعب الورق، مثل لعبة فرانتسفوس(*) والهويست والجوتيسك(**) أو كما تُسمّى لعبة مباركة الرب، فهذا الحارس إنّما هو رجل متديّنٌ.

في إحدى الليالي، لاحظ أفراد شرطة الحراسة- وهم في ايطاليا يسيرون أزواجاً باستمرار- كيف أنّ شخصاً ما يندفع بكلّ ما أوتي من قوّة راكضاً على طريق فيابوتيرا التي تؤدي إلى الميناء، حيث تنبعث روائح كريهة. لقد أمسكوا به.. وياللعنة.. كانت بيده مديةً ملطّخة بالدم، وطبعاً، اقتادوه إلى مركز الشرطة. والآن.. قُل لنا أيّها الفتى، من الذي قد طعنته؟ شرع الشّاب في البكاء، وقال: لقد قتلتُ إنساناً، ولن أزيد على قولي هذا شيئاً، فإنّني إن فعلتُ ستحلّ التعاسة بأشخاصٍ آخرين. وهكذا، لم يحصلوا منه على المزيد.

الأمر واضحٌ. بُدِءَ مُباشرة في البحث عن جثة ما، لكن لم يُعثر عليها أبداً. ثُمّ أمروا باستعراض قائمة الأعزّاء الذين تمّ الإعلان عن موتهم في تلك الفترة، فاتضح أنّ جميعهم قد ماتوا على الطريقة المسيحيّة بالملاريا وما شابه ذلك. هُنا، عادوا إلى الشّاب من جديد، وقد أفادهم أنّ أسمه ماركو بياجيو من كاسترو جيوفاني؛ وأنّه نجّارٌ ماهر؛ وأنّه قد طعن شخصاً مَسيحياً عشرين طعنة فقتله. لكن! من هو هذا الشخص؟ لن يقول! لئلا يقودَ آخرين إلى مُصيبة. وهذا هو كلّ شيء. خلاف ذلك، طلبَ أن يُنزل

---

*) لعبة ورق انتشرت قديماً.-م.

**) نوع من ألعاب المقامرة.-م.

Twitter: @ketab_n

به عقابٌ إلهيّ، وأخفضَ رأسه نحو الأرض. قال الحارس: إنّ أحداً لم يَرَ مثل هذا الندم منذ نشأة الخليقة.

شرطة الحراسة هؤلاء، لا يُصدّقون بالطبع أيّ كلمة يقولها الإنسان. قالوا: ربمّا أنّ ماركو لم يقتل أحداً، وأنه ببساطة يكذب، لهذا أرسلوا المدية إلى الجامعة التي بدورها أجابت بأنّ على المدية دَم بشري، ولابدّ أنها قد اخترقت القلب. بحقّ السماء! كيف يمكن التحقق من ذلك؟ لستُ أدري. على كلّ حال، ما الذي كان يتوجّب عليهم فعله؟ الجاني عندهم، لكنّ لم يتم الكشف عن الجريمة، ومن غير الممكن تقديم إنسانٍ أمام المحكمة بسبب جريمة غير مَعروفة. وكما تعلمون، يجبُ توفر حيثيّات الجريمة. اقتصر ما فعله ماركو حتى الآن على الصلاة والبكاء، والرجاء أن يتم تقديمه للمحاكمة كي ينالَ عقاب خطيئته القاتلة. قالوا له: يا خنزير، طالما أنّك تريد من العدالة أن تقاضيك، يتوجّبُ عليك الاعتراف من الذي قد قتلته، فنحن لا نستطيعُ تعليقك على الحبل هكذا ببساطة، لذا سمٍّ لنا أيّها البغل الخائب، بعض الشهود على الأقل. لكنّ ماركو صرخ: أنا نفسي شاهدٌ، وأقسَمُ بأني قتلتُ إنساناً. هكذا جَرت الأمور.

أخبرَني الحارس بأنّ ماركو هذا، كان إنساناً وسيماً ولطيفاً، وأنهم طوال حياتهم لم يُصادفوا قاتلاً خلوقاً مثله. ومع أنّ ماركو لم يكن يعرف القراءة، فإنّ الإنجيل كان بيدهِ دائماً، حتّى ولو بشكلٍ مقلوب، وكان يبكي فوقه. وهكذا، فقد أرسلوا له كاهناً طيّباً كي يقوّيه روحياً، وليجرّه بمهارة للإدلاء بمعلومات عن هذه الجريمة؛ ماذا وكيف. لكنّ الكاهن هذا، عاد من عند ماركو وهو يجفّف دموعه، قال: إن لم يَفسُدْ ماركو على نحوٍ أو آخر، فستطاله مغفرة كبيرة، وأنّه روحٌ مُتعطّشةٌ للعدالة. لكن، ما عدا تلك الأقوال والدموع، لم يحصل الكاهن منه على زيادةٍ تُذكر. قال ماركو: ليس لديّ ما أقوله بعد، فليشنقوني لأعاقب على ذنبي الفظيع هذا، فالعدالة أمرٌ لابُدّ منه- استمرّت الأمور على هذا المنوال أكثر من نصفِ عام ولم يُعثر أبداً على أيّ جثّة ذات علاقة.

Twitter: @ketab_n

أمّا وقد بدا موقف ماركو لهم كضربٍ من الغباء، فإنّ رئيس الشرطة موردیانو قال: بما أنّه يُريد أن يُشنق، وبأيّ ثمن، فلنلصق به تهمة الجريمة التي حدثَت في أرينيلله قبل ثلاثة أيّام من اعتقاله، حيث وجدوا تلك العجوز المقتولة. إنّه الخزيّ بعينه، عندنا هُنا قاتل بدون قضيّة قتلٍ، وبدون جثمان الضحيّة، وهُناك جريمة قتلٍ واضحة من دون جَانٍ. طبّقوا الأمور على بعضها بشكل من الأشكال، طالما أنّ ماركو هذا يريد أن يُدان، فليس مُهماً من أجل ماذا، أمّا نحن فنكافئه على نحوٍ ما، إذا ما اعترف بقتل العجوز. لقد اقترحوا هذا الأمر على ماركو، ووَعدوه بأنّهُ سيُربط إلى الحبلِ في أقرب وقتٍ مُمكن ويرتاح، لكنّ ماركو الذي تردد للحظات سارع إلى القول: لا، لقد أضعتُ روحي بجريمة قتلٍ، ولن أُثقلَ عليها أكثر بمثل هذه الخطايا القاتلة من كذبٍ واحتيالٍ وشهادة زور. هكذا كان ماركو يا سيّدي.. رجلاً عادلاً.

لم يعُد بالإمكان الاستمرار على هذا النحو، لذا حَصَرَ رجال الشرطة الجنائية تفكيرهم في كيفيّة التّخلص من ماركو الخائب هذا. قالوا لسجّانه: أتدري.. افعلْ شيئاً ما يُتيح لماركو الهرب، فنحن من جهة، لا نستطيع تقديمه إلى المحكمة، لأنّ الأمر سيكون مَدعاة للخزي، ومن جهة ثانية لا يُمكننا إطلاق سَراحه وقد اعترفَ لنا بجريمة قتلٍ. اعملْ، لكن مواربةً، على أن يختفيَ هذا الأسقف المنحوس(dio cane maledetto) . ولعلمك أيّها السيّد، فقد أخذوا منذ ذلك اليوم يرسلون ماركو هذا بدون حراسةٍ لشراء الملح والخيطان، ويُبقون باب زنزانتهِ مُشرّعاً على مِصراعيه ليلاً ونهاراً. من جهته، أخذ ماركو يقضي نهاره بزيارة الكنائس وكلّ القدّيسين، وفي المساءِ كان لسانه المُندلق من فمه المفتوح، يُشير إلى لهاثه وتسارع خطاه كي لا يُغلقوا باب السجن أمامه في الثامنة مَساءً. ومرّةً من المرّات، أغلقوه عن عمدٍ، قبل الوقت المُحدّد، ويا ويلتي.. أقام الدنيا ولم يُقعدها، ضربَ على الباب بقوّةٍ، بحيث اضطرّوا لفتحه كي يتمكّن من الدخول إلىٰ زنزانته.

قال الحارس لماركو ذات مرّة: أيّتها "الـ.. الخنزيريّة" (porca madona)

Twitter: @ketab_n

أنتَ اليوم هُنا للمرّة الأخيرة، طالما أنّك لا تريد الاعتراف بمن الذي قتلته. سنقومُ بطردك من هُنا أيّها المجرم، اذهَب إلى الشيطان حتى يُعاقبك!

في تلك الليلة، أقدمَ ماركو على شنقِ نفسه في زنزانته.

انتبه! صحيح أنّ الكاهن ذاك كان قد قال: حينما يُقدِم شخص ما على الانتحار بسبب عذاب الضمير، فمن الممكن أن تُغتفرَ له خطيئته، لأنّه إنّما مات وهو في حالة ندمٍ حقيقي. لكن، وعلى الأغلب، فإنّ هذا الكاهن لم يكن مُتأكّداً من ذلك تماماً، لأنّ هذه المسألة مازالت محلّ خلاف. باختصار، صَدّقني أنّ ماركو هذا غدا مَصدر خوفٍ لهم حتى وهو في زنزانته، إذ ما أن يسجنوا شخصاً في هذه الزنزانة حتى يَبدأ ضميره بالتحرّك، ويغدو نادماً على ما اقترفه، ويقوم بالاعتراف، ثمّ يتوب تماماً. لكنّ اهتداء كل واحدٍ منهم إلى التوبة لم يكن يستغرق طبعاً الوقت نفسه لكلّ حالة. فالجُنحة الصغيرة تحتاجُ ليلة واحدة، والكبيرة من يَومين إلى ثلاثة. أمّا الجريمة، فقد كانت تحتاجُ ثلاثة أسابيع لكي يهتديَ مرتكبها إلى التوبة. لكنّ أطول مدّة، كانت من نصيب سَارقي صناديق المال الذين يَسلبونه بالاحتيال. وعموماً، أولئك الذين يجنون مالاً كثيراً. أقول لكم أنّ الأموال الطائلة تُثقل الضمير أو تعطّله. أكثر الأيّام وقعاً كان يوم ذكرى موت ماركو. إنّهم في باليرمو، قد جعلوا من تلك الزنزانة مَكاناً للإصلاح، أتعرف! لقد سجنوا هُناك المحكومين ليندموا على ما اقترفوه من أفعال، ولكي يَعودوا إلى التّوبة. وأنتَ تعلمُ أنّ لدى البعض منهم واسطة، والبعض الآخر هم من الأوغاد الذين يحتاج إليهم رجال الشرطة. مفهوم أنّهم لم يَسجنوا هناك كلّ شخصٍ، وأنّهم في هذه الحالة أو تلك، تركوا البعض دون أن يَتوبوا، وأعتقد أنّهم كانوا يَرتشون من الأوغاد الكبار مُقابل ألّا يدخلوهم لهذه الإصلاحيّة غريبة التكوين.. حتى في المعجزات لا توجد أيّ نزاهة.

وهكذا، يا سيّدي، إنّ ما أخبرني به كبير الحرّاس في باليرمو أكّده لي زملاؤه الموجودون هنا. فقد جلس في هذه الزنزانة بحّار انجليزي

Twitter: @ketab_n

بسبب الزعرنة والشِجار، لكنّ بريغِس هذا خرج من تلك الزنزانة مُباشرة إلى فورموس كمبشّرٍ. وكما تناهى لي، في وقت لاحق، فقد ماتَ هُناك موت النُّسّاك. وكم بدا أمر الحرّاس غريباً، إذ لم يشأ أيّ منهم الدخول إلى زنزانة ماركو، لأنّهم إنّما يخشون أن تنالهم المغفرة، وبالتالي أن يندموا على أفعالهم.

كما أسلفت لكم، فقد علَّمتُ كبير الحُرّاس هذا، بعض ألعاب المقامرة بالورق. لقد كان ينتابه التوتر عندما يخسر. وفي إحدى المرّات، أتتهُ ورقة سيّئة جداً، فاستشاط غضباً وصاح بي: إلى الشيطان أيّها العربيد، سألقّنك درساً لن تنساه، وزجّ بي في زنزانة ماركو، حيث استلقيت فيها وغفوت. في الصباح، استدعاني هذا الحارس وقال: ماذا؟ هل تغيّر حالك؟ أجبته: أنا لا أعرف شيئاً أيّها السنيور القائد، فلقد غفوتُ كهدهدٍ. فما كان منه إلّا أن صرخ في وجهي: هيّا.. إلى الوراءِ دُر. لن أُطيل عليك بالكلام؛ أمضيتُ في تلك الزنزانة أسابيع ثلاثة.. ولا شيء. لم أشعُر بالندم ولا هُم يحزنون. لهذا، أخذ الحارس يُحرّك رأسه متعجّباً ويقول: يبدو أنّكم يا معشر التشيك مُلحدون أو هراطقة، إذ لم يكن للزنزانة أيّ تأثير عليك. وأخذ يَرميني بكل أنواع الشتائم.

كما ترى، كفّت زنزانة ماركو منذ ذلك الوقت عن التأثير على نُزلائها، ولم تعُد حالة أيّ شخصٍ أرادوا زجّه فيها، تتحسّنُ ولو قليلاً، بل حتى لم يعُد يشعر بالندم، ناهيك عن عدم اهتدائه إلى طريق التوبة. بوضوحٍ شديد.. لا شيء! وباختصار، لقد كفّت الزنزانة عن التأثير! ويا إلهي.. كأنّ الدنيا لهذا السبب، قامت ولم تقعُد. لقد جرّوني إلى المديريّة بتهمة تَخريب الزنزانة، وكذا وكيت. أمّا أنا، فاكتفيتُ بهزّ أكتافي، هل كنتُ حقاً السبب في خرابها؟! ألا توافقني أم لا ؟ لقد ألقوني في غُرفة مُظلمة لثلاثة أيّام، فأنا حسب ادّعائهم قد خرّبت الزنزانة".

Twitter: @ketab_n

الرّجلُ الذي لم يستطِع النوم

قال السيّد كافكا: "عندما بدأ السيّد دوليجال الحديث عن فنّ حلّ الشيفرة، تَذكّرتُ فعلةً ماكرةً ارتكبتُها بحق زميلي موسيل، الدّاهية والمُتعلّم لدرجة غير عاديّة، لكنّه من نوع المثقّف الذي يَرى في كلّ شيء مُشكلة، ويتطلّع لاتّخاذ موقفٍ خاص به تجاهها. على سبيل المثال، له موقفٌ حتى من زوجته؛ إنّه لا يعيش الحياة الزوجيّة بل مشاكلها ليس إلّا. وزيادةً، فهو يُقرّ بالقضية الاجتماعيّة وبقضايا الجنس، بمشاكل قلة الوعي والتربية، وبأزمة الثقافة المُعاصِرة وغيرها الكثير. هذا النوع من الناس الذي يرى في كلّ شيء مُعضلة لا يمكن احتماله؛ مثله تماماً مثل أصحاب المواقف المُسبَقة. أمّا أنا، فلا أحبّ المشاكل. وإذا ما تعلّق الأمر بي، فالبيضة هي البيضة، وإذا ما بدأ أحدهم يُحدّثني عن مشكلة البيضة، فسأرتابُ بأنّها فاسدة. أوردتُ ماسبقَ لتعرفوا أيّ شخصٍ يكون موسيل هذا.

مَرّة، قُبيل عيد الفصح، خطر لزميلي موسيل أن يذهبَ إلى جبال كركونوش للتزلّج. ولمّا كان عليه أن يشتريَ ما يلزمه لهذه الرحلة، أعلن أنّه سيتوقف في وقت لاحقٍ لوداع أصدقائه. لكنّ الطبيب ماندل جاء فجأة باحثاً عنه، أتدرون! إنّ هذا الطبيب والكاتب المعروف، والّذي هو من طينة عنكبوت فريد، أكد بإلحاحٍ أنّه بحاجة ماسّة للتحدّث مع السيّد موسيل. أجبتُه أنّه ليس موجوداً هُنا، وأنّه ربّما يُطلّ علينا قبل سفره، وطلبتُ منه أن ينتظره- عبسَ الطبيبُ ماندل وقال: لا يمكنني الانتظار، لكنّني سأكتب ورقة أخبره فيها عمّا أريده منه- ولهذا جلسَ إلى الطاولة، وراح يكتب.

لاأدري إن كان أحدكم رأى خطاً أكثر استعصاءً على القراءة من خطّ

Twitter: @ketab_n

الطبيب ماندل هذا. إنّه يبدو كخطوط مُسجّلة الزلازل؛ طويلة، ومتقطّعة ومهتزّة حيناً، أو متطاولة بتسنّنٍ حيناً آخر. كنت أعرفُ هذا الخط جيّداً، ولذا وجّهتُ نظري إلى يده بالتحديد، لأرى كيف تتحرّكُ على الورقة. لكنّه عبس وهو يخطّ بيده، وإذ فقد صبره جعّد تلك الورقة وقذف بها نحو السلّة، وقفزَ وهو يتمتم مُتجهماً: سيطول الأمر كثيراً! ثمّ غادر المكان.

تعلمون بأنّ الإنسان لا تنتابه أيّ رغبة بالعمل في اليوم الذي يسبق عيد الفصح، لهذا جلستُ إلى الطاولة وبدأت أخطُّ على ورقة خُطوطاً زلزالية. إنّها خرابيش متموّجة ليس إلّا، تنحو للأعلى هنا، وتنحدر نحو الأسفل هُناك كما خَطر لي. تسلّيت بالأمر لبعض الوقت. وبعد ذلك، وضعتُ الورقة المُخربشة على طاولة موسيل الذي أطلّ فجأة من الباب وهو يحمل أدوات التزلّج على كتفيه، وبدا أنه أصبح جاهزاً لرحلة الجبال، وصاح فرحاً: حان وقتُ انطلاقي.

قلتُ له بلا اكتراثٍ واضح: شخصٌ ما كان هُناك، بحثَ عنك وترك لك رسالة يقول أنّها مهمّة.

أرني إيّاها، قال موسيل مُتلهفاً، ويا سادتي! حملق موسيل قليلاً في إنتاجي ذاك، وقال : أهذه من الطبيب ماندل؟ ما الذي يريده منّي؟

تمتمتُ عابساً: لستُ أدري. لقد كان على عجلة من أمره. لكن لعلمك، ماكنت لأرغب بفكّ طلاسم كتابته أبداً.

من جانبه أعلن زميلي موسيل باستخفاف: أمّا أنا، فأستطيع قراءة خربشاته. جلس إلى الطاولة واضعاً أدوات التزلّج إلى جانبه. همهم لبعض الوقت، وأخذ وضعيّة بالغة الجدّية. لقد كانت نصف ساعة من صمت القبور، وأخيراً تنفّس الصعداء، وقال وهو ينهض: لقد تعرّفتُ على أوّل كلمتين, وهكذا أيّها السيّد العزيز، يجبُ عليّ الآن الانطلاق نحو المحطّة بسرعة. سآخذ معي هذه الرسالة، سيكون فيها شيطان إن لم أستطع فكّ طلاسمها في القطار خلال سفري.

Twitter: @ketab_n

عاد بعد رأس السنة من رحلته الجبلية. سألته: كيف كانت رحلتك؟ لابدّ أنّ الطقس في الجبال رائع في هذا الوقت، أليس كذلك ياموسيل؟

لكنّ موسيل لوّح بيده، وقال: لا أعرف. أعترفُ لك أني قضيتُ الوقت كلّه في غرفة الفندق، وحتى أني لم أطلّ على الخارج، لكن الناس قالوا بأنّه كان رائعاً.

قُلت بتعاطفٍ: ما الأمر؟ هل أصبت بمرضٍ؟

قال موسيل بتواضع مصطنع: لا، قضيتُ معظم وقتي أفكّ رموز رسالة ماندل، ثمّ أضاف بلهجة الظافر: ولعلمك، نجحتُ في ذلك. كلمتان أو ثلاث فقط لم أتمكّن من قراءتها حتى الآن. لقد جلستُ طوال الليالي مُحاولاً فهم الرسالة، وكنت حشوتُ دماغي بفكرة فكّ رموزها، وقد فعلت.

أمّا أنا أيّها السادة، فلم أملك الشجاعة لإخباره بأنّ هذه الرسالة ليست إلّا خربشاتي وحسب. لكنني سألتهُ مُتظاهراً بالاهتمام: أكانت تلك الرسالة مهمة؟ أتستحقّ كلّ هذا الجهد؟

ليست المسألة على هذا الوجه، أجابني موسيل بفخرٍ، إنّ وجهاً آخر للموضوع قد حاز اهتمامي، ألا وهو دراسة الخط بوصفهِ تعبيراً عن شخصيّة الكاتب. الطبيب ماندل يطلب منّي في تلك الرسالة إعداد دراسة خلال أربعة عشر يوماً عن.. وهذا بالضبط مالم أستطع قراءته، ثمّ يتمنّى لي أعياداً سعيدةً وإقامة طيّبة في الجبال. عُموماً، هذا ليس مُهماً، لأنّ خياري أيّها السيّد قد مثّل عين العقل- فالإنسان لا يمكنه تنشيط روحه بأيّ سبيل، مثلما يُنشّطها بهذه الطريقة- ولا بأس حتى إن تطلّب الأمر منّي قضاء بضعة أيّامٍ وبضع ليالٍ.

ما كان لك أن تقوم بهذه الفعلة تجاهه، قال لي السيّد باولوس بلهجة انتقاديّة: لو تعلّق الأمر ببضعة أيّام فليأخذها الشيطان، لكن ماذا عن تلك الليالي التي قضاها بلا نومٍ. إنّها لخسارة، فالنّوم أيّها السيّد، ليس راحة

Twitter: @ketab_n

للجسد فقط، وإنّما هو بمثابة جَلي وغفرانٍ ليوم سبقه. النّوم رحمة فريدة، بعد أوّل دقائقه تغدو الروح نظيفة وبريئة كطفلٍ.

أعرفُ ذلك، لأني فقدتُ النوم لفترة من الزمن، ربمّا كان ذلك نتيجة لحياتي الفوضوية، أو أنّ شيئاً ما في داخلي لم يكن على ما يُرام، لست أدري؛ كنت كلّما أستلقي على السرير وأحسّ بأوّل إشارات النعاس، يَطفو شيء ما من داخلي منبّهاً، فأجلس بعدها ساعات وساعات مُحدّقاً في الظلام إلى أن يبزغ الفجر. استمرّت هذه الحالة معي طوال العام، عامٌ من دون نوم.

عندما لا يستطيع الإنسان النّوم، فإنّ أوّل حلٍّ يلجأ إليه هو ألّا يُفكّر بأيّ شيء. لهذا يقوم بالعدّ أو الدعاء، ثمّ دفعة واحدة يخطر له: يا إلهي! لقد نسيت البارحة فعل كذا وكيت. بعدها، يتذكّر أنّهم كانوا في المتجر يستغفلونه عند دفعه الحساب، ثمّ يتذكّر أنّ زوجته أو صديقه، بهذه المناسبة أو تلك، قد أجابوا على أسئلته بشكل مُريب، وعندما يَصدرُ صوت ما من قطعة أثاثٍ يعتقد أنّ هناك لصاً ما، عندها تبدأ حرارته بالارتفاع خوفاً وخجلاً، ويتّجه لمراقبة حالة جسمه. وعندما يتعرّق من هول ما يشعر به، يبدأ التفكير بما يعرفه عن التهاب الكلى أو السرطان، ومن لا شيء تطفو على ذهنه حَماقة ما مُتعبة، كان قد ارتكبها قبل عشرين عاماً، وبسببها يتعرق إلى الآن خجلاً. يجابهُ أناه العنيدة والعاصية خطوة فخطوة، يجابهُ نقاط ضعفه وقسوته، ومقته وهوانه، وحماقاته ومراوغاته ومعاناته التي عاشها منذ وقت طويل. يستعيدُ حالات الحرج والذّل والمعاناة التي عاشها في وقت ما، ومن لا يستطيعُ النوم لا يكون مُحصّناً تجاه أيّ شيء. كلّ عالمك يلتوي ويُمسي بآفاقٍ تبعث الألم. المسائل التي كنتَ قد نَسيْتَها تتجهّم في وجهك، كأنّما تقول لك: أيّها المعتوه! لقد تصرّفت حينها "على مايرام"، وتتذكّر كيف أنّ فتاتك؛ حبّك الأوّل عندما كنت في الرابعة عشرة لم تأتِ إلى الموعد؟ لتعلم أنّها كانت تُقبّل شخصاً آخر في ذلك الوقت، نعم، صديقك فويتيخ، وأنّكَ كنت موضع سخريتهم! أنتَ

Twitter: @ketab_n

أيّها الطبل، الطبل، الطبل! والإنسان يتقلّب في سريره مُستشعراً وخز الندم، يُريد نسيان الماضي، يا للعنة! لم يعُد هذا يعني لك شيئاً.. ما كان، قد كان وكفى! ليكن بعلمكُم، هذا ليس صَحيحاً، فكلّ ما كان مازال على حاله، وما تجهله مازال قائماً، وأنا أعتقدُ أنّ الذاكرة تستمر بعد الموت.

السادة الأصدقاء، أنتم تعرفونني قليلاً. تعرفون أني لستُ نكوداً ولا سوداوياً، لست كثير الشكوى وما أنا بالمُتشائم، لست توّاقاً للمشاكل ولست عنيداً، لست مُستدعي الأهوال ولا مهيض الجناح، ولست إنساناً مقيتاً. أحبّ الحياة والنّاس ونفسي. أندفعُ كمجنون نحو كلّ شيء. أعترضُ قضية ما بسرورٍ. باختصار، إني شخص عاديّ كما يليق بشاب ويلائمه. وحتى عندما كنت أفقد النوم، كنت في النهار أسعى، وأتابع نشاطاتي بهمّة وأهرول مُنتقلاً من واجبٍ لآخر، وتعرفون أني أتمتّع بشخصيّة حيويّة. لكن، ما أن أدخل إلى سريري وأبدأ ليلة سُهدي، حتى تَزدوِج حياتي. هُناك كانت حياة تضجّ بالحيويّة، حياة شابٍ ناجحٍ، مُعجَب بنفسه وذي عافية، كلّ أموره تسيرُ على ما يرام بفضل حيويته وحبوره الفيّاض. لكن هُنا، على هذا السرير، اضطجَعَ إنسان مُنهَك، يستذكرُ بمرارة إخفاقاته وقذارة حياته وعارها ومذلتها كلّها. لقد عشتُ حياتين، لم تلتقِ أيّ منهما بالأخرى، وكانتا شديدتي الاختلاف. حياة يوميّة عناصرها النجاح والنشاط والصلات الإنسانية والثقة والعقبات المسلّية وتلك البُدع العاديّة؛ حياة كنتُ على طريقتي الخاصة سعيداً بها، ومتصالحاً معها، وراضياً عنها. لكن! ليلاً كانت الحياة الثانية تأخذُ مجراها؛ لقاءات الآلام والتردد، حياة إنسان لم يُفلح بأيّ شيء، إنسان جرت خيانته من الجميع، وهو نفسه من تصرّف، على نحوٍ سيء، بضيق صدر وغباء. إنسان مَغبون في كل شيء، مَعتوه، مأساوي، يكرههِ ويخذله كلّ واحد. صفيقٌ وخاسر، ينتقل من مُصيبة لأُخرى. كانت كلّ واحدةٍ من تلك الحياتين مُثابرة، مترابطة وكاملة؛ عندما كنت أعيشُ إحداها، كانت الأخرى تتراءى لي كأنّها تليق بآخر، وأنّ أمرها لا يخصّني، أو أنّها بعيدة ليس إلّا، وأنّها خذلان للنفس ووهم. في

Twitter: @ketab_n

النهار، كنت أعاشرُ الناس. وفي الليل، أتشكك وأمقت. في النهار، عشتُ حياتنا نحن البشر. وفي الليل، عايشتُ نفسي وحدها. ومن يحصر تفكيره بنفسه، يخسر العالم.

هكذا، يبدو لي النوم كمجرى مياه عميق وداكن، يدلف إليه كلّ شيء، ونحن لا نعرف ولا يجب أن نعرف عنه شيئاً. تلك الترسّبات الغريبة التي تسكن داخلنا، تطفو ثمّ تجري في اللاوعي الذي لا شاطىء له. قذارتنا وجُبننا وكلّ الخطايا اليومية والمؤلمة، مَهازلنا وإخفاقاتنا المُذلّة، لَحظة الكذب تلك وغياب الحبّ من أعينِ الذين أحببناهم، الأمور التي كُنّا سَبباً فيها، وتلك التي سبّبها لنا الآخرون، كلّ ذلك يَصبُّ بهدوءٍ في جهةٍ ما، مُلامسة للوعي . النوم رَحيم جداً، يغفر لنا ولِمَن أساء إلينا.

سأخبركم بشَيء: هذا الذي ندعوه حياتنا ليس كلّ ما قد مررنا به، إنّه ما قد اخترناه فقط. أمّا ما قد واجهناه، فهو أكثر بكثير وأكبر من أن يستوعبه عقلنا. ولذا، نختار من هذا الأمر أو ذاك ما يناسبنا ليس إلّا، وبكيفية ما نُخيط به ذاك الفعل البسيط، وهذا الإنتاج ندعوه حياتنا. لكن، أيّ نفايات نخلّفها؟ وماذا عن المسائل الغريبة والمهولة التي نمرّ بها؟ بحق الإله! لو أنّ الإنسان يدركُ ذلك! إنّنا نستطيع عيش حياة بسيطة واحدة لا غير. سيكون فوق طاقتنا عيش ما هو أكثر من ذلك. لو لم نُضِع في طريق الحياة مُعظَمَها، لما مَلكنا القوّة لاحتمالِها".

Twitter: @ketab_n

اعتداءٌ بهدفِ القتل

كان المستشارُ تومسا مُسترخياً تماماً ذات مساء. وبابتسامة ودودة وسمّاعة في أذنيه، راح يُنصتُ لموسيقى رقصات دفورجاك المنبعثة من الراديو. "إنّها موسيقى!" حدّث نفسه بارتياح. وفجأة، دوّى صوت انفجارين في الخارج، وبصَلصَلتِه المُميّزة، تناثرَ زجاج النافذة الواقعة فوق رأس السيّد تومسا الذي كان يجلسُ في غرفةٍ تقع في الطابق الأرضي.

كان ردّ فعله يشبه ردّ فعل أيّ واحد منّا. بداية، انتظرَ للحظات ما الذي سيتلو ذلك، ثمّ نزعَ السمّاعة وتفحّص بإمعانٍ ما قد جرى. بعدها فقط شعر بالخوف، لأنه أدرك أنّ شَخصاً ما أطلق النار على مَوضعين من النافذة حيث كان يجلس، وأنّ على الباب من الجهة المقابلة، شَظيّة زجاج ترقدُ تحتها طلقة عالقة. كان أوّل ما تبادر إلى ذهنه أن يهرع إلى الشارع، ويُطبق بيديه العاريتين على رقبة ذلك الوغد. لكن، عندما يبلغُ الإنسان مبلغه من العمر، ويكون مُتمتعاً بقدر من الهيبة، فإنّه عادة ما يتجاوز هذا السلوك وينحو منحىً آخر. لذلك، هرع السيّد تومسا نحو الهاتف، وطلب مركز الشرطة: "آلو! أرسلوا لي أحدهم بسرعةٍ، لأني تعرّضتُ لاعتداءٍ بهدف القتل".

"في أيّ مكان؟" سأل صوت لا مُبالٍ ويغلب عليه النعاس.

أجاب السيّد تومسا بانفعال: "عندي"، وكأنّ الشرطة هي المسؤولة عمّا حدث له: "إنّها لفضيحة، هكذا بلا مُبرر، تُطلَقُ النّار على مواطنٍ آمنٍ يجلس في بيته! يجب إجراء تحقيق في هذه المسألة يا سيّدي، وبأكثر ما يمكن من الحزم، فهذا الأمر سيساعد على.."

Twitter: @ketab_n

"حسناً"، قاطعه الصوت الناعس: "سأرسلُ إليك أحدهم".

فرغ صبر المستشار، فقد تهيّأ له أنّ وصول "أحدهم" هذا، سيستغرق الدّهر كلّه. ولكن في الحقيقة، سرعان ما وصل مُفتّشُ شرطة رصين إلى المكان، بعد عشرين دقيقة، وتفحّص النافذة المُهشّمة باهتمام.

قال المُفتّش طارِقاً صلب الموضوع: "لقد أطلقَ أحدهم النار هنا".

انفجرَ السيّد تومسا قائلاً: "أنا أعرف ذلك بنفسي، فقد كنت أجلسُ هنا إلى جانب النافذة".

قال المُفتّش، وهو يُجَوّف بالسكين الطلقة العالقة في الباب: "السّماكةُ سبعة ميليمترات، يبدو وكأنّها من مُسدسٍ عسكريّ دوّار. أتعلم أيّها السيّد، يبدو أنّ هذا الشخص قد وقفَ على المساحة الخضراء التي تُطلّ عليها النافذة، فلو كان قد وقفَ على الرصيف لعلقَت هذه الرصاصة في منطقة أعلى. وهذا ما يؤكّد أنّه كان يستهدفك أيّها السيّد".

"هذا أمرٌ غريب"، قال السيّد تومسا بمرارة: "كنتُ على وشك الاعتقاد أنّه إنّما استهدف الباب ليس إلّا!"

"ومن الذي فعل ذلك؟" سأل المُفتّش دون أن يسمح للتوتر بأن يأخذ مأخذه.

قال السيّد المُستشار: "المعذرة، لأني لا أستطيع إعطاءكم عنوانه! أنا لم أرَ هذا السيّد أبداً، وقد نسيتُ دعوته للدخول!"

قال المُفتّش بهدوء: "إنّه لأمر صعب، وبمن تشكّ يا تُرى؟"

فرغ صبر السيّد تومسا: "أيّ شكوك؟" وتفوّه بانفعال: "يا رجل. أنا لم أر ذلك الوغد أبداً، ولو كان قد انتظرَ هناك تلطّفاً منه، إلى أن أرسل له صفعة عبر النافذة، فإني ما كنت لأستطيع التعرّف إليه في تلك الظُلمة يا سيّدي. لو كنت أعرف من هو، لما أزعجتك. ألا تعتقد ذلك؟"

Twitter: @ketab_n

أجاب المُفتّش برفقٍ: "أجل، لكنّك رُبّما تتذكّرُ من سيكون المستفيد من موتك، أو من أراد الانتقام منك لسببٍ ما. اسمع أيّها السيّد! هذه لم تكن مُحاولة سرقة، فمثل هذا السارق ما كان ليُطلق النّار إلّا إذا توجّب عليه فعل ذلك. لكن، رُبّما أنّ أحدهم كان حانقاً عليك. هذه أمورٌ يجب عليك أنتَ إخبارنا بها. ونحنُ بدورنا سنحقّق في الموضوع".

ارتبكَ السيّد تومسا، فهو حتى الآن، لم يكن يفكر بهذا الجانب من الموضوع، فقال بترددٍ مُستعرضاً بنظرة واحدة حياته الهادئة، وهو الموظف والشاب الذي أمسى يُتاخم حدود الكهولة: "ليس لديّ أيّ فكرة عمّن يُكنّ لي كلّ هذا الحنق، صدّق أو لا تصدّق، لا أعرف أنّ لي عدوّاً حتى ولو واحداً! هذا أمر مُستبعَدٌ تماماً"، نَفى ذلك بحركة من رأسه: "ليست لدي مُشكلة مع أيٍّ كان. أعيش وحيداً لنفسي بنفسي؛ لا أذهب لأيّ مكان، ولا أتدخّل في أيّ أمر يدفع أيّاً كان للانتقام منّي".

هزّ المُفتّش كتفيه: "لستُ أدري أيّها السيّد، لكن بإمكانك التّذكّر إلى أن يحين الغد. ألن تشعُر هنا بالخوف الآن؟"

قال السيّد تومسا: "لا"، وهو شارد الذهن. خاطب نفسه بضيقٍ عندما أصبح وحيداً: "إنّه لأمر غريب. ***لماذا***؟ نعم، لماذا يُطلِقُ عليّ أحدهم النّار؟ ألستُ أعيش في وحدة تقريباً، وأنجز عملي في الدائرة وأعود لبيتي، وليس لديّ ما أفعله مع أيّ كان. فلماذا يريدون قتلي؟" استغربَ بمرارة مُتزايدة نكران الجميل هذا، وشيئاً فشيئاً بدأ يشعر بالشّفقة على نفسه، وخاطبها: "يكدحُ الإنسان كحصانٍ، وحتى الإضبارات يحملها معه إلى البيت، لا يُضيع شيئاً، لا يستغلّ أحداً، تماماً كالحلزونة داخل قوقعتها. وفجأةً، يأتي شخص ما ليقضي عليه. ياإلهي! ما كُنه هذا الشرّ الغريب الكامن في الإنسان؟" اندهش السيّد المُستشار مُكتئباً: "ما الذي جَنَيْتُه على أيٍ كان؟ لماذا يُكنّ لي شخص ما كلّ هذه الكراهية الطاغية؟"

"لابدّ أنّ خطأً ما قد وقع"، قال مُهدّئاً نفسه، بينما كان يجلس على

Twitter: @ketab_n

السرير حاملاً بيده فردة حذائه التي قام لتوّه بخلعها. "مفهوم، لابُدّ أنّ الخطأ يتعلّق بالشخص المُستهدَف. بالتأكيد أنّ من أطلق النار قد خلطَ بيني وبين آخر كان يتقصّده. إنّها الحقيقة"، قال ذلك مُهدّئاً نفسه: "وإلا لماذا.. لماذا يكرهني أحدهم إلى هذا الحد؟"

وقعَت فردة الحذاء من يد السيّد المُستشار. "ها.. لماذا؟ نعم، نعم!" تذكّر فجأة وقد تَشتّت ذهنه: "لقد ارتكبتُ مرّة أمراً سَخيفاً، لكنّه كان مبعثَ تسلية لي على نحوٍ ما. لقد تكلّمت حينها مع صديقي روبال، وخرجَ من فمي تَلميحٌ غير موفّق، يتعلّق بزوجته. العالم كلّه يعرف أنّ هذه المرأة قد أساءت لسمعتهِ مع كلّ واحدٍ، وفي كلّ مكان، وهو يعلم بذلك، لكنّهُ يحرص على إخفائه. أمّا أنا، أنا البغل، لقد تعاملت مع الأمر بغباء"، تذكّر السيّد المستشار كيف بلع روبال ريقه، وغرس أظافر يده في بطن الأخرى. "يا إلهي!" قال ذلك مستفظعاً الأمر: "كم جُرِحَ روبال من تصّرفي! خاصّة وأنّه يحبُّ تلك المرأة بجنون. مفهوم. لقد حاولت الاعتذار منه بعد ذلك، لكن لو تدرون كيف عضّ هذا الإنسان شفتيه! إنّ لديه بالتأكيد سَبباً لكرهي"، قال السيّد المستشار بلهجة حزينة: "أنا أعرفُ ذلك، روبال لم يُطلق النار عليّ، إنّه لأمرٌ مُستبعدٌ تماماً. لكن! لا يمكنني استغراب الأمر".

نظرَ السيّد تومسا إلى الأرض بحيرةٍ: "رُبّما ذاك الخيّاط؟"، تذكّر بضيقٍ طافحٍ: "بعد خمسة عشر عاماً اعتدتُ خلالها على خياطة ملابسي عنده، قيل لي بأنّه يُعاني بشدّة من مرض السلّ، ومن الطبيعي أن يخاف الإنسان من ارتداء ثيابٍ كان قد سعل عليها مَسلول كهذا. لذا توقّفت عن الخياطة عنده. أمّا هو، فقد جاءني راجياً أن أُعيدَ ثقتي به، إذ لا طلبيّات خياطة لديه، وزوجته مريضة، ويتوجّبُ عليه وضع الأطفال خارج المنزل. يا إلهي! كم كان هذا الرجل شاحباً! وكيف كان يتعرّقُ من المرض! قلت له: يا سيّد كولينسكي، انظرْ! إنّه لأمر مستحيل، فأنا أريدُ خيّاطاً أفضل، ولم أكن مَسروراً منك. لكنّ هذا الرجل، وقد ظهر عليه الخوف والتردد، تأتأ بإجابته قائلاً: إنّني أبذلُ قصارى جهدي يا سيّدي. لكنّه، ويا للعجب، لم يصل

Twitter: @ketab_n

حدّ البكاء. أمّا أنا"، قال السيّد المُستشار وهو يتذكّر: "فقد طلبتُ منه الخروج، طبعاً باستعمالي كلمة 'سأرى' التي يعرف هؤلاء البؤساء معناها جيّداً. من الممكن أنّ هذا الرجل يُبغضني"، قالها وقد غصّ بالكلمات، فالأمر فظيع: أن يأتي الإنسان مُستعطفاً من أجل معيشته ويُصَدّ بمثل هذه اللامبالاة! لكن، ما الذي كان يجب عليّ عمله من أجله. "إني أعرف أنّه لا يمكنه فعلها، ولكن.."

كانت روح السيّد المستشار تزدادُ ضيقاً باستمرار وهو يستعرض الماضي: "كان الأمر مُزعجاً كذلك، إذ تذكّرتُ كيف شتمتُ خادم دائرتنا. لم أستطع إيجاد إحدى الإضبارات، فناديتُ على هذا المُسنّ وصحتُ بوجهه أمام الناس وكأنّه طفل! ماهذه الفوضى أيّها المعتوه، ما هذه الفوضى التي تعمّ كلّ شيء، كان يجب عليّ طردك. بعد ذلك، وجدتُ الإضبارة في دُرجي الخاص! أمّا هذا العجوز، فلم ينبس ببنت شفة، كلّ ما هناك أنّه ارتجفَ ورفرفت رموش عينيه".

كَوَت السيّد المُستشار حَرارة مؤلمة، قال بقلق: "الإنسان لا يعتذرُ لمرؤوسه، حتى عندما يوجّه له إهانة ما. لكن، إلى أيّ مدى يمكن لهؤلاء كره أسيادهم!؟ تمهّلوا! فسأُعطي هذا العجوز طَقم ملابسٍ قديم. لكن، حتى هذا الأمر مهينٌ له أيضاً".

لم يحتمل السيّد المستشار البقاء مُضطجعاً، حتى اللحاف الذي يتغطى به ضَيّقَ على أنفاسه. جلس على السرير ضاماً ركبتيه إلى بعضهما، وراح يُحدّق في الظلام.

"وماذا عن تلك الحادثة التي جرَت مع الشاب مورافيك، العامل عندنا في الدائرة؟" خطرَت الجادثة على باله مَصحوبة بالألم: "إنّه إنسان مُتعلّم ويكتبُ شِعراً، لكن عندما جهّزَ لي الملف مرّةً على نحوٍ سيّء، قُلت له: أعِد ترتيبه أيّها الزميل. لقد وقع بين قدميه، فانحنى لالتقاطه، وقد اصطبغ وجهه وأُذناه باللون الأحمر. لديّ رغبة بأن أنهال على نفسي باللطمات"،

Twitter: @ketab_n

غمغم السيّد المستشار: "فأنا إنّما أكنُّ لهذا الشاب المحبة، لكني أهنتُه حتى ولو من دون قصد".

قفزَ إلى ذهن السيّد المستشار وجهٌ آخر؛ إنّه وجه زميله وانكل، الشاحب والمتورّم. قال لنفسه: "مسكين وانكل هذا. لقد أراد أن يُصبحَ رئيساً للدائرة بَدلاً منّي، كان ذلك يعني زيادةً في راتبه قدرها بضعُ مئات سنوياً. لديه ستة أطفالٍ، ويزعم أنّه يريدُ تمكين أكبر بناتهِ من الالتحاق بمدرسة للغِناء، لكن ما بيده حيلة. وأنا قمت بتجاوزهِ لأنّه معتوه وحمار شُغلٍ. لديه زوجة سيّئة وكئيبة، من كثرة تقتيرها الأبدي، لقد كانت تكتفي بعلكِ قطعة خبز يابسة ظُهراً"، فكّر السيّد المستشار مغموماً: "يا لحالة وانكل المسكين المزرية وهو يرى أني بلا عائلة وأستلمُ أزيَدَ من راتبه، لكن ما حيلتي أنا؟ غالباً ما أُصاب بالضيق كلّما نظر إليّ هذا الشاب بنظرات قاسية ملؤها العتب".

مَسح السيّد المستشار جبينه المُبتلّ بالعرق، وقال لنفسه: "نعم، إنّ ذاك النادل لَطَشَ منّي بعض الكرونات. أمّا أنا، فاستدعيتُ صاحب الحانة الذي قام بطردهِ على الفور وصاح.. أنتم، أيّها اللصوص! ثمّ فحّ بوجهه قائلاً: سأعمل كل ما في وسعي كي لا يقبلك أحد في أيّ حانة من حانات براغ! هذا الشخصُ لم ينبس ببنت شفة، وغادر المكان. لقد برزت عظام ظهرهِ من تحت معطفه".

لم يُطِق السيّد المستشار البقاء في السرير. جلسَ إلى جانب مذياعه، ووضع السّماعة على أُذنيه، لكنّ مذياعه كان أخرساً، ساعات ليله كانت هي كذلك خرساء.

أسندَ المستشار رأسه على راحة يده، وراح يتذكّر الناس الذين التقاهم في حياته؛ من كان منهم عجيب الطِباع، أو من لم يتفاهم معهم من الصغار، ولم يُفكّر بهم في أيّ وقتٍ من الأوقات.

توقّف في الصباح عند دائرة المفتش، كان وجهه شاحباً بعض الشيء،

Twitter: @ketab_n

وكان مُتردّداً. سأله مُفتش الشرطة: "ماذا جرى، هل تذكّرت أحداً ما يكرهك؟"

هزّ السيّد المستشار برأسه، وقال غير واثقٍ: "لستُ أدري، لأنّ الذين بإمكانهم أن يكرهوني هم من الكثرة بحيث..."، ثُمّ لوح بيده حائراً: "اسمعني. الإنسان لا يعرف كم من النّاس قد أساء إليهم، وطبعاً أنا لن أجلسَ بعد اليوم إلى جانب تلك النافذة. جئتُ أرجوكم تعويمَ هذه القضيّة".

Twitter: @ketab_n

الرسالةُ الضائِعة

خاطب السيد الوزيرُ زوجتَهُ بينما كان يجهّز بشوكته لقمة كبيرة من السلطة ليدخلها في فمه: "يا بوجينكا(*) أتدرين؟ لقد استلمت بعد ظهر اليوم رسالة يتوجب عليّ طرحها أمام مجلس الوزراء، وهي ستثير اهتمامك بالتأكيد. لكن إن تسرّب شيء عن مضمونها، فإن أحد الأحزاب سيقع في ورطة حقيقية. سأعطيك إياها لتلقي نظرة عليها"، لكن السيد الوزير قال ما قاله وهو يمدّ يده إلى جيب صدريّته الأيسر أولاً ثم الأيمن: "مهلك قليلاً، أين.." همهم الوزير متحسساً جيبه الأيسر من جديد، ثمّ وضع الشوكة جانباً وبدأ تفتيش كل جيوبه الأخرى بكلتا يديه. المشاهد اليقظ سيلاحظ أنّه لوزير كهذا عدداً مفاجئاً من الجيوب، على ما أمكن من كل أجزاء جسمه وأطرافه، مثله مثل كل رجل حقيقي آخر، وأنّ في تلك الجيوب مفاتيح وأقلام، دفاتر ملاحظات وصحف المساء، حقيبة نقود وأوراق إدارية، ساعة ومنظفات أسنان، موسى ومشط، رسائل قديمة ومحرمة، علبة كبريت وتذاكر سينما قديمة، قلم حبر وغيرها الكثير من حاجات الاستعمال اليومي، وأن الوزير كان يدمدم وهو يعبث بتلك الجيوب: "أين وضعتُها؟ إنني مجنون، لننتظر"، وذلك كما كان سيفعل أي كائن بشري آخر راح يبحث في جيوبه عن شيء ما. لكنّ زوجة الوزير لم تعر انتباهاً كبيراً لهذا الحدث، وإنّما قالت ما يُتوقّع من أي سيدة أخرى: "أرجوك من الأفضل أن تأكل، سيبرد الطعام".

"حسناً"، قال السيد الوزير معيداً كلّ مُحتويات جيوبه إلى مكانها المناسب: "على الأغلب أنيّ تركتها على الطاولة في غرفة النوم، هُناك أنا قرأت تلك الرسالة. تصوري.." قال ذلك بحيوية وتناول قطعة خبز:

---

*) تصغير لاسم بوجينا. م.

Twitter: @ketab_n

"تصوّري أنّ أحداً ما يرسل لي نسخة أصلية منذ لحظة واحدة"، قال ذلك بعصبية ونهض عن طاولة الطعام: "سألقي نظرةً على غرفة العمل فقط، على الأغلب أنيّ قد تركتها على الطاولة هناك"، وغاب.

بما أنه لم يعُد حتى بعد انقضاءِ عشر دقائق، ذهبَت السيدة وراءه لإلقاء نظرة على غرفة العمل. السيد الوزير كان يجلس وسط الغرفة على الأرض، ويدقق في الرسائل وأوراق الملفات التي أخرجها من طاولة الكتابة.

"هل أسخّن العشاء؟" سألت السيدة بوجينا بحزم: "يا الله، لحظة"، قال الوزير شارد الذهن: "على الأغلب أني دسستها بين هذه الأوراق. من السخف ألّا أجدها.. هذا غير مُمكن. يجبُ أن تكون هُنا في مكان ما".

نصحته السيدة زوجته: "تناول طعامك أولاً، وبعد ذلك أبحث عنها".

"لحظة.. لحظة"، قال الوزير مُتضايقاً: "سآتي حالما أجدُه.. إنه مُغلّف أصفر. كم أنا مجنون"، همهم وهو يجمع ملفات أوراق أخرى: "هُنا، على هذه الطاولة قرأتها ولم أتحرّك من هذا المكان إلى أن دُعيتُ للعشاء. أين يمكنها أن تختفي؟"

"سأرسل لك العشاء إلى هنا"، قررت السيدة ذلك وتركت الوزير على الأرض وسط أوراقه ثم سادَ هدوء. أمّا في الخارج، فكان يُسمَعُ حفيف الاشجار وتساقط النجوم. كان مُنتصف الليل تقريباً عندما بدأت السيدة بوجينا تتثاءب مُتّجهة نحو غرفة العمل لتستطلع الأمر.

وقفَ الوزير وسط غرفة العمل المنكوبة، بلا سترته، وشعره وقد تشعّث، والعرق يتصبب منه. أكوام الورق مبعثرة في كل مكان على الأرض، والمفروشات مسحوبة بمسافةٍ عن الحائط، والسجاد مُلقى في الزاوية. أمّا على الطاولة، فطعام العشاء الذي لم يمسّه أحد.

"بحق الإله يا رجل، ما الذي تفعله هنا؟" هدرت السيدة بوجينا.

Twitter: @ketab_n

أجابها السيد الوزير وقد تخبّل: "يا إلهي، أتركيني وشأني، ماذا دهاك؟ أتريدين إزعاجي كلّ خمس دقائق؟" لكنّهُ أدرك مباشرة أنه ظلمها فأردف باعتدال: "الأمر يستدعي مني أن أبحثَ بشكل منهجي، أتدرين؟ كل قطعة بقطعتها. لابُدّ أن أجد الرسالة هنا، لأنّ أحداً غيري لم يطأ هذه الغرفة. لكن، لو أنّ هذه الأوراق لم تكن مبعثرة عندي هنا".

"أنا أساعدك، ألا تريد؟" اقترحت عليه السيدة بوجينا مُتضامنة.

"لا، لا. لو فعلتِ ستبعثرين كل شيء هُنا"، عارضها الوزير ملوّحاً بيديه وسط تلك الفوضى العارمة: "ما عليكِ سوى أن تذهبي للنوم، أنا حالاً.."

ذهبَ السيد الوزير في الثالثة صباحاً وقد ضاقت أنفاسه لينام، حدّث نفسه: "هذا غير مُمكن، ففي الخامسة أحضروا لي البريد، وكانت هذه الرسالة ذات المظروف الأصفر في عداده، قرأتها عند طاولة الكتابة، حيث عملت حتى الثامنة، وفي الثامنة ذهبت لتناول العشاء، وبعد خمس دقائق تقريباً، هرعتُ إلى غرفة العمل لأبحث عنها، وخلال الدقائق الخمس تلك ما كان لأحد أن يستطيع الدخول إلى هنا".

وهُنا قفز الوزير من الفراش بأرجل مستقيمة واتّجه نحو غرفة العمل، وطبعاً، كانت النوافذ مفتوحة، وهي في الطابق الأوّل وفوق ذلك لجهة الشارع. "هذا غير معقول"، قدّر السيد الوزير الأمر: "هل من المعقول أنّ أحداً ما قد دخل عبر النافذة!" لكنه حزم أمره: "يجب عليّ في الصباح أن أتحقق الأمر من هذه الناحية أيضاً".

ألقى السيد الوزير بجسمه، مرة أخرى، على السرير: "فلننتظِر"، تذكّر: "قرأت ذات مرّة في كِتابٍ ما، أنّ مثل هذه الرسالة لن تلفتَ انتباه أحدٍ لو وضعت أمام الأعين مُباشرة. لماذا لم تخطُر لي هذه الفكرة مُباشرة! هيّا إذن". أسرعَ ومن جديد إلى غرفة العمل لينظر إلى الأشياء البادية للعين، وليرى أيضاً أكوام الورق وأشرطة الكهرباء المنزوعة والفوضى العارمة التي

Twitter: @ketab_n

تبعث على المرارة. عاد الوزير إلى غرفة نومه شاتماً متأوّهاً وظلّ دون نوم. ضبط نفسه حتى السادسة صباحاً فقط. في السادسة علا صياحه على التلفون مُصرّاً على أن يوقظوا وزير الداخلية من النوم: "ثمّة قضية مهمّة، أتسمعني يا رجل؟" ولمّا تمّ الاتصال أخيراً، راح يتكلم بحرارة: " هالو.. السيد الزميل.. أرجوكم.. أرسلوا لي فوراً، لكن فوراً، ثلاثة أو أربعة من رجالكم الأكثر حنكة.. ماذا؟ نعم، رجال مباحث ممن تعوّلون عليهم طبعاً. لقد ضاع لي ملف هام.. السيد الزميل، إنه حادث يَستعصي على الفهم.. نعم، سأنتظرهم- إبقاءُ كل شيء على ما هو؟ أتعتقدون أن هذا ضروري؟ جيّد- سرقة؟ لا أعرف- طبعاً، سرّي للغاية، لا تخبروا أحداً عن ذلك- شكراً لكم وسامحوني لأنه.. احترامي أيها السيد الزميل".

اتّضح في الثامنة أن هؤلاء الأكثر حنكة، والذين يمكن التعويل عليهم، هم في نهاية المطاف سبعة؛ سبعة رجال من ذوي القبّعات السود وصلوا إلى بيت السيد الوزير.

"بإمكانكم أن تُفتّشوا أيها السادة"، أشار الوزير وهو يقود الرجال السبعة الأكثر حنكة إلى غرفة عمله: "هُنا، في هذه الغرفة، تركت البارحة شيئاً.. إيه، رسالة مهمة جداً.. بمظروف أصفر.. العنوان مَكتوب بحبرٍ ليلكي اللون.."

أحد الرجال السبعة الأكثر حنكة صفّر: "هذا مخربط الدنيا هُنا"، قالها بتعجّب المختص وأردف: "خنزير لعين".

"من؟ لأنه.."، قال الوزير مرتبكاً.

"ذاك السارق"، أفاد رجل المباحث مستعرضاً بنظرة انتقادية هذه المصيبة الإلهية الهابطة على غرفة العمل.

احمرّ وجه السيد الوزير قليلاً، وقال مباشرة: "لأنه، أنا هذا.. هذا هُنا.. بُعثرت قليلاً عندما بحثتُ عنها، وهكذا يا سادة، أنا..، إهـ، أنا لا أستبعدُ

Twitter: @ketab_n

إطلاقاً أن هذه الرسالة موجودة هنا، في مكانٍ ما.. مركونة أو ساقطة. ولكي أعبّر بدقة، لا يمكن أن تكون في مكان غير هذا. أعتقد أنه.. نعم، أستطيع التأكيد مباشرة، أنه يجب تفتيش هذه الغرفة بشكل منهجي. لكن هذه قضيتكم. لتقوموا.. بما يقدر عليه الإنسان".

في القدرة الإنسانية مسائل لا يمكن حصرها، لهذا أغلق ثلاثة من الرجال الأكثر حنكة غرفة العمل على أنفسهم ليفتشوها بشكل منهجي، واثنان منهم حققا مع الخادمة والطباخة والحارس والسائق. أما الاثنان المتبقيان، فذهبا إلى جهةٍ ما من المدينة، لكي يبدءوا البحث كما قالوا.

أعلن أول ثلاثة من الرجال الأكثر حنكة مساء ذلك اليوم، أنّه من المستبعد تماماً وجود تلك الرسالة الضائعة في غرفة عمل السيد الوزير، لأنهم خلعوا حتى الصور من إطاراتها، فككوا المفروشات وأعطوا كل ورقة رقماً. الاثنان الآخران تحققا من أنّ الخادمة فقط هي من دخل غرفة عمل الوزير، وذلك عندما حملت العشاء بناء على أمر السيدة بوجينا بينما كان الوزير يجلس على الأرض بين أوراقه، وليس مستبعداً أنها استطاعت خلال ذلك الوقت سرقة رسالة ما. بدؤوا يحققون لمعرفة من هو عشيقها. إنه حمّال من الخطوط الهاتفية، ويحرسه الآن أحد الرجال، بسرية تامّة. آخر اثنين كانا يبحثان في مكان مجهول.

في تلك الليلة، لم يستطع السيد الوزير الإغفاء. كان يُكرّر باستمرار: "في الساعة الخامسة، وصلت تلك الرسالة بمظروف أصفر، قرأتها عند طاولة الكتابة ولم أغادر المكان حتى العشاء، ولهذا لابُدّ أنها باقية هناك- وهي ليست هناك!" امتلأ حزناً وضيقاً من تلك الألغاز المقيتة والمستحيلة عموماً، لدرجة أنه تناوَل حبوباً منوّمة ونام كخشبة حتى الصباح.

في الصباح، لاحظ أنّ واحداً ممن هم أكثر حنكة يطوف- ليس معروفاً لماذا!- حول بيته. أما الآخرون، فقد بدؤوا البحث في كل أنحاء الجمهورية.

Twitter: @ketab_n

هاتفَهُ وزير الداخلية: "القضية أخذت مجراها، آمل باستلامِ تقرير قريباً، وحسب ما ذكرته لي أيّها السيد الزميل عن محتوى الرسالة، بإمكاننا القول من هو المعني بها.. لو استطعنا القيام بتفتيش منزلي لإحدى غُرف السكرتارية، أو إحدى إدارات التحرير، لأمكننا معرفة المزيد، لكنني أؤكدُ لك أن القضية أخذَت مجراها".

شكر الوزير بصوتٍ واهن، فقد كان مُنهكاً جداً ويغالبه النعاس، وحقيقة فقد اكتفى في ذلك المساء بالدمدمة قليلاً، ثمّ ذهب، بنصف فمٍ، إلى سَريره.

قرابة الساعة الواحدة- كانت ليلة قمرية صافية- سمعت السيدة بوجينا صوت خطوات في المكتبة، حفّزها لدرجة أنها تسلّحت بكل عزيمة النساء الرائعات، وسارت على رؤوس أصابعها نحو المكتبة. كان الباب مفتوحاً على مصراعيه، وإحدى خزائن الكتب مَفتوحة، وقد وقف السيد الوزير بملابس النوم أمامها. كان يُدندن بهدوء، نغمة ما، بينما راح يُقلّب بجدّية صفحات إحدى المجلات.

"بحق الإله يا رجل!" تنهدت السيدة بوجينا: "ما الذي تفعله هنا؟"

قال الوزير دونما تركيز: "أريد فقط أن أنظر هنا".

"في الظلام!؟" استغربت السيدة بوجينا.

"إنني أرى"، زعم الوزير وقذف بالمجلد إلى مكانه: "ليلة سعيدة"، قالها بنصف صوتٍ وسار ببطء نحو غرفة نومه.

حرّكت السيدة بوجينا رأسها تعجباً، وقالت لنفسها: "مسكين. إنه لا يستطيع النوم بسبب هذه الرسالة التعيسة".

في الصباح، بدا وجه السيد الوزير متورداً ومرتاحاً تقريباً، قالت السيدة: "أرجوك، ما الذي كنت تبحثُ عنه ليلاً في المكتبة؟"

Twitter: @ketab_n

وضع الوزير الملعقة وأجحظ عينيه: "أنا!؟ ما الذي يدور في ذهنك؟ أنا لم أكن في المكتبة. أنا كنت نائماً كهدهد".

"لكن، يا فلاديا(*).. لقد شاهدتُك هناك، وتحدثتُ معك! كنتَ تُقلّب صفحات كتاب، وقلت لي بأنك تريدُ النظر إلى شيء ما!"

"هذا هراء"، قال الوزير غير مُصدّق: "رُبّما تهيّأ لك ذلك، فأنا لم أستيقِظ طوال الليل".

لكنّ زوجته أكدّت له: "كنت تقفُ عند خزانة الكتب الوسطى، وزيادة فإنك لم تشعل الضوء، وكنت تقلّبُ صفحات المجلد في الظلام، وقلتَ أيضاً: إنني أرى".

طوّق الوزير رأسه بكلتا يديه، وحشرج مرتبكاً: "يا امرأة، هل أنا من هؤلاء الذين يمشون في نومهم؟ دعينا من هذا"، بذلك هدّأ نفسه: "لقد تهيّأ لكِ ذلك، فأنا بالتأكيد لست واحداً من هؤلاء!"

أصرّت السيدة بوجينا على ما قالته: "حدث ذلك الساعة الواحدة"، وأضافت بانزعاج: "لعلّك تريد القول أني مجنونة؟"

حرّك الوزير الشايَ بالملعقة، وقال فجأة: "رجاء، أرني أين جرى ذلك".

قادته السيدة بوجينا إلى المكتبة: "كنت تقفُ هنا عند هذه الخزانة، ووضعت مجلداً هنا، في فتحة الخزانة هنا".

حرّك الوزير رأسه وقد توزّعت أفكاره . في تلك الفتحة، كان صفّ من مجموعات القوانين والتعليمات الكاملة، الحساسة.

"إني مجنون حقيقة"، دمدم وهو يلامسُ بأصابعه حواف الكتب العليا، وعلى نحوٍ أوتوماتيكي سحبَ مجلداً كاملاً رأسه مقلوب إلى الأسفل،

---

*) تصغير لاسم فلاديسلاف. م.

Twitter: @ketab_n

وقد انفتح بين يديه تلقائياً: "في داخله، وضع مظروف أصفر ومُعَنون بحبر ليلكي اللون".

"أترين يا بوجينكا"، استغرب السيد الوزير: "كنت سأقسمُ بأني لم أخطُ خطوة واحدة من غرفة العمل، لكني الآن فقط أتذكر بضبابية كيف قلتُ لنفسي عندما قرأتُ هذه الرسالة: يتطلبُ الأمر مني أن أطّلع على أحد القوانين الصادرة عام ٢٣. رُبّما أني بعدها حملت هذا الكتاب إلى طاولة الكتابة، وأردت تدوين ملاحظة. لكن بما أنّ هذا المجلد كان ينغلقُ باستمرار، قمت بوضع هذه الرسالة فيه، كما يوحي كل شيء بذلك. وعلى الأغلب أني عُدت وأغلقت دفّتي الكتاب المشرّعة، ثم أعدته بصورة أوتوماتيكية إلى مكانه. لكن القول أني قصدت رؤية الكتاب من غير وعي، في الحلم هو.. إنه.. هـ... م.. أتعلمين.. لا تُكلّمي أحداً عن ذلك، إذ رُبّما سيعتقدُ الآخرون أني.. وهذا لا يخلّف انطباعاً جيدا لديهم؛ أقصد هذه المعلومات النفسية الغريبة".

بعدها بقليل، هاتف السيد الوزير، بضجيج الاستحسان زميله وزير الداخلية: "هالو.. السيد الزميل.. هكذا، فإن الرسالة الضائعة- لا كيف ذلك، لستم على درب الأثر. إنها قد أصبحت بين يديّ الآن! ماذا! كيف وُجدَتْ؟ لن أقولَ لكم أيها السيد الزميل. تعلمون! ثمّة أساليب.. أنتم في وزارة الداخلية لا تدرون بها بعد.. لكنني أعلمُ أن رجالكم قد قاموا بما يستطيعونه، وليس ذنبهم أنّهم ليسوا في مستوى.. لا، من الأفضل ألّا نتكلم بصدد هذا الأمر. العفو.. العفو.. أهلاً.. أهلاً، إلى اللقاء أيها السيد الزميل!"

Twitter: @ketab_n

آخرُ أشياءِ الإنسان

"يالها من تجربةٍ فظيعة، أن تكونَ محكوماً بالإعدام!" جزم السيّد كوكلا بذلك، "أنا أعرفُ هذا الأمر لأنني شعرتُ به يوماً ما، في اللحظات الأخيرة قبل إعدامي.. كان ذلك في الحلم طبعاً. لكن الحلم مثله مثل أشياء أخرى، ينتسبُ إلى حياة الإنسان لا محالة، وإن إلى هامشها. في ذلك الهامش، حيثُ لا يبقى من سموّك ومما تفاخرُ به في هذه الحياة أيّها الإنسان إلّا القليل. لكن، تبقى هُناك أشياء أخرى مثل جنس الإنسان والخوف وعشق الذات، وغيرها من الأمور التي غالباً ما تخجل منها. رُبّما تكون كلّ تلك الأشياء آخر ما يتبقّى للإنسان.

عُدّت ذات مرّة بعد الظهر إلى البيت كحيوانٍ باتَ مُنهكاً بعد عملٍ لوقتٍ طويل، لهذا ارتميتُ على الأرض وغفوتُ كما لو أني قطعةُ خشبٍ يابسة. تراءى لي من لا شيء أنّ الأبواب قد أُشرعَت وفي وسطها وقفَ شخصٌ لا أعرفه، لا من قريب ولا من بعيد. يقف خلفهُ عسكريّان يحمل كلّ منهما حربة بندقيّة مُثبتة، ولا أدري لماذا كانا يرتديان برّة قوقازيّة. خاطبَني الشخص المجهول بقسوةٍ صائحاً: انهَض! حضّر نفسك. في صباح الغد، سينفّذ فيك حكمٌ بالإعدام. أتفهم؟

قلتُ نعم، لكنني مع ذلك أجهل..

لكنّ هذا السيّد هبَّ في وجهي صارخاً: هذا لا يعنينا في شيء، لدينا أمرٌ بتنفيذ حكم الإعدام.. وصفقَ الأبواب خلفه بقوّة.

بقيتُ بعدها وحيداً أُفكّر، وأنا لا أعرف كيف يُفكّر الإنسان أثناء الحلم: ترى هل يفكّر حَقيقةً أم يتهيأ له أنّه يفكّر؟ أكانت تلك أفكاري أم أنّها

Twitter: @ketab_n

تراءت لي وحسب، كما تتراءى لنا الوجوه؟ كلّ ما أعرفه أنّني حاولت جاهداً التفكير، إلّا أني استغربتُ في الوقت نفسه ما قد فكّرت به. أوّل ما انتابني من المشاعر كان نوعاً من الاطمئنان الخبيث لكون أمر إعدامي في الغد ليسَ أكثر من خطأ غير مَقصود. أمّا **هُم**، فلن ينالهم من هذه الحقيقة إلّا الخجل. لكن، بالتزامن مع كلّ ما حدث، نمَتْ في داخلي مخاوف من أني سأعدَمُ فعلياً، وسأخلّف ورائي زَوجة وأطفالاً، ولا أدري ما الذي سيحلّ بهم، ويا ربّنا ... ما عساهم فاعلين؟ كان ألماً حقيقياً، كأنّما راح قلبي ينزف، ومع ذلك بعثَ فيَّ - في الوقت نفسه - شعوراً من الراحة اللذيذة، لأني إنّما أُفكّر بحرصٍ على كلٍّ من زوجتي وأطفالي. قلت مُحدّثاً نفسي: ها أنتَ ترى ما هي آخر أفكار الرجل الذاهب إلى الموت! إنّ ما أثلج صدري كان انغماسي في تلك اللهفة الأبويّة العظيمة، وبدا لي أنّ في هذا الأمر شيء من السموّ. لذا، قرّرتُ وأنا في غمرة الإعجاب بالنفس، أنّ عليّ إخبار زوجتي بالأمر.

لكن هُنا دبّ فيّ الفزع، إذ تذكّرتُ أنّ عملية الإعدام عادةً ما تُنفّذ في الصباح الباكر، عند بزوغ الشمس في الساعة الرابعة أو الخامسة. الأمر الذي يوجِبُ عليّ الاستيقاظ باكراً لمُلاقاة حتفي، ناهيك عن ذاك التصّور الذي طغى على كلّ ما عداه: أنّ هؤلاء العسكر سيسرقونَ غفوتي مع بزوغ الشمس، أنا.. الذي يكرهُ الاستيقاظ باكراً.. هبط قلبي وأوشكتُ على البكاء أسفاً على قدري. كان الأمر مُروّعاً إلى درجة أني أفقتُ وتنفّستُ الصعداء، لكنّني لم أُخبر زوجتي عن هذا الحلم".

"آخرُ أشياء الإنسان،" قال السيّد سْكْشيفانِك وقد احمرّ ارتباكاً، "سأقصُّ عليكم أمراً، رُبّما بدا لكم سخيفاً".

"لن يحدث ذلك،" طمأنهُ السيّد تاوسيج، "لاعليك، تكلّم!"

تابعَ السيّد سكشيفانِك من غير يقين: "لستُ أدري، لقد عزمتُ مرّة أن أطلق النار على نفسي، وتعليقاً على ما قاله السيّد كوكلا بصدد هامش

Twitter: @ketab_n

الحياة، أقول: عندما يريد الإنسان وضعَ حدٍّ لحياته، فإنّ هذا أيضاً هو نوع من هامش الحياة".

"لكن مهلك!" قال السيّد كاراس، "ولماذا أردتَ فعل ذلك؟"

"بدافع الدلال،" أجابَ سكشيفانِك وقد احمرّ وجهه أكثر فأكثر، "حقيقة، أنا.. لا أقوى على تَحمُّل الألم. عندما عزمتُ على فعل ذلك، كنتُ مصاباً بمرض ثلاثي الشقوق. قال الأطبّاءُ بأنّه من أسوأ الأمراض، فالإنسان.. أنا، حقيقة لاأدري!"

"هذا صحيح"، تمتمَ الدكتور فيتاسِك، "أُدركُ تماماً ما تريدُ قوله، وكم أشعرُ بالأسى لحالتك ، هل يعاودُك المرض؟"

"يُعاودُني،" انفعلَ سكشيفانِك، "لكنّي لا أريدُ الآن أن.. لأنّهُ يتوجّبُ عليّ أن أسرد لكم.."

"تكلّم.. وبلا حرجٍ"، شجّعه السيّد دوليجال.

"من الصعب التعبير عن هذا الأمر،" مانعَ السيّد سكشيفاِك متخوّفاً، "أو عُموماً .. هذا المرض.."

تَدخّل الدكتور فيتاسك: "هذا المرضُ يجعل الإنسان يصرخُ صراخ الحيوان".

"هذا صحيح، وحينما كنتُ في أسوأ حال، في الليلة الثالثة، وضعتُ المسدس على الطاولة. قلتُ لنفسي بأني لن أحتملَ الألم أكثر من ساعةٍ أخرى. لماذا أنا؟! لماذا عليّ أنا بالتحديدِ مُكابدة كلّ هذه الآلام؟ كان يَعتريني باستمرارٍ إحساسٌ بأنّ كلّ ما يجري لي لا مُبرّر له. لماذا أنا، لماذا أنا بالذات؟"

"كان عليكَ تناول حبوب الدواء،" قال الدكتور فيتاسك عابِساً، "تريمجيمين، فيرومين، أُولين، ألفوكراتين أو ميجرادون".

Twitter: @ketab_n

"لقد تناولتُها،" احتجّ سكشيفانِك، "يا سيّدي.. لقد ابتلعتُ منها كمّية بحيث.. بحيث لم يعُد لها أيّ تأثير عليّ، لأنّ.. تلك الحبوب نوّمتني.. لكنّها لم تُنوّم الألم.. أتفهمُني؟ الألم بقي .. لكنّه لم يعُد ألمي، لأني كنت.. مُتخدّراً لدرجة أني ضَيّعت نفسي بنفسي. لم أعُد أحسّ بشيء، بل بتلك الآلام. ولهذا بدأ يتهيأ لي أنّها آلامُ شخصٍ آخر، وقد سمعتُ ذاك الشخص.. ينوحُ ويئنّ بصوتٍ مُنخفض، فشعرتُ بأسى تجاهه إلى حدّ.. أنّ دموعي تدفّقت أسفاً لحاله. كنت أشعرُ كيف كانت تلك الآلام تزدادُ باستمرار.. قلتُ لنفسي: يا إلهي ! كيف يتحمّلُ هذا الإنسان كلّ هذا الألم؟ رُبمّا.. رُبمّا كان يتوجّبُ إطلاق النار عليه كي لا يُعاني أكثر! لكنني انهرتُ في تلك اللحظة.. فلا يُمكنني فعل ذلك! لستُ أدري. للحظةٍ، شعرتُ باحترامٍ خاص تجاه حياته. ولهذا السبب بالذات، عانيتُ الكثير.."

فركَ السيّد سكشيفانِك جبهته بيده وتابع: "لستُ أدري كيف أشرحُ لكم. رُبمّا هو التشتت الذي يَلي تناول أقراص الدواء، لكنّ هذا التشتت كان جلياً إلى حدّ .. السطوع. لقد تمَلّكتني فكرة أنّ من يُعاني ويتأوّه إنمّا هي البشرية.. إنمّا هو الإنسان نفسه. وما أنا إلّا مُجرّد شاهدٍ على تلك المحنة.. مُجرّد حارسٍ ليلي على سَرير الألم. خطرَ لي أنّه لولا وجودي هُناك لازدادَ الألم، ولكان مثل فعلٍ هائلٍ لا يعرف أحدٌ عنهُ شيئاً. لأنني قبل ذلك.. حينما كان الألمُ ألمي.. كنت أبدو يائساً كدودة، هزيلاً. ولكن.. عندما كان ألمي هذا يزداد، كنتُ أشعر إلى حدّ الرهبة كم أنّ الحياة عظيمة. شعرتُ أنّ.." تعرّق السيّد سكشيفانِك هُنا وقد اعترته الحيرة: " لاتجعلوا منّي مادةً للسخرية لو قلت لكم أني شعرتُ بأنّ هذا الألم إنمّا هو.. ضَحيّة ما، ولهذا، أتفهمونني؟ لهذا طَرَحَتْ كلّ الأديانِ الألمَ على المذبح الإلهي. لهذا كانت الضحايا المدمّاة.. والشهداء.. والإله على الصليب. لقد أدركتُ أنّه.. أنّه.. أنّه من آلام الإنسانِ تولدُ رحمة خفيّة ما. لهذا يجبُ أن نعاني لكي تتطهّر الحياة. إنّ أيّ سَعادة من القوّة والكبر بما فيه الكفاية.. فأنا أحسستُ أني إن تجاوزتُ المحنة، سأحملُ في داخلي قدسيّة ما".

Twitter: @ketab_n

"وهل تحملُها حقّاً؟" سألهُ الكاهن فوفيس باهتمامٍ.

احمرَّ وجهُ السيّد سكشيفانِك، وأجاب على الفور: "لا. الإنسانُ لا يعرف ذلك طبعاً، لكنّني منذ ذلك الوقت.. أكنُّ في داخلي ذلك التقدير الذي يجعلُ كلّ الأشياءِ تبدو لي أكثر أهميّة.. كلُّ صغيرة، وكلّ إنسان، أتعلمون؟ إنّ لكلّ شَيء قيمة عظيمة. عندما أراقبُ غروب الشمس أقول لنفسي بأنّ ثمنهُ هو الألم الكبير. كذلك النّاس، عملهم، حياتهم العاديّة.. كلّ هذا.. ثمنهُ الألم. وإني على يقينٍ بأنّه ثمنٌ باهظ ولا مثيلَ له، كما أني أؤمنُ بأنه لا وجود لأيّ شرٍّ ولا لأيّ عقابٍ. هُناك ألمٌ فقط يخدم قضية أن.. أن تكون للحياة تلك القيمة العظيمة.." وهُنا توقّف السيّد سكشيفانِك عن الكلام فجأة، لم يدر كيف يستمر به، لكنّه قال فجأة: "أعلمُ مدى تلطفكُم معي"، ثمّ تمخّط بانفعالٍ كي يُغطّي وجههُ المُحتقِن.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

شكر من المترجم

أقدّم جزيلَ شُكري وتقديري لكلٍّ مِن:

- نصيرُ الحقيقة والعدالة، البروفسور د. لوبوش كروباتشك الذي تكرّم بالتقديمِ لحِكايات تشابك هذه.
- الصديق الدكتور عدنان الأعسم الذي وَشّحني بومضاتٍ من أسرارِ لُغتنا الجميلة.
- ولكلِّ مَن ساهمَ في إعدادِ هذه الحكايات وإصدارِها.

المُترجم، براغ ٢٠١٣

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

فهرس الحكايات

مقدمة: كارِل تْشابِك وحكاياته البوليسيّة ٥
مَجموعةُ طَوابِع ٩
طَبعاتُ أقدام ١٧
تشينتاماني وطيور ٢٧
شاعِر ٣٩
حادثةٌ جَرَت لِطِفلة ٤٩
الأقحوانةُ الزرقاء ٦١
بَرقيّة ٦٩
إطلاقُ سَراح ٧٧
إبرة ٨٣
دليلٌ قاطِع ٨٩
المُستبصِر ٩٥
أسرارُ الكتابة ١٠٣
دُوار ١١٣
جريمةُ قتلٍ عاديّة ١٢١
الرجلُ الذي لا يعجِبُ أحداً ١٢٧
واقِعةُ قائدِ الفرقةِ الموسيقية كالينا ١٣٥
العرّافة ١٤١

Twitter: @ketab_n

مَوتُ البارون غَاندار ١٤٩
حادثةُ الدكتور مايزليك ١٥٥
حِكاية جنائيّ مُسِن ١٦١
الرّجلُ الذي لم يستطِع النوم ١٦٧
اعتداءٌ بهدفِ القتل ١٧٣
الرسالةُ الضائِعة ١٨١
آخرُ أشياءِ الإنسان ١٨٩
شكر من المترجم ١٩٥

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

المترجم برهان قلق: ولد في مدينة حيفا، فلسطين عام ١٩٤٥، لجأت عائلته عام ١٩٤٨ إلى لبنان ثم استقرت في العام نفسه في مدينة دمشق. عمل في السلك الإداري والدبلوماسي الفلسطيني أعوام ١٩٧٤- ١٩٩٢.

ترجم من اللغة البلغارية إلى اللغة العربية كتاب (السيبرنيتيك)، الذي صدر عن دار الطليعة - بيروت عام ١٩٧٩. ومن اللغة التشيكية ترجم إلى اللغة العربية كتاب (زيارة للأرض المقدسة)، الذي صدر منه عن دار الفكر - دمشق طبعتين ٢٠٠٤ و٢٠٠٨. كما أنه ترجم من اللغة العربية إلى اللغة التشيكية مختارات من قصائد الراحل محمود درويش وصدرت عام ٢٠٠٧ عن دار بابلون - براغ تحت عنوان (أنا آتٍ إلى ظلّ عينيكِ). يقيم حالياً في جمهورية التشيك.

المتوسط

Twitter: @ketab_n

كارِل تْشابِك: مفكر وكاتب مسرحي وصحفي ومترجم ورسام، يعد من أشهر الكتاب التشيك في القرن العشرين. ولد عام ١٨٩٠ لأب طبيب وأم مهتمة بالفولكلور الشعبي، في بلدة سفاتونيوفيتسه في الشمال الشرقي لجمهورية التشيك.

أنهى دراسته عام ١٩١٥ في كلية الآداب التابعة لجامعة شارل في براغ وحصل فيها على درجة الدكتوراة. ومع أنه لم يشارك في الحرب العالمية الأولى، بسبب مرضه، إلا أن تلك الحرب تركت أثرها الكبير عليه. خلال هذه الحرب بدأ العمل كمحرر في صحف ومجلات تشيكية عديدة، وبعد الحرب عمل كمؤلف مسرحي ومخرج في مسرح فينوهرادي في براغ، وأصبح في أعوام ١٩٢٥ – ١٩٣١ رئيساً لنادي (القلم) التشيكوسلوفاكي.

رُشّح سبع مرات لجائزة نوبل في الأعوام ١٩٣٢- ١٩٣٨؛ وتشابِك هو الذي قدّم للعالم ولأول مرة تعبير (روبوت)، الإنسان الآلي.

أدرك كارل تشابك خطر الفاشية في ثلاثينات القرن العشرين ونبّه لها في أعماله، واعتبر معاهدة ميونيخ مآساة شخصية ووطنية. ساند دائماً بشكل صريح الوحدة الشعبية وقيم الحرية.

منح عام ١٩٩٥ وسام «ت.ج. مساريك - أول رئيس لجمهورية تشيكوسلوفاكيا». توفي نتيجة وذمة رئوية عام ١٩٣٨.

Twitter: @ketab_n

في بلاد التشيك، يعرفُ الجميع من هو كارل تْشابك؛ التلاميذ يدرسونه في المدارس، فضلاً عن أنّ الكثير من الناس، من مُختلف الأعمار، ما زالوا يقبلون إلى يومنا هذا على قراءة كتبه بسُرور ويرتادون المسارح التي تُقدّم أعماله المسرحية في الوقت نفسه الذي خفّ فيه اهتمامُ غالبيتهم بالكتّاب الآخرين من بدايات القرن العشرين. يُعتبرُ تشابك في عداد الكتاب التشيك الذين تُرجِمَت إبداعاتهم ولا تزال إلى اللغات الأجنبية، والذين حازوا تقديراً في الخارج أيضاً، خاصةً في الدول الناطقة باللغة الإنكليزية. وتؤدي دوراً مهماً في ذلك، ليسَت النكهة الفُكاهية لكتاباته فقط، بل فلسفتها الإنسانية أيضاً، وكذلك الثقة بالجانب الطيّب في الناس وهَواجس التحذير من المَخاطر التي يحملها العالم المُعاصر في طيّاته.

(حكايات من جُعبة وأخرى) الصادرة في سنة ١٩٢٩، تشملُ خطّين من الحوادث البوليسية، وهيَ من ضمن إبداعات تشابك القصصية، وتحتلُ موقعاً طليعياً في أدبه. إنّها ليسَت حكايات بوليسية بالمَعنى الحرفي للكلمة؛ الأهمُ من كشفِ الجريمة، النظرة إلى داخلِ روحِ مُرتكبي الجرائم العاديين، ومن جهةٍ أخرى هُناك الرجال الطيبون من حرّاس القانون. يُقدّم المؤلف لنا تلك الحكايات القصيرة بأسلوبهِ السلس الأصيل، المُعطّر بالتسامح حيال الضعفِ الإنساني، وبالفكاهة الخفيفة.

قُدّمَت بعضُ هذه الحكايات كأفلام، وفي الفترات الأخيرة كأعمال تلفزيونية، وكلّها تَسترعي الانتباه، تُسلّي، وفي كثيرٍ من الأحيان تَدعو للتفكير.

ISBN 978-91-87373-73-2
9 789187 373732
المتوسط